رواية

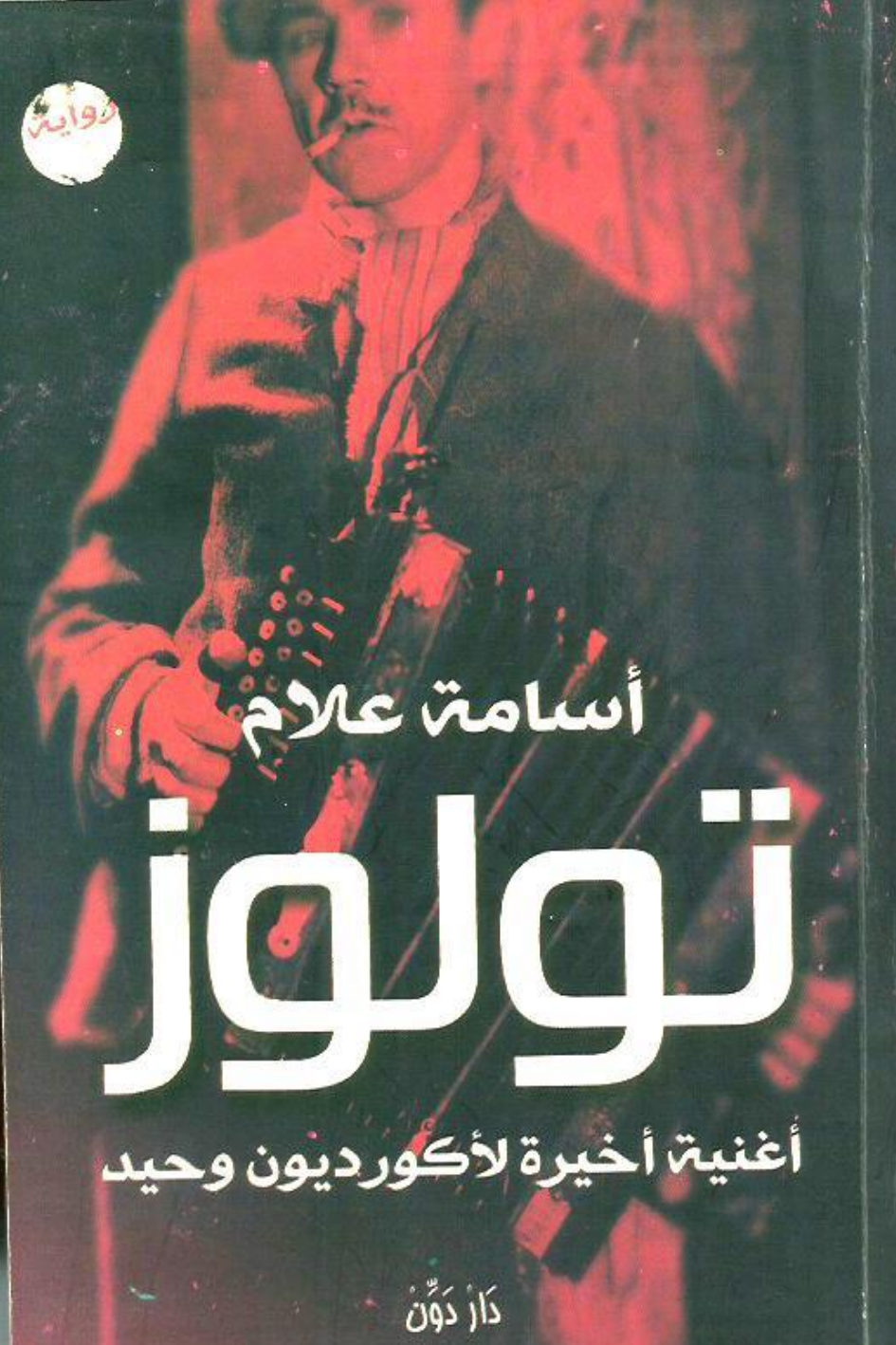

أسامة علام

# تولوز

أغنية أخيرة لأكورديون وحيد

دار دوّن

# تولوز.. أغنية أخيرة لأكورديون وحيد

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠١٤
رقم الإيداع: ١٤٣٧٤/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٨-٤٩-٦٤٢٦- ٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: سارة صلاح
تصميم الغلاف: أحمد مراد

جَميع حُقوق الطَبع والنَشر محفوظة
© دار دَوّنْ

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

# تـــولـــوز

## أغنية أخيرة لأكورديون وحيد

أســامة علام

روايـــــة

دار دَوّن للنشر والتوزيع

## ١- أماندا

تبدأ أحداثُ قِصَّتي هذه كمجرد وَمضة لتذكُّر أحداث مهمة استطاعت تغيير العالَم. ليس فقط عالمي البسيط الذي لابد أنه سينتهي بموتي، أو بمعنى أدق: سقوطي في حيرة الحب الطائش. لست أقصد بالتأكيد حبي له الذي كان عليَّ أن أدمره لأستمتع بكوني أنثى تستطيع إعادة الخلق، أو حتى الرقص بمجونٍ على أشلاء مشاعر ما، بل بوصولي إلى متعة انتمائي إلى جوهر وجودي كله، محاوِلة التحقُّق من أحداث قِصَّة عائلتي التي اتُّهِمَ أغلب أفرادها بالجنون والقسوة دومًا، دون أن يحاول أحدٌ منهم أن ينفي تلك التُّهَم السخيفة.. رُبَّما ليستمتعوا هُم أيضًا -كما أفعل دائمًا-بأنهم مخلوقاتٌ هزلية لا يمكن محاكمتها بجدِّية.

ففي عام (١٩٤٠)، كان على جدي «إيمانويل سانت كلارا» عازف الاكورديون الأسباني أن يعبُر جبال البرانس ليلًا إلى فرنسا، مصطحبًا جدتي «أليتا» البائسة، ببطنها المنتفخ بحملها في شهره السابع، وقابضًا بيدٍ من حديد على طفليه «بيدرو» و«ألفونسو» الصغيرين. مختبئين في ظلام القمر (الذي لم يرغب أن يكون شاهدًا على قِصَّتنا) من قنَّاصة فرنسسيكو «فرانكو» الديكتاتور، الذي ظَلَّ يحكم أسبانيا ستة وثلاثين سنة. كان مجرَّد أزيز بعوضة عابرة، قادرًا على إثارة حنق جندي خائف مثل أسرتي الهاربة، فيطلق زخَّات الرصاص التي تُزيد سرعة الفارين نحو الطرف الآخر.

كان جدي إيمانويل ينظر فقط إلى الأمام البعيد بظلامه، متعجبًا من التفاتات أليتا الدائمة إلى الخلف، حيث توجد ذكرياتها التي لم ترغب أبدًا في الرحيل، هناك حيث قريتها "بن عيشة" التي بناها عرب الأندلس الفاتحون متيمنين باسم زوجة نبيهم العربي، دون أن يعرفوا أبدًا بأن فرانكوا سيستخدم أحفادهم المغاربة لينتصر علينا.

"سيرى إلى الأمام وبسرعة فقط يا أليتا الحبيبة" هكذا كان يخرج صوت إيمانويل، الذي حمل أكورديونه على ظهره كتذكارٍ وحيدٍ من بلاده التي لن يعود إليها أبدًا. كان يعلم أنها تبكي وأنها قوية وأنه لا يستطيع مساعدتها سوى بالمشي أسرع، بينما بيدرو وألفونسو يبكيان، تمامًا كأمهما، دون أن يفهما قسوة أبيهما التي لم يعرفاها أبدًا. وفي مخيلتها كانت أليتا تستعيد كل الذكريات، محاولة أن تجد ما يساعدها على الفهم؛ وفاة أمها الحبيبة التي ترتبط ذِكراها دائمًا بفساتينها الملونة وحكاياتها المضحكة، أبوها الذي حاول حمايتها دومًا من ذلك الغريب الذي سيختطف يومًا قلبها ليتزوجها. حضور أمها الطاغي بعد وفاتها في كل القصائد التي داوم والدهاعلي كتابتها للراحلة. الذهاب أيام الآحاد إلى الكنيسة مع والدها متذمرة من حذائها الضيق الذي كانت لا تمتلك غيره. شغفها الدائم بالأغاني الشعبية التي يكتبها مسرحي وشاعر شاب اسمه"لوركا" بداية حرب أسبانيا الأهلية وخوفها الدائم من الموت دون أن تعرف معنى الحب. احتفالات صيف قريتهم الرطب وملابس العازفين المزركشة. رؤيتها لايمانويل لأول مرَّة وضحكاتها على طريقته المجنونة في العزف. الوردة الحمراء التي ملأتها خجلًا عندما قدمها لها وسط جمهور القرية. والدها الذي سحبها من يدها إلى البيت. حرمانها من الخروج مرَّة أخرى إلى ساحة القرية انتظارًا لرحيل ايمانويل وفرقته الموسيقية الجوالة. إيمانويل

المجنون الذي أصرَّ على البقاء ليالي طويلة يعزف لها ألحانه تحت شرفتها. خوفها من البندقية التي صوَّبها أبوها الخائف من ضياع ابنته وفقدانه الأثر الوحيد المتبقي من زوجته الراحلة. القربة كلها وهي تراقب معركة الموسيقى والبندقية بين والدها وحبيبها. دموع إيمانويل وهو يطلب يدها ودموع والدها أيضًا وهو يوافق على طلبه. ليالي القربة الطويلة التي احتفلت بزواجهما كصرخة اعتراض على الحرب التي تحاصر كل شيء.

"سيري إلى الأمام وبسرعة فقط يا أليتا الحبيبة" هكذا كان صوت إيمانويل يأمرها. صوت إيمانويل الذي كرهته لأول مرَّة -وربما ستكون المرَّة الأخيرة في شعورها بكراهيتها لصوته الحبيب، سينتابها بالتأكيد مشاعر تجاهه من الغضب، الحنق، الحسرة، ولكنها لن تسمح لنفسها أبدًا بكراهيته-وقدماها تتعثران بأحجار الجبل المؤلمة. كانت تعلم مقدار حبه لأسبانيا وإيمانه بأفكار فرنسا الاشتراكية التي لا تفهمها، لكنها تعلم أيضًا أنه أصبح من المستحيل له الحياة بعد أن اغتالوا صديقه "لوركا" الذي عشقت أغانيه وأشعاره التي يغنيها ايمانويل، دون أن تفهم أبدًا كيف لايمانويل بقلبه الكبير وثقافته الضحلة -كما كان يعترف هو نفسه دومًا-بأن يصادق لوركا الذي تظهر صوره وأشعاره في الصحف التي تستطيع قراءتها بمجهودٍ وصبر.

كانت تدافع عن نفسها بصوت تخنقه الدموع: "الجو بارد جدًّا يا إيمانويل وأطرافي ستتجمد. لن أسامحك أبدًا إن حدث للأطفال أيَ مكروهٍ" لكن إيمانويل لا يكف عن جملته اللعينة التي لا يستطيع النطق بغيرها: "سِيري إلى الأمام وبسرعة فقط يا أليتا الحبيبة"

وهكذا مرَّت ثلاث ليالٍ ليجدوا أنفسهم مكومين مع عشرات ورُبَّما مئات

العائلات في خيام ضيقة في تلك المعسكرات التي أقامها الجنود الفرنسيون على عجلٍ، للهاربين من أسبانيا فرانكو الشريرة إلى فرنسا الحليفة. كانوا قد سمعوا بالأنباء التي تشي بعدم ترحاب الفرنسيين، ولكنها لم تكن أبدًا في قبح حقيقة الواقع العارية، تلك الفضيحة التي سكت عنها عالمنا المتحضِّر المتواطئ دائمًا مع المنتصر. ومنذ اليوم الأول أُخِذَ الرجال سريعًا إلى معسكرات منفردة. لتعلم جدتي أليتا بعد شهور أن زوجها عازف الأكورديون يحارب في الصفوف الأولى ضد الألمان الذين احتلوا فرنسا؛ الحلم الذي هربت إليه الأسرة، وأن على أليتا وابنها أن يعملوا أُجرَاء مقابل طعامهم لدى السيد «فرنسواه» وزوجته في تلك القرية التي ما عدت أذكر اسمها الآن بجنوب فرنسا. بعد أن وجد السيد فرنسواه (والذي ستظل تدعوه بكلمة السيد حتى اليوم الأخير من حياتها، رغم كل ما بدرَ منه) جسدها ملقى فاقد الوعي، حولها طفلان صغيران لا يكفان عن البكاء أمام بيته، فعرف أنها أسبانية هاربة من ملامح وجهها وعدم فِهم أبنائها للأسئلة التي طرحها عليهم بفرنسيته الواضحة، فابتسم لزوجته المتعاطفة مع الأسرة البائسة، ممنيًا نفسه بعمالة مجانية في أرضه الواسعة، ومفكِّرًا بخبثٍ في جسد الأسبانية التي ستحتاج مع الوقت لرجلٍ يُشبع احتياجاتها العضوية.

وعندما أرادت أمي «صوفيا»، الخروج إلى الحياة، كان على جدتي أليتا أن تنتظر عودة السيد فرنسواه من المدينة لتستأذنه في أن تذهب سريعًا، لتضع مولودتها والتي أسمتها صوفيا الصغيرة، كإسمِ حماتها، كما طلب منها زوجها إيمانويل، وكما وعدته أن تفعل. وهكذا كان أول ميلاد فرنسي في العائلة هو ميلاد أمي أنا.. أنا: «أماندا ماركوا غبريال»، الفرنسية الميلاد والجنسية، صديقة منصور صاحب أعجب قِصَّة بين مِصر وفرنسا.

## ٢-

الميلاد الفرنسي الأول لأحد أفراد العائلة، كان لأمي صوفيا، التي جاء ميلادها تكريسًا لكل الشقاء الذي عانى منه عالم جدتي أليتا: وحيدة بدون أصدقاء أو أحد افراد العائلة. وأمام بصر بيدرو وألفونسو الصغيرين، فتحت أليتا فخديها لتقذف للعالم صوفيا الصغيرة، التي تمتلك كل ملامح جدي المقاتل مع وضد قوات عسكرية لم ينتمِ لها أبدًا. وكضفدع صغير لا يكف عن التطلُّع إلى العالم باندهاش، نظرت صوفيا إلى وجه أمها وأخويها المذهولين من مستنسخ أبيهم الصغير، الذي يحمل شَقًّا بين فخديه، لتقوم أليتا بقطع الحبل السُّري بنفس المقص الذي كانت تستخدمه في حياكة ما يمكن إصلاحه من ملابسهم، وترتمي بظهرها على أرضية حظيرة الخيول، ليكون نزول أمي الأول على العشب المحضَّر لغذاء الأحصنة.. لا لترث ملامح إيمانويل فقط، بل رأسه العنيد أيضًا.. بذلك الوجه المستدير ذو الشعر الأسود الكثيف والعينين الواسعتين بفمها الذي سيصنع ضحكتها الساخرة الشهيرة.

بينما أليتا الأم، تنتحب من قهر قدرها أمام ألفونسو وبيدرو الصغيرين، لابد أن الزمن كان حاضرًا بجلاله في تلك اللحظة، صامتًا ومنتبهًا محاوِلًا أن يسجِّل في دفتره الأبدي تلك الحركة الهامة: عندما هبطت يدا ألفونسو الصغيرتان لتلتقط صوفيا الوليدة، التي ما إن لمستها اليدان الدقيقتان حتى انطلق صراخها الذي لن ينقطع إلا بعد خمس وعشرين سنة.

نسيت أن أخبركم أن أمي صوفيا وُلِدَت بعلامة خالصة من الحظ السعيد، رغم أنها لم تقابل هذا الحظ إلا مرَّاتٍ قليلة في حياتها القصيرة. وُلِدَت صوفيا في كيسها الجنيني الذي احتفظت به جدتي أليتا ليكون هديتها للرجل الذي سيتزوجها. لا يجب أيضًا نكران جميل السيد فرنسواه وزوجته الفاضلة، اللذين منحا جدتي عُطلة ثلاثة أيام كاملة، على أن يقوم ألفونسو وبيدرو بعملها، وذلك بمساعدة «أمادو السنغالي» الصغير الذي وهبته أسرته من المهاجرين للسيد فرنسواه خلال مرورها بالقرية. لأن ما سيناله من الرعاية بالتأكيد أكثر مما قد يستطيع والداه الفقيران توفيره له مع سبعة أطفال آخرين، في تلك البلاد التي يجب على الجميع أن يبحث بنفسه عن لقمة العيش، تلك العطلة ذات الأيام الثلاثة، كانت كافية لأن تكتب فيها جدتي أليتا رسالة البشرى بميلاد صوفيا الصغيرة، لجدي إيمانويل، القابع على خط النار في الحرب العالمية الملتهبة، مرسلة كل أمارات حبها العميق، وإخلاصها الدائم. وبينما كان السيد فرنسواه وزوجته الفاضلة يتناولان قطعتين من اللحم المشوي الفاخر مع ذلك النبيذ الأحمر المعتَّق، فاجأتهما أليتا وبيدها تلك الرسالة مع خصلة من شعرها، مربوطة بخصلة أخرى من شعر صوفيا الوليدة، متقدمة بودٍّ وخجلٍ من المائدة العامرة وابتسامة ساحرة مرسومة على شفتيها، لتتحدث بخجلٍ، مرددة بفرنسيتها المتلعثمة والبدائية، طلبها الذي تدربت على إلقائه ليلة كاملة؛ بأن يساعداها في إرسال رسالتها لزوجها الذي لا تعرف مكانه.

لم تفلح كل محاولات السيد فرنسواه أو زوجته في إقناع جدتي أليتا بأن الحرب على حدود فرنسا على أشدها، وأنه من المستحيل إيصال تلك الرسالة، فما كان منها إلا أن كتبت على المظروف "من أليتا سانتا كلارا إلى أشهر عازف أكورديون بأسبانيا المقهورة، إيمانويل سانتا كلارا، مع خالص

حب زوجتك الوفية"، لتعطيها لأول جنديٍ مارٍ بالقرية في قافلة الجنود المتجهة إلى الحدود الشمالية.

ولم يستطع ذلك الجندي الشاب ذو العينين الزرقاوين والشعر الذهبي أمام توسلات ودموع تلك المرأة التي تحاول أن تحكي حكايتها بفرنسيتها الطفولية، إلا أن يضع الرسالة في حقيبته ويهز كتفيه ويمضي، دون أن ينظر إلى القرية التي لن يراها ثانية في حياته، معتقدًا أن حمل رسالة محبة بين أشخاص لا يعرفهم، علامة حُسن حظ ستحميه من موته المحقَّق، وبما أنه من خصائص السيد المدعو الزمن أنه سريع جدًّا، فقد مضت سنتان كاملتان بدون مجهود يُذكَر، أصبحت خلالهما صوفيا الصغيرة هي أهم صديقات زوجة السيد فرنسواه.

أمَّا السيدة فرنسواه -والتي ستصبح أحد أهم شخصيات حياتي-، فكانت دومًا هذه المرأة التي لا يمكن الشك في طُهرها، وكأنها عصفور صغير تحوَّل إلى امرأة رغمًا عنه، تمتلك بساطة وسذاجة العالم، وكأن الطيبة خُلِقَت من أجلها فقط، سيدة يستمتع كل ما حولها بحنانها الذي لا تتردد في إغداقه حتى على شراشف سريرها الوردية، وكأن طيبتها ليست سوى فعلٍ مضاد تحمي به نفسها من قسوة الحياة وزوجها الذي تحبه رغم كل شيء. و لأن الدنيا التي وهبتها قلبها الذهبي هذا، حرمتها لحكمة ما من الأطفال، فلم تجد زوجة السيد فرنسواه أفضل من صوفيا الصغيرة لصحبتها إلى الكنيسة في أيام الآحاد؛ لتركب معها عربتها الأسطورية التي تجرها الخيول البيضاء. بعد أن كانت سنوات الطفلين الأكبر في العمر بيدرو وألفونسو، أو رُبَّما شقاوتهما، حائلًا بين طبعها المرهف وطبع الطفلين اللذين لا تسكن حركتهما، بالإضافة لتلك الأسبانية التي يتحدثها الطفلان ولا تفهمها.

أمَّا أمادو السنغالي الصغير، فكان كافيًا نظرات سيدات القرية لها في كنيسة سانت ماريا الصغيرة، عندما اصطحبته لقداس الأحد تحت رعاية المحترم بنواه، لتصِمها بعاقر تبحث عن طفلٍ تمارس عليه أمومتها، حتى لو كان طفلًا أسودَ، فعهدت به إلى مربية ذات أصول إفريقية تسكن في مزرعة مجاورة، ليعود طفلًا له ست سنوات يستطيع أن يعاون السيد فرنسواه في أي شيء مفيد. رُبَّما أن ذلك الحظ الخفي الذي أتى بصوفيا الصغيرة في كيسها الجنيني، هو نفسه ذلك الحظ الذي وهبها لحظات الاستكانة وابتسامتها الساحرة التي لم تخطف قلب زوجة السيد فرنسواه المتعطش للأمومة فقط، بل قلب السيد فرنسواه نفسه، ذلك الرجل الصارم الذي لم يكن له همٌّ إلا توسيع رقعة أراضيه، بينما يستمتع بإثبات فحولته على نساء القرية الفقيرات، في وقت كانت انتصارات الألمان ترعب العالم كله.

## ٣-

أصبحت مزرعة السيد فرنسواه هي الجنة الموعودة للأخوين سانتا كلارا، بيدرو وألفونسو الصغيرين. ورغم ما اكتسباه من كلمات فرنسية كثيرة بحُكم سنهما الصغيرة، إلا أن الأسبانية ظلت لغتهما التآمرية الأثيرة ضد أمادو السنغالي – الذي سيبقى يدعى كذلك، حتى بعد حصوله على وظيفة مقبولة وهويّة فرنسية يضعها دائمًا بجيب سترته الأيسر قرب القلب مباشرة– بل وضد زوجة السيد فرنسواه نفسها في محاولتها لترويض هذين النمرين الصغيرين. ورغم ما كان منوطًا بهما رسميًّا كعمل مقابل لقمة العيش والمأوى لدى السيد فرنسواه، لم يفشل الولدان في تحويل كل مهام العمل الشاقة تلك إلى ألعاب طفولية مسلية، كانت كافية أحيانًا لتهديد الأسرة كلها بالطرد من المزرعة، ولولا دموع أليتا الأم وتوسلاتها وخوف السيد فرنسواه من سقوط زوجته الرقيقة مريضة إذا تخلت عن صوفيا الصغيرة، لكانت الأسرة ترتحل على بيوت القرية والقرى المجاورة متسولة كسرة خبز للطفلة الصغيرة. كان بيدرو وألفونسو يحملان جينات إبداع الطفولة التي تتنحي بمجرد وصول البشر لمعرفة الجنس الذي يغيِّر كل شيء، فيمضيان أمسيات كاملة في تغذية غربان ستلتهم محاصيل السيد، متعمدين إخفاء خيالات المآتة التي يمضي ساعات في صنعها، ليجدها ممزقة وكأن الشيطان يتعمد إزعاجه.

يمكنني أيضًا أن أضيف مرتاحة الضمير، أن جدتي أليتا القصيرة الممتلئة، ذات العينين الساحرتين، كانت هدفًا دائمًا لمحاولات التقرُّب من السيد

فرنسواه، الذي أُشتهِرَ بغرامياته المجنونة في غفلة من زوجته الحالمة. وكما كان صبر السيد فرنسواه وخبرته كبيرين بشئون النساء، كانت صلابة عفة جدتي أقسى، وكلما تذرَّع هو بأن الوقت وحده كفيلٌ بأن يجعل اليأس والإحباط يتسللان سريعًا إلى قلب الأم الشابة، كانت جدتي أليتا تجتر كل ذكرياتها الجميلة مع إيمانويل عازف الأكورديون، مقتنعة بأن من بين رجال العالم لم يُخلَق لها أفضل منه. فتجلس متحدِّثة له عن يوميات حياتها الصعبة، مؤمنة أن حكاياتها سيحملها له الهواء فيطمئنه، مستفيدة من تآمر العالم مع العاشقين دومًا ليهب لهم السعادة، مداومة على عادة النوم متخففة من ملابسها؛ ليجدها شهية كما اعتاد لو زارها في أحلامها، لتنظر إلى السماء البعيدة التي لابد أنها تظِله أيضًا، وتبعث له قُبلة تقذفها بيدها بعيدًا، مؤمنة بخيالٍ طفولي على قدرته في استقبالها والاستدفاء بها، وبالطبع لم تكن تغفل أبدًا نظرات السيد فرنسواه الشبقة، رُبَّما كان ذلك يسعدها أيضًا، ليس بفعل النشوة النسائية لكونها مشتهاة، بقدر تأكدها من أنها امرأة تستحق أن تُحَب من رجلٍ يحمل قلبًا مجنونًا ومخلصا كقلب إيمانويل.. زوجها الحبيب.

إلى ذلك اليوم الذي قرَّر فيه بيدرو وألفونسو أن تكون ألعابهما أكثر حقيقة وقوة في وجه السيد فرنسواه نفسه، فبعد يوم كامل من مساعدة السيد فرنسواه في إخصاء قطيع الخراف الصغيرة (ذلك اليوم الذي ساعداه فيه بكامل قوتهما؛ انتظارًا لمكافأة استثنائية، لتكون خيبة أملهما أكبر من طفلين ينتظران قطعة من الحلوى لن تأتي كالعادة)، فقرب انتهاء يوم العمل الشاق هذا، كان على بيدرو الصغير أن يسلِّم حَمَله الأثير -والذي كان يتبناه كطفلٍ وصديقٍ-بنفسه إلى كمَّاشة السيد فرنسواه التي سوف تحكم قبضتها على الخصيتين الصغيرتين للحَمَل المسكين ليتأوه بصوته الذي طالما أحبه

بيدرو. وأمام تردد بيدرو وتآمر ألفونسو، لم يجد السيد فرنسواه بُدًّا من أن يحكم قبضته على الحَمَل بنفسه، ليرتفع صراخ الطفلين والحَمَل في آنٍ واحد، وليرتفع صوت السيد فرنسواه لاعنًا إياهما وأسبانيا والحرب التي قادتهما إليه. في تلك الليلة لم يستطع الطفلان النوم قهرًا لعدم قدرتهما على الثأر للحَمَل الصغير وكل الحُملان الأخرى. وكم كنت أتمنى أن تنتهي الحكاية إلى ذلك الحد، ولكن كان لخالي بيدرو وألفونسو الطفلين إرادة أخرى.

فقد كان للسيد فرنسواه المتباهي دومًا برجولته، ولأكون أكثر تحديدًا"فحولته"، حصان يفتخر بأنه الأكثر طلبًا لكل فرسات المنطقة، فرسٌ أبيض عربي الأصل بشهادة تبين نسبه إلى الجد العاشر، دفع ثروة كاملة ليمتلكه، كعلامة واضحة على تميُّزه بين كل سادة الجوار. ليمضي أمسيات كاملة ممتطيًا فرسه متفحصًا حقوله الواسعة، شاكرًا الرب على امتلاكه أفضل حيوانات المنطقة، وباحثًا عن امرأة ما ترضى بأن تكون خليلته ولو بتأثير الخوف من بطشه واحتياجها لثروته.

وبينما كان بيدرو يفرغ جيبه الذي ملأه بالسُّكَّر في فم الحصان المسكين كان ألفونسو قد أحكم الخيط الرفيع على خصيتي الحصان الذي صهل بشدة فسقطت قطعة السكر من فمه، وبما أن القدر قد تآمر أيضًا لنصرة الطفلين الصغيرين، فإن السيد فرنسواه قد خرج في رحلة للمدينة استغرقت أربعة أيام، كانت زوجته الفاضلة تنظر فيها إلى الحصان غير مستوعبة هياجه الدائم ورغبته في ركلها هي بالذات كلما اقتربت منه. أربعة أيام برهن فيها بيدرو وألفونسو على قدرتهما العجيبة على أن يكونا طفلين مثاليين في خدمة السيدة الفاضلة، فانتهت طرقات أمادو السنغالي (كما اعتاد أن يفعل عندما يتأكد من سفر السيد فرنسواه) على باب السيدة

شاكيًا من الطفلين. الأغرب أنَّ الطفلين انقطعا تمامًا عن الحديث بالأسبانية في حضور السيدة الجليلة، بل استبدلا بها فرنسية سليمة شديدة التأدُّب. أربعة أيام كانت تبدأ دائمًا بصباحيات تفتح فيها السيدة الباب لتجد بيدرو حاملًا صحبة من الورد المنتقَى خصيصًا لذوق السيدة الرفيع، بينما ألفونسو يحمل صوفيا الصغيرة مرتدية أنظف ملابسها ورائحة الصابون المنعش تفوح منها، متوقفين عن كل الحماقات التي قد تضايقها، حتى إن السيدة لم تجد كلمات تقابل بها السيد فرنسواه العائد متعبًا من سفره، إلا أن تخبره وهي ملقاة بين ذراعيه بأنها أمضت أربعة أيام في الجنة الحقيقية بفضل الطفلين اللذين أصبحا أروع طفلين في العالم.

## ٤–

هل شاهد أحدكم لبؤة جريحة تدافع عن شبليها الصغيرين؟ رُبَّما الحكماء من الرجال فقط يعلمون ما للمرأة من قدرة على إقامة حربٍ لا نهائية من أجل أطفالها، هكذا كانت جدتي التي أحمل في عروقي دمها الممزوج بدماء اللبؤات المقاتلات، فعندما دخل السيد فرنسواه إلى حظيرته بعدما سمع من زوجته عن هياج الحصان الغريب. لم تستطع عينان خبيرتان كعينيه أن تهربا من الحقيقة العارية (بعدما كان جليًّا قطرات الدماء القليلة، ولكن الواضحة جدًّا تحت الحصان). انحناءة صغيرة من السيد فرنسواه كانت كافية ليكتشف الخصيتين المتدليتين بلونهما الأسود وخطًّا أحمرَ مدممًا وملتهبًا يفصل الخصيتين المتورمتين عن جسد الحصان الجميل. والرجل الذي لم يستطع أن يصدق عينيه، بعد أن دار دورة كاملة حول الحصان المتألم. عاود النظر أسفل الحصان. ليمدَّ أصابعه ملامسًا بقايا الدماء على أرض الحظيرة، لكن لا شيء استطاع أن يخفي ما كان متأكدًا تمامًا منه. لتترك الدهشة والحيرة قلبه، ويبدأ غضب لا حدود له يملؤه، شاعرًا أنه لم يكن الحصان ما تم إخصاؤه بل هو شخصيًا، فيصعد الألم ببطءٍ وحِدّة من أطراف أصابع قدمه إلى رأسه، ويطلق صرخة مدوية كردٍّ فِعليٍّ أوَّلي وتلقائي.

لم تكن صرخته مجرَّد صيحة غيظ وألم وحنق فقط، بل صيحة غيظ بلا حدود وألم بلا نهاية وحنق بلا قاع. صرخة لم يكن السيد فرنسواه نفسه يعلم أن لديه القدرة على أن يطلقها، دون أن يتوقع أن هذه الصيحة

سيكتب عنها البروفسير «برنارد بير» في كتابه الشهير عن عِلم أمراض الحنجرة، تحت صورة ملتقطة بمنظار طبي خاص لأحبال صوتية ملتهبة ومقطعة (بخطٍّ صغيرٍ علمي ومحايد)، صورة أحبال صوتية فقدت وظيفتها الحيوية نتيجة مؤثر صوتي غير معلوم. الجنس: ذكر، العمر: 45 سنة، المكان: جنوب فرنسا.

ولكن يبقى السؤال هنا محددًا وبسيطًا: ماذا فعلت جدتي أليتا؟ وهل كانت على دراية بفعلة ابنها الأخوين سانتا كلارا الصغيرين؟ لا أملك توقعات افتراضية للإجابة عن هذا السؤال، ولكن أمتلك القِصَّة التي روتها لي جدتي «روز» أو السيدة الفاضلة زوجة السيد فرنسواه (كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت). فألتا العاشقة لإيمانويل الموسيقيّ المجنون، كان لابد لها أن تقدم تنازلًا لأليتا الأم الخائفة على طفلها من بطش السيد فرنسواه الذي حوَّله الغضب إلى مجنونٍ كامل. هل كانت تعلم أن السيد فرنسواه قد أشعل ناره ووضع فيها العلامة المخصصة لوصم الأبقار بوشم المزرعة الذي هو اسمه بحروف بارزة، توضع في النار حتى تحمر لتحرق جلد الأبقار، فتتصاعد رائحة اللحم المشوي، (لتبقى الأبقار إلى اليوم الذي تُقاد فيه إلى المذبح تحمل اسم السيد) كعقاب لا ينسى للطفلين على جريمتهما التي لا تغتفر. وسواء كانت أليتا تعلم ذلك أو لا، فقد قرَّرتْ الدفاع عن طفلها حتى النهاية.

أرسلت بيدرو فأحضر صوفيا الصغيرة وأغلقت باب حجرتها على الأطفال الثلاثة، وخرجت ترتدي معطفها الأسود الطويل متجهه مباشرة إلى الحظيرة التي انطلقت منها الصرخة المدوية. لم يفهم السيد فرنسواه المصدوم وهو يقلِّب عينيه الزائغتين بين حصانه الذي بدأ في الارتعاش من حمى التتانس

التي أصابته من الجرح الملوث، وبين أداة وشم الأبقار المتوهجة في النار كشرفه المحترق، ماذا أتى بها الآن، يقولون دومًا أن النساء أكثر ذكاءً من الرجال، أنا أوافق على ذلك بشدة، ولكن بعد أن أضيف "عندما ترغبن في ذلك" كانت حركة واحدة من يد أليتا كافية أن تُفهم السيد فرنسواه الفاتح شدقيه كطفل أبله، أي ثمنٍ ستدفعه أليتا الأم لتشتري الحماية لطفلها الصغيرين.. حركة واحدة كانت كافية ليسقط المعطف الأسود أرضًا، فيظهر الجسد الأبيض المشدود متوترًا ومستعدًّا لإقامة المعركة.. هل كانت عيناها تشاهدان دموع زوجها الذي أزاح جثة صديقه الذي ألقى بنفسه فوقه لينجيه من نيران العدو في هذه اللحظة بالذات، فتتأكد أن الحياة قاسية جدًّا، وأن هناك تضحيات أكثر قسوة يجب تقديمها لمواصلتها؟

ودون أن يفكر السيد فرنسواه فيما عليه أن يفعل أمام هذه اللبؤة المتأهبة للانقضاض عليه، وجدَ نفسه منهزمًا في المعركة التي خاضتها أليتا بروح مقاتل يسعى إلى الحرية أو الموت بشرفٍ، بينما السيد فرنسواه الذي اشتهر بأنه الفارس الذي لا يُهزَم في عالم النساء، امتطته أليتا كحيوان مجنون، لتتركه يسقط في بئر شهوته إلى اللانهاية، لينتقل كل خوف وألم قلبها إلى قلبه مباشرة عبر اتصالهما الحميم، دون أن تنتبه لألمها أو تنظر في عينيه، وعندما سقط السيد فرنسواه مغشيًا عليه منتهيًا من ذكورته المهزومة، كانت يد أليتا تحمل آلة وشم الأبقار المحمرة من شدة النار لتضعها مباشرة على صدر السيد فرنسواه الذي حاول أن يصرخ، ولكن بلا فائدة، فأحباله الصوتية التي ساندته ليطلق صيحة غيظه وغضبه تلك أمام حصانه المخصي، خذلته وستخذله إلى الأبد، ليعيش السيد فرنسواه الأخرس صاحب مزرعة الأبقار بجنوب فرنسا. ولكن الغريب حقًّا أن أليتا الأم أقسمت لصوفيا الصغيرة التي كبرت يومًا ما كفاية لتفهم الحدث، وتعدها

بألا تخبر به إلا بنات الأسرة، أنها عندما رفعت وشم الأبقار الحارق من على صدر السيد فرنسواه، لم تجد حروف: (ف ر ن س وا ه) التي يتكون منها الوشم الحديد، بل كانت هناك حروف أخرى حمراء وملتهبة على صدر السيد المغشى عليه. حروف هي : ا ي م ا ن وي ل، تلك الحروف التي يتكون منها اسم عازف الأكروديون المحارب على حدود فرنسا والذي يدعى إيمانويل.. جدي الحبيب.

## ٥- منصور

لا أعلم أين أنا، كان السكون هائمًا كذئبٍ جائع في الغرفة، وأنا أنظر في هدوءٍ لملامح الجثة الساكنة أمامي: جسده الأسمر متصلب، والهواء لزج وثقيل، وجهه متشنج كأنه مات غضبًا، بطنه منتفخ، وجلبابه مشدود على خصره بلا رائحة لموته الحاضر بقوة، وكأن الزمن رفض أن يحيله إلى بقايا من ديدان وعظام انتظارًا للحظة وصولي.

الحجرة لا منافذ لها كزنزانة، وزجاجات العرقي مرصوصة في نظام هرمي مبني بصبرٍ لشهور، كأنه أراد أن يكتشفوها كهرم لخلوده مع جسده الذي لن يتحلل كقديس. لون الجدران الأزرق متوتر،كأنه سينفجر فجأة عن بحرٍ كامل بأمواجه وحورياته الأسطورية، سريره الذي يحتوي جسده النحيل، أصفر بلون الرمال والأصداف.. وأنا.. أقف متخشبًا في حضرة جلال موته الاستثنائي، لا أملك دموعًا لأذرفها عليه، ولا ذاكرة تفسِّر وجودي في هذه الغرفة التي لا أعرف حتى في أي مدينة هي.. لا إضاءة مميزة لشمس، أو أصوات تخبرني هل هو الليل أو النهار، وكأننا سجينان في قاع سفينة غارقة، أريد أن أصرخ ولكن صوتي حبيس عرق غزير ورجفة محمومة. أقف على مسامير من ألم ولا أستطيع الارتماء بجواره على السرير، قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة الضيقة بحيطانها المقبِضة رغم الأزرق البحري الذي صنعه بنفسه، رُبَّما ليطالع السماء من شرفة موته. ملامح وجهه تحمل لي تعريفًا شخصيًّا غائمًا، لكني لا أتذكر من هو، ذاكرتي بيضاء كملح ذائب في مكان ما لا أستطيع الوصول إليه.

فجأة ينفتح باب الحجرة الضيقة الذي لا أعرف أين كان هاربًا من عيني، لتدخل سيدة عجوز بجلبابها الأسود ووشمها المدقوق خطوطًا زرقاء على ذقنها، تطالِع الميت طويلًا مثلي، ليزحف النحيب ببطء على جسدها. تبدأ بالشهيق أولًا لتتبعه عضلات جسدها كلها في الاهتزاز، يرقص الجسد الهرِم رقصة الموت، رقصة ترثها النادبات والثكالى من بدء التاريخ الطويل، لترتمي على الجسد الأسمر، قابضة بيدٍ على تلابيب فتحة الجلباب، وضاربة بيدها الأخرى وجه الرجل المتصلِّب، الذي يرفض الإهانة والحركة، تضربه كحبيبة أو أمّ، مارس معها رذيلة موته المفاجئ ليتركها وحيدة، فينفرط منها النواح بلا خجل أو خوف. أنا أيضًا أعرف السيدة، لكني لا أذكرها كالرجل. وفي وسط كآبة الموقف السخيفة، أحاول أن أتنحنح لألفت انتباهها لوجودي فلا تنتبه.. أنحنى على جسدها لأرفعه عن الجثة فلا أستطيع.. بينما السيدة لا تشعر بضغط ذراعي عليها، وكأنني لا شيء.. يغضبني ذلك بشدة.. فأركل هرم زجاجات العرَقي بقدمي فينهار محدِثًا ضجيجًا وشظايا.. عندها ترفع العجوز رأسها متفحصة محيطها، تمسح بنظرها الغائم زوايا الحجرة الضيقة، وعندما تقع عيناها عليَّ، لا يغير ذلك من المشهد شيئًا، كأنني شبحٌ من عدم، فأسند ظهري إلى الحائط، وأضع وجهي بين راحتي وأبدأ في النحيب.

ومن شرفة حُلمي المدهش على حزنه، أشعر بيدٍ تهزني، فأجدني ملقىً على سريرٍ، الدموع تغمر خدودي، وسادتي مبللة، ووجوه أناس أعرفهم تلتف حولي مبتسمة، وصوتٌ يقول لي: "حمد الله على السلامة نورت بيتك يا دكتور".

أغمض عينيَّ مرَّة أخرى فيحرقهما عرق مالح. الجو خانق جدًّا. يفتح أحدهم نافذة فينساب هواء منعش، يسبقه صوت ضوضاء الشارع بصراخ أطفاله يلعبون، يدٌ ما تحتضن رأسي لترفعه قليلًا وأشعر بحافة باردة تلامس شفتي الجافتين، عندها ينساب الماء و السكر إلى جوفي الظامئ، فأفتح عيني لأشكر صاحب اليد الحنون.. لتكون المفاجأة، إنها نفس السيدة العجوز التي رأيتها في حُلمي تنتحب، وبدلًا من أن ينقبض قلبي، أبتسم لها بامتنان، فتربت على رأسي وتبدأ يدها العجوز في المرور على رأسي وصوت تلاوتها يتردد في أذني: "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"، "من شرِّ النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد مكررة إياها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، لأراها بين النوم واليقظة، تخرِّم عروستها الورقية بإبرة مستعيذة بالله من كل من رآني ولم يصلِّ على النبي، ذاكِرة أسماء رجال ونساء لا أعرفهم، عندها يعاود الخدر جسدي، وتستسلم روحي للسقوط في بئر النوم العميق.

## -٦

تهزني أشعة الشمس وتحثني على النهوض معلنة بقوة قدوم الصباح، وأنا أستعذب وضعي الجنيني في السرير دون حركة.. ببطءٍ أدور بعيني في الغرفة الواسعة؛ محاولًا أن أستعيد ملامح المكان في ذاكرتي، أن أتذكر أين أنا، ماذا أفعل في هذا المكان، فلا أجد إجابة.. ومن سريري أشاهد الصور المعلَّقة على الجدار الذي أمامي.. الصور كلها عتيقة ككل شيء في المكان، باستثناء صورة واحدة ملونة لشاب سأكتشف أنه أنا عندما أنظر في المرآة. ورغم الصداع الذي يطرق رأسي بنبضات مؤلمة، أنا لا أستطيع مقاومة فضول مشاهدة الصور فأقوم لأقترب أكثر.

كلهم يبتسمون لي أو على الأقل يحاولون. صورة لرجلٍ يرتدي المعطف الأسود الطويل على جلبابه الأبيض بوجهه ونظارته السميكة. صورة زفاف تبدو فيها العروس جميلة جدًّا في ذلك الفستان الأبيض الفضفاض رغم نظرة عينيها الخائفة، بينما زوجها يقف فخورًا بشاربه المدبب. صورة طفلين يرتديان الشورتات القصيرة مزهوين بدراجة صغيرة، أحدهما يضع يده على كتف الآخر وينظر إلى المصوِّر، بينما الأصغر يغالب دموعه. الصور أيضًا لا تعني لي شيئًا، لكني لا أتذكَّر أسماء أصحابها. وحده وجه شيخ أسمر بلحية بيضاء ينظر في الفضاء مبتسمًا، تحيط صورته مسبحة من عقيق أحمر، يجعل قلبي يدق بعنف. أستطيع بالكاد أن أقرأ الحروف التي محاها تراكم التراب والزمن تحت الصورة، "سيدي العارف بالله الحسين بن شبل أبو السبح"، حتى مع هذا التراب الكثيف الذي يغطيها تبرق لي المسبحة

كقطعة من لحمي. أمد يدي للمسبحة وأنفض التراب عنها فيهرب عنكبوت صغير فاجأته حركتي، نفخة بسيطة تجعله يهبط على الأرض بسلام، تاركًا يدي تحتضن المسبحة وتزيل عنها التراب، والمسبحة تتحدث سريعًا عن نفسها، برائحة ذكية تفوح منها، وكأنها اختبأت منذ عقود في قارورة مسك، حبَّاتها دافئة تنبض وكأنها مازالت تدور في حلقة ذِكر يد صاحبها. فجأة يدق صوتٌ مزعج جعلني أنتفض، حتى كادت المسبحة أن تقع من يدي، أكتشف بعد تكرار الصوت أنه جرس الباب. لم يترك الصوت الشاذ اللحوح لدي القدرة على التساؤل عن إمكانية وجود أجراس بهذا القبح، لأُسرع في فتح الباب للتخلُّص فقط من الضوضاء.

وجه السيدة التي أنامتني على كتفها مهمهمة في أذني بآيات القرآن يستقبلني، يتبعها أحد الوجوه التي شاهدتها ليلة أمس، لتمسك برأسي بين يديها تتأمله للحظات، وعندما لا يبدو عَنِّي أية ردة فعل، ترتمي عليَّ باكية تردد "يا حبيبي يا ابني، إيه اللي عمل فيك كده، يا كبدي يا اخويا" وبينما لا أعلم ماذا أفعل وأنا كطفل بين يدي هذا الجسد السخي ينهرها تابعها النحيف برفق: "ادخلي يا أم محمد بلاش فضايح على السلم"

عندما وجدت نفسي في أحضان تلك المرأة (التي لا يمكن إخفاء ودها وقلقها الصادق)، وليس لجسدي النحيل القدرة على أن يكون لي قرارٌ آخر. تمنيت لو كانت لدي القدرة لإيقاف سيل كلامها الذي أخرجني من خلوتي الجميلة، لكن العجوز لا تنتهي أبدًا.

- يا حبيبي يا ابني، مش عارفني يا ضنايا، أنا خالتك أم محمد، أم محمد يا ناصر اللي ياما شالتك على كتفها، وياما أكِلتك بإيديها.

ستخلع طرحتها؛ لتريني أذنها المقطوعة؛ لتذكرني بأنني من كان سببًا في سحب الحلَق من أذنها وقطعها وبقائها دومًا بهذه العاهة، التي تحملها لي كتذكار عزيز من أيام طفولتي، لتكمِّل: متنهدة:

- بقى رجعت مش عارف خالتك ام محمد.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يواجهني أحدهم بما أصبحت أعيشه دون تعريف حقيقي لحالتي، لقد أصبحت متّهمًا بفقدان ذاكرتي، وكأنه فعلٌ إرادي أحاول به التنصُّل من المرأة، بينما زوجها الذي يقلِّب عينيه بيني وبينها، يواصل فضيلة صمته التي أحمده عليها.

("لماذا يفقد الناس الذاكرة؟" سؤال سيفرض نفسه على أيامي الطويلة القادمة. الذاكرة لعنة الاحتفاء بالماضي. حفلة تعذيب تُقيمها ذكرياتٌ أليمة لا ترغب في التواري، ورغم ما قد تحمله الذاكرة من أحداث مبهجة، يبقى الألم هو المحرِّك الأهم لمشاعرنا كبشر. ميلادنا ألم كبير وموتنا ألم أكبر، بينهما آلاف الآلام الصغيرة/التجارب الصغيرة تدفعنا في الحياة حاملين خوفنا من تكرار التجربة، دون أن نعلم أبدًا هل في الإمكان التخلِّي ببساطة عن ذاكرتنا التي تدفعنا للاستمرار في الحياة؟ ليبقى السؤال الأهم بلا إجابة: هل الموتى ليسوا سوى أشخاصٍ قرروا في لحظة أسطورية ما، التخلِّي عن ذاكرتهم المليئة بكل الألم البشري، ليستمروا في الحياة بشكل آخر بلا آلام أو ذاكرة؟).

تحرجني نظرات الرجل المتعاطفة وأنا أجاهد في إخفاء عاري من ذاكرتي البيضاء، ورغم ذلك يتفهم الرجل لتمتمتي التي رُبَّما لم يستوضح كلماتها عن إرهاقي واعتذاري، وعندما يشاهد المسبحة المتسخة في يدي يبتسم،

لأسمع صوته لأول مرَّة متحدِّثًا عن جدي «ولي الله أبو السِّبَح»، كشيء يستطيع به ملء فراغ الصمت بيننا:

- مدد يا سيدي أبو السِّبَح مدد. الله يرحم جدك يا دكتور.

تُقلِّب العجوز عينيها سريعًا في غرفتي المتسخة لتقوم كعاصفة بدون استئذان. تخلع جلبابها الأسمر وتنطلق في الشقة بجلبابها البيتي تنظفها، بينما يخرج الرجل علبة تبغ ليلف سيجارة يدوية وهو ينظر إليَّ حزينًا:

لا حول ولا قوة إلا بالله، كان عليك بإيه ده يا ابني، آدي اللي جالك من السفر والغربة، كله مقدر ومكتوب يا صاحبي.

يدخِّن سيجارته متلذذًا بإطلاق دخانها عاليًا في جو الحجرة المغلقة، لتفاجئني يده العجوز بسيجارة يرفعها أمام وجهي فآخذها بعفوية إلى فمي الجاف، ومع تدفق الدخان أشعر بسعادة مفاجئة، لدرجة أن عيني تدمع من التلذذ بطعم اشتقت له، فألتهم السيجارة بتركيزٍ وشغفٍ.

الرجل ينظر لي ويضحك ضحكة صغيرة حادة، ليحكي الرجل عن جدي «أبو السُّبَح» الذي تمت تسمية الحارة بإسمِه. وليّ الله صاحب المعجزات الصغيرة التي كانت سببًا لتمييز أبناء الحارة عن كل أبناء مدينتنا المنصورة. جزيرة الورد كما كانوا يطلقون عليها قديمًا، التي لو كان بها القليل من الورع والعدالة لكان مقام جدي يزوره الآلاف كما يحدث مع مولانا السيد البدوي، مؤكِّدا أن العالم تغيَّر والأيام لم تعد بحلاوة أيام الماضي، فلا المنصورة استمرت جزيرة للورد بقصورها الصغيرة وأحيائها التي كانت تُغسَل بالصابون كل ليلة كمدن أوروبا، ولا الناس استمروا على وفائهم للأولياء والصالحين من أهل الله وخاصته، ليسألني سؤاله الذي لا يملك له إجابة ولا أنا.

- صحيح يا ناصر، إنت مش فاكر حاجة؟

ليكمِّل ناظرًا مباشرة في عيني، وكأنه يبحث فيهما عن الحقيقة.

وعندما أزم شفتي وأهز رأسي بالنفي، يهرب من نظري إلى الأرض بحزن حقيقي:

- ربنا يشفيك يا ناصر، مقدر ومكتوب يا صاحبي.

عندها سيرتفع صوته مخاطبًا المرأة التي اختفت عن عيني ليخبرها أنه ذاهب إلى الورشة، ويخبرني بأنه سيمر ليلًا.

صوت الجلبة الآتي من مكانٍ لا أراه، يخبرني أن المرأة مازالت في مهمتها لتنظف بيتي. غيابها البصري يتيح لي فرصة الهروب إلى النافذة التي اكتشف معها عالم الحارة؛ البيوت قصيرة، ومتراصة كطابورٍ طويلٍ من العُمَّال المنهكين، ورغم بؤسها البادي، تفيض عنها مشاعر طمأنينة، تغزلها النساء العجائز المفترشات الأرض أمام مداخلها، منهمكات في الحديث، وكأن العالم لم يكتشف غموض الأسرار. الرجال يحتالون على الملل بتدخين الأرجيلة وإطلاق النكات، بينما الصغار يعاودون إثارة الغبار والصياح بألعابهم البريئة. ومن شباك مراقبتي يدهشني منظر رجل وحيد لا يشارك أحدًا المؤانسة إلا حماره الهزيل، يسحب أنفاسًا من دخان سيجارته بعمق لينفثه ببطءٍ مغمضًا عينية في وجه الحمار، والأخير يستقبل الدخان رافعًا أذنيه مستنشقًا هدية صاحبه باستمتاع. وعندما تلمح المرأة العجوز ذهولي لمشهدهما، تقف بجواري وتحكي لي حكاية الرجل وحماره.

تقول لي المرأة بصوتها الذي لا يخلو دومًا من حزن، إن الرجل الذي فقدَ زوجته في حريقٍ صغير قد يحدث كثيرًا ببساطة واعتيادية في حارتنا، لا يستطيع تصديق موت خليلة عمره، المرأة التي هربت معه لأنها كانت تعيش

سذاجة الحب، متخلية عن كل أموال أبيها الذي كان يخدم الرجل في بيتهم حمَّارًا، لتكتشف معه قسوة الفقر وحاجته، ولتكتشف أيضًا كيف يستطيع رجلٌ فقير ابتداع سعادة لفتاته التي تحبه.

كان الحب يغيّر حياتها ويعلّمها فن ابتداع الرضا في حضرة المحبوب حتى ولو كان حمَّارًا، وكأن طول العشرة مع بَني الحيوان أكسبتْه رفقًا ورحمة لم يتعلمها الكثيرون.. فكانت زوجته أسعد بنات حارتنا.. هو لا ينسى لها جميل محبتها له، وهي لا تكف عن شكره لأنه استطاع أن يريها الحياة بعيدًا عن بيت والدها الذي كان يقدِّم لها كل شيء إلا السعادة. وعندما حلَّ قضاء الله، تغيَّر كل شيء في حياته، لم يكن ليصدقنا في موتها، اتهمنا جميعًا بالكذب. أهالَ التراب على رأسه وادعى أننا أعدناها إلى أهلها بعد كل هذه السنين التي عاشتها سعيدة في بيته. رُبَّما لأن أهلها دفعوا لأهل الحارة الكثير، أو لأننا كنا نستكثر عليهما السعادة التي لا نعرفها، دون أن يصدق في موتها ويرضى به كما أدمن دائمًا التفهُّم لحياته الصعبة والرضا. ومن بين جميع نساء الحارة انتظرني طويلًا كي يسألني عن موتها المحزن، وعندما أخبرته بأنها في عالمٍ أفضل كثيرًا من عالمنا، ارتمى على صدري يبكي كطفل. يومها ضممت رأسه لصدري كما لم أفعل في حياتي مع غريب عَنِّي قَط، وانطلقنا في البكاء الذي أبكى الحارة. زوجي سامحني عن فعلتي المشينة هذه أمام أهل الحارة.. صحيح أنه مازال يحمل ضيقًا خفيًّا منه، إلا أنه كالجميع يتفهم مواقفه الغريبة ويعذره. الفراق صعب جدًّا يا ناصر. المحزن فعلًا أن الرجل أصابته لوثة جعلت الأمور تختلط عليه، فيجلس بالساعات كما ترى يحدِّث حماره ويدخن معه الحشيش كما كان يفعل مع زوجته، محاولًا أن يخدع نفسه بأن روحها تعيش بجواره، تسكن الكائن الوحيد الذي لا يفارقه، حتى ولو كان مجرَّد حمار هزيل.

وعندما تنتهي المرأة من الحديث تبدأ في نهنهة مكتومة على صديقتها، وهي لا تنسى إكمال ترتيب ما حولها، وعندما تهم يدها بالاقتراب من حقيبة سوداء صغيرة ملقاة على الأرض، يصيبني الجنون فجأة وأنقضّ عليها دافعًا إياها، محتضنًا حقيبتي التي عليها لافتة سفر بالطائرة مكتوبٌ عليها "تولوز – القاهرة"، فتتساقط منها كتب وأوراق، بينما عيناي لا تفارقان عيني المرأة التي تنظر لي بذهول، لتتحرك بهدوء فتجمع الأوراق المتساقطة من الحقيبة، وتقترب مِنّي فتأخذ الحقيبة برفقٍ لتعيد وضع ما كان بداخلها، فأترك لها الحقيبة وأجلس على المقعد متمتمًا باعتذار لا تسمعه، وبدلًا من أن تتركني وترحل غاضبة، تعود بعد لحظات بابتسامة متآمرة لتمد يدها بصورة لي معانقًا سيدة شقراء وفي الخلفية بناء عتيق مكتوب عليه بالفرنسية "متحف أوجستين"

فأنظر بشرودٍ في الصورة التي التقطتها أم محمد من على الأرض، وعندما أطالع ظهر الصورة أرى عبارة مكتوبة بالفرنسية بخط أنثوي جميل. "أماندا ومنصور- الحب الذي لن يقدر عليه الزمن"

## -٧

تتحول شرفة حجرتي إلى فنارٍ وحيدٍ أمام ليل الحارة القلِق. الأصوات شاحبة كهمسات أمواج متكسِّرة. وأنا أضيف لعتمة الليل عتمة الغرفة. رُبَّما يسطع شعاع نور من روحي التائهة. أردد لنفسي ما أملوه عليَّ. أنا شخص عائد إلى ملكوته بلا ذاكرة، الجميع خيالات حنونة، والكل يحمل الخير أو يدّعيه، وحدي أبحث في صناديق الماضي الفارغة، تضرب أشرعتي نوبات طمأنينة تدركها دومًا رياح خوف وضياع، صورتي مع السيدة الفرنسية تخبرني بأنه رُبَّما لي حبيبة. رائع هو أن يكون للرجل حبيبة، ولكن لماذا تركتني وحيدًا؟ ما الذي ذهبَ بي إلى فرنسا، وما الذي عاد بي منها؟ الظلام رداء الحيرة والمجهول، فلماذا أطفأت الحياة شعلة الماضي في عقلي. يعود الرجال منهكين إلى أحضان نسائهم ليلًا ليحكوا، فما عساي أن أحكي لأماندا التي كانت تحتضني في الصورة.

أغمض عيني محاولًا أن أتخيل الحارة في حياتها الليلة، رُبَّما لا أملك التفاصيل لكنني أستطيع تخيُّلها.. الأطفال لا يريدون النوم طمعًا في ألعاب لا تنتهي.. الرجال يريدون التخلُّص من ملابس نهارية متسخة ورغبات جسد متعب، والنساء على سمنتهن وشروخ أجسادهن التي أنهكها شقاء الولادة والعمل، يمنحن الأطفال فرصة أخيرة لمزحة أخيرة، ويمنحن الآباء رجولتهم بأجسادهن الطيبة وأرواحهن المتسامحة. في خيالي الحارة لا تنام أبدًا، كشمسٍ تبحث دومًا عن أرض تهبها صباحاً جديداً. كائناتها الدائمة الحركة تتحول إلى أشباحٍ ليلية لكنها لا تتوقف أبدًا عن

الدوران. الحارة التي عدت إليها تتربص بي، وأنا وحيد بلا ذاكرة أشرعها في وجهها فأعرف طريق العودة إلى حبيبتي. أفتح عيني فتعود للحارة صور البيوت المتراصة والعائدين في هدوء للأسرة، من بعيد يبدو لي مقام من أحمل دمه وحيدًا يتابع الليل السرمدي مثلي.

مازالت مسبحته في يدي منيرة في العتمة، ومن بعيد يدعوني جدي النائم في موته للحديث. دعوة تشعرني بها نسمة دافئة تهب من مقامه، نسمة موجهة تعيد لي شعورًا بأن لدي ما أنجزه، تشجعني روحي لمحادثة الوحيد الذي أعرف مكانه من العائلة، فأرتدي ملابسي في الظلام بهدوءٍ وكأنني لا أريد إزعاج الأثاث المستكين للراحة والصمت، أتسلل على سلم البيت العتيق كهارب من المجهول، ورغم العتمة تدهشني ذاكرة أقدامي على القفز فوق العتبات، وكأن رأسي فقط من بين كل أعضائي هو من فقدَ ذاكرته.

أتطلع من باب الدار الخشبي إلى الحارة التي تبدو وكأنها ضاقت لتصبح ممرًّا صغيرًا، وعندما لا أرى مارة في الطريق، أجري إلى المقام الصغير في طرف الحارة الشمالي، حيث مقام جدي الرابض عند انتهاء الحارة، وكأنه عسكري درك يسهر عليها، أسند يدي على باب الضريح الكبير فينفتح، ورغم ترددي في الدخول تطمئنني اللوحة الخشبية الكبيرة المترَّبة فوق الباب "إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"

خطوتي الأولى إلى الضريح تهوى بي إلى الأرضية المنخفضة بنصف متر عن الشارع تقريبًا. أكاد أنكفئ على وجهي فأستند بيدي على مقصورة القبر الكبيرة، تحتك بأنفي رائحة المسك التي لم تفارق المسبحة التي وجدتها في

بيتي.. للرائحة حضور خاص هنا.. حضور أقوى، عفي وطاغي. المكان يضيئه نورٌ لا يأتي من مكانٍ محدد.. نور واضح كالرائحة، لا يمكن تحديد مصدره أبدًا. أصيخ السمع فأستمع لهمهمات قرآن يُتلَى، الصوت يأتي سريعًا وكأن الآيات تجري كنهرٍ على لسان القارئ. أبحث عن مصدر الصوت الذي اكتشفني فصمتَ. أدور دورة كاملة حول المقام فلا أجد أحدًا.. لقد أتعبني كل هذا الجنون الذي أعيشه. أعترف لنفسي بأنني أهذي. أشعر أن جسدي ثقل ككيس من ملح فوق قدمي المتعبتين، وأسمع صوت تنفُّسي عاليًا ومضطربًا، فأجلس على المقعد الخشبي الوحيد بالمقام، أغمض عيني محاوِلًا أن أتذكر جدي المسجى أمامي، وعندما تتعبني ذاكرتي البيضاء، أتمتم بالفاتحة، التي لا أعرف كيف تذكَّرتها ورددتها بعفوية، وأصمت معاودًا الاستماع لصوت تنفُّسي وصمت الحارة التي كأنها تلاشت، عندها تجثم على صدري موجة حزن عارمة، فيعلو صوتي بالبكاء دون أن أعرف ما الذي يبكيني. يربحني البكاء فأبكى أكثر، فأشعر بثقل جسدي يتحرر وكأن الدموع تذيبني. أترك لجسدي الحق في الاهتزاز والنواح، كأنني أنفض عنه ترابًا كثيفًا يخفي ملامحه، تراب تجمع على روحي من أثر سفري الطويل لجهة لا أعرفها، وعندما أشارف على الانتهاء تكون روحي هامدة وعيناي حرقتهما الدموع، وتكون همهمات القرآن حولي قد عادت أكثر وضوحًا وتسارعًا. أفتح عيني فأرى ظِل رجل بجواري، لا أستطيع تحديد ملامحه من غمامة دموعي، أمسح الدموع بكلتا يدي وقلبي يخفق من الفزع، وعندما يرى الرجل العجوز وجهي يكف عن تلاوته ويبتسم. تطمئننى ابتسامة وجهه التي أكتشف أنها مصدر النور في الضريح المظلم، الوجه أعرفه لكن لا أتذكر أين رأيته.

يطيل الرجل النظر إلى وجهي وكأنه هو أيضًا يعيد تذكّر ملامحي، وبعد صمتٍ لا أعلم مداه، يتحدث إليَّ بلغة عربية فصيحة وصوتٍ عميق لم أسمع لنبرته مثيلًا:

إذًا فقد عدت يا ابن النزوة التي جعلت من التائه مصباح الطريق وشيخ الطريقة.

لا أعرف بماذا أرد على الشيخ الوقور، فأحني رأسي إلى الأرض وأبوح بهمي للرجل الذي أطمأنت روحي لصحبته:

- رجعت يا شيخي وذاكرتي مظلمة كشمعة مطفأة.

لا تسأل الطريق عن الطريقة. دمك دم التائه الذي خرجت من صلبه. لك رب اسمه الكريم. فلا تسيء الظن بالتدابير.

- مَن أنا، وأين كنت، وما الذي ينتظرني؟

- اسأل النائم في لحده أمامك، رُبَّما لو كان يعرف الحقيقة لنجَّاك ونجَّى نفسه.

- وهل يتحدث سكان اللحود للأحياء يا شيخي؟

- "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

- روحي من عدمٍ كروح جدي الميت.

- ومن أخبرك بأن أرواح الموتى إلى عدم يا صاحب الحقيقة التي لم يكن لك أن تعرفها؟

- أي حقيقة وأنا لا أعرف حتى من أنا؟

يبتسم الشيخ العجوز فيزداد الضوء في المكان، وكأن الشمس قد أشرقت فجأة، فأخبئ وجهي بيدي:

- حيرتك رحلة التائه فتتبعت خطاه، وعندما احترقت روحك بالمعرفة التي ابتغيتها، قررت أن تكشف ستر الذي يستر الناس بالليل والنهار عنه، فدعونا الله أن يعود بك إلى بداية الطريق، لعلَّ النور الذي أحرق عينيك يهديك.

عندها يشيح الرجل بوجهه عَنِّي ويعود لتلاوة القرآن، فيبدأ النور المبهر في التلاشي، فأسند ظهري إلى جدار المقام وأغمض عيني، لأسقط في نومٍ عميق. و عندما استيقظ أجدني وحيدًا كما دخلت الضريح، تركني الشيخ الذي لا أستطيع أن أجزم أكان رؤية أم حقيقة، ليتركني في حيرة من أمري وأمر هذا التائه الذي حدثني عنه كثيرًا، ويكون الليل قد قارب أيضًا على الرحيل.

## -٨

أقرر الخروج إلى الحارة بعد أن ألقي نظرة وداع أخيرة على القبر الرابض في المقام، وأعاود قراءة الفاتحة، لكن عند العتبة التي تعاود الارتفاع لينفتح بعدها عالم الحارة. أتوقف للحظة قبل أن أعود لأتم لفة كاملة حول الضريح. رُبَّما أجد الشيخ الذي جالسني، فلا أجد أحدًا سوى رائحة العنبر التي لا تغيب أبدًا عن المكان، فأخرج إلى النهار الذي يعاود مثلي اكتشاف الحياة.

أمشي واضعًا يدي في جيوبي وأنا أشعر بالحيرة والطمأنينة اللذين يستحيل أن يجتمعا. أتجه إلى بيتي رُبَّما أستطيع أن أضع رأسي على الوسادة و أكمل النوم، لكن قبل وصولي إلى مدخل البيت القديم، والذي كنت قد علمته بطلائه الذي كان يومًا ما أزرق، أسمع من يهمس باسمي خلف أحد الأبواب الموارِبة في الطريق القصير بين الضريح والبيت، فألتفت إلى الصوت الأنثوي الخفيض الذي يدعوني للدخول، الحارة كلها ساكنة ولا أحد يراني، وعندما ألج المدخل المظلم ينغلق الباب خلفي، فلا أميِّز شيئًا من شدة الظلام، لكني أشعر بجسدٍ أنثوي يحتويني وشفتين رطبتين تقبِّلاني، قبل أن أتلقى ضربة قوية على رأسي، فأسقط مغشيًا عليَّ.

وعندما أستيقظ على الألم الشديد في مؤخرة رأسي، أحاول الحركة فأكتشف أن يديّ مقيدتان بمقدمة سرير نحاسي بأعمدة، وقدميّ أيضًا

مقيدتان إلى قاعدته. أرفع رأسي قليلًا عن الوسادة وأفتح عيني، فأجدني مسجىً بلا ملابس تمامًا في حجرة واسعة، تكاد تكون خالية من الأثاث.

تجلس أمامي على مقعدها امرأة عجوز جدًّا تنظر إلى ملامحي بوجه منحوت من صخر، لا تثيرها نظراتي وكأنها ميتة، ترتدي السواد الذي يغطيها كامرأة في حدادٍ أبدي، وعندما أحاول التحدُّث أكتشف أن فمي محشوٍ بمنديلٍ من قطن، فأستسلم واضعًا رأسي على الوسادة من شدة الألم وأشعر بظمأ شديد.

كان العالم يدور بي دون أن يسمح لي بتحليل وضعي الشاذ، لا أعلم كم مرَّ عليَّ من وقتٍ قبل أن تدخل عليَّ السيدة الأخرى، التي تثير جلبة لتنبه عيني فأفتحهما لأشاهدها. جسدها ممتلئ بجمال، تضع على وجهها نقابًا أسود يخفي ملامحه، بينما الجسد كله مكشوف تمامًا؛ بطن مكورة ناعمة وثديان مستديران بفتنة، تتطلع إلى وجهي لتعاود المرور بنظرها إلى جسدي النحيل للحظات.

قبل أن تقترب لتجلس بجواري، تتحسس فخذيَّ بأصابع مكتنزة وتداعبني، فيكاد قلبي أن يتوقف من الخوف، وأشعر أن جسدي بارد كالثلج، وسيدة النقاب تشعر بخوفي فترتمي بجسدها فوقي، تدفس رأسي بين ثديها المرحبين، فيختفي الهواء وأبدأ في الاختناق. رغم ذلك أشعر بالدفء وتسري نيران الشهوة كلهبٍ في دمي، تحتك بي وتصدر أصوات حيوان شبق، تعاود الدوران على جسدي بمهارة لا تتوقع من جسدها الممتلئ، جسدها اللين يغطيني كملاءة من لحم، تفوح منها روائح توابل لن أنساها وعرق بشري فاتن، تتعامل مع جسدي كخبيرة بتفاصيله، صبورة كنحات يقدِّر هشاشة مادته الخام، تجتهد في السيطرة على نفسها

لكنها في لحظة واحدة تنهار مقاومتها، فينطلق صوتها بكلمات تحاول أن تجعلني لا أفهمها، تبتعد عن عالم اللغة إلى قاموس تأوهات الإنسان الأول. تأوهات عفوية يبتدعها الجسد البشري أغنى من كل الكلمات تجلدني بها، فينتفض جسدي المتوتر، وعندما تمتطيني أشعر بها مبتلة جدًّا، تتحرك بنعومة فارسة ماهرة وجدت بعد اشتياق مهرها المنشود، فأستسلم للذة جسدها وأصواتها المجنونة. وعندما أنتهي تقترب من وجهي تتفحصه مرَّة أخرى، ولكن هذه المرَّة عن قرب صنعه تناغمنا المدهش، فأشاهد عينها لأول مرَّة، واسعتين حنونتين تملأهما الدموع التي بللت نقابها، وفارستي التي اغتصبتني بصبر ونشوة تقترب من وجهي أكثر، ترفع يدها وتصفعني بكل ما أوتيت من قوة، ورغم صدمة الصفعة، أشاهد المرأة العجوز التي كنت قد نسيتها.. تبتسم.

## ٩- أماندا

جدي الحبيب إيمانويل.. أي قرار كان على هذا الرجل أن يتخذ لكي يغيّر كل شيء في حياته من أجل حُلمه بأن يحقق ذاته.. أن يكون ذلك اليساري الذي يساعد الآخرين محاولًا أن يجد نفسه بينهم. ذلك السؤال الذي أسأله لنفسي كل ليلة عندما أضع رأسي على وسادتي لأنام: من أنا؟ وماذا أفعل لأجد سعادتي الخالصة؟ يبدو لي كثيرًا أنه سؤاله الخاص الذي علمني إياه إيمانويل، الطفل اليتيم الذي وجده الغجر يتبعهم دون أن يفهم حياتهم الخطرة، ليكتشفوا أن الطريقة الوحيدة ليرحل عنهم بسلام هي أن يعلموه عزف الأكورديون، دون أن يتحملوا عبء فم جديد في القبيلة يرفض السرقة كما تجبرهم الظروف دومًا.

ليرتحل وحيدًا يطارد أشباح حبيبات يستمعن إلى عزفه مسحورات ليضعن فرانكات في قبعته البالية، دون أن يعرفن أن هذا الشاب اللطيف لم يحتضنه أحدٌ في حياته، وأنه بلا بيت ولا عشيقة سوى تلك البعيدة في خياله التي يبتدع لها ألحانًا بلا ملل من تخيلها تبتسم له يومًا، وبدلًا من عشيقة عصية لا يصل لها، وجد ذلك الشاب الذي يتبعه أكرديونه كمجذوب لا يفهم كيف تستطيع الحياة ابتكار ألحان قادرة على إدهاشه رغم قسوتها، ليقتسم مع إيمانويل رغيف خبز لم يملكا سواه في هذه الليلة الباردة، ويقدم يده مصافحًا ومعرّفا بنفسه: "لوركا" لتتغير حياة إيمانويل وإلى الأبد.. فيتعلم كيف تبكي عيناه من ذلك السحر الذي يسمونه الشِعر، ويتعلم أيضًا كيف يجب عليه أن ينحني لجمهوره كما يفعل صديقه

الشاعر، لتحتضنه عيون محبيه فيشعر بدفء الحب الذي لا يعرفه، وليعرف أيضًا أن الحياة من الممكن أن تكون أكثر قسوة مما يعتقد، عندما أتاه خبر موت صديقه الذي كان يحتسي معه الشراب منذ ساعات يُسمِعه لحن أغنيته التي لم يغنّها إيمانويل أبدًا حزنًا عليه. وعلى عكس جدتي أليتا التي سحَرَها عازف الأكورديون الذي كانه إيمانويل فتتبعه إلى أرض المجهول بلا سبب غير الحب. كان إيمانويل قادرًا دومًا على أن يجد أسبابًا لكل الأيام الصعبة التي لاحقته بها فرنسا التي وقع في غرام اشتراكيتها.

فبعد الخطبة الطويلة التي ألقاها الكلونيل الفرنسي المهندم في المعسكر الذي أعد على حافة جبال البرانس مباشرة، تلك الخطبة المفعمة بالحماسة والمليئة بالوعود عن المستقبل الباهر للقادمين للجنة المنتظرة، مؤكِّدًا على أن انتصار الحلفاء في الحرب أمرٌ حتمي لإنقاذ البشرية كلها من جراد النازيين. لم ينتظر إيمانويل أن ينهي الكلونيل خطبته التي بدت للجميع مجرَّد مقدمة لا معنى لها لإرسال حتمي إلى المعركة، صاح إيمانويل الساذج بفرنسية مضحكة:" تحيا فرنسا الاشتراكية العظمى تلك الصيحة التي سيبقى كل الذين عادوا معه من الحرب يسخرون منه بسببها، بعد أن اكتشفوا أنهم لا يمكن أن يكونوا فرنسيين حقيقيين أبدًا، وأنهم سيجلسون دومًا أمام أبواب بيوتهم الفقيرة في صيف جنوب فرنسا الحارق ليحكوا حكايات الحرب الفظيعة، ويعرضوا على أحفادهم آثار جروح الحرب على أجسادهم الهرمة، كأوسمة نالوها على سذاجتهم بدخولهم حربًا لم تكن لهم.

لم يدرِ الكولونيل الفرنسي الذي أمضى صباحية كاملة أمام المرآة؛ محاوِلًا إصلاح هندامه الذي يخربه خوفه المرضي من الموت بعيدًا عن أفراد أسرته،

ماذا عليه أن يفعل عندما أنهى خطابه الحماسي الذي كان بلا معنى حتى له لنفسه، و هجم عليه إيمانويل معانقًا بجسده الكبير واعتصره على خطبته التي أقسم أنه لم يفهم معظمها، فأشار إلى أحد مساعديه آمرًا: "أرسلوا هذا الضخم إلى خطِّ النار الآن"

وعلى مدار الثمانية والأربعين ساعة التي كان على إيمانويل أن يمضيها في صندوق العربة العسكرية الخشبي متوقفًا كل عدة ساعات للتفتيش أو لتناول وجبة جافة مستحيلة البلع، كان يتذكر أسرته التي لا يعلم عنها شيئًا، يخالجه شعور بالارتياح بأنه على الأقل استطاع أن ينقلهم بأمانٍ، بعيدًا عن دكتاتورية فرانكو ورجالها. كان ذهنه صافيًا وهو ينظر إلى نجوم السماء ويحتضن بيده صورة أليتا المعلَّقة كتميمة على صدره، واعدًا إياها أن يعود سليمًا من المعركة، ليشاطرها الغرام في هواء الغابات المنعش، ويستمع إلى ضحكتها وهي تصفه بأنه مجنون، تلك الصورة التي صنعها له مصور صديق متحرِّجا؛ لأنه لا يمكن لرجل حر أن يطلب وضع صورة زوجته في قلادة قد يجدها أحدهم ولو عن طريق الصدفة، فأتوا بالمصوِّر خفية إلى مطبخ المنزل، لتظهر أليتا بنظرة مبحلقة وفرحة في صورة لن يكف إيمانويل أبدًا عن حملها حتى إلى قبره. هكذا كان جدي إيمانويل رومانسيًا في الحرب التي هرب من بلاده بسببها، وهو لا يعلم أنه يهرب إليها.

مازلت أحتفظ بصورته بملابسه العسكرية التي هي أقصر من جسده الطويل، بشاربه الكثيف وضحكته الطفولية مع صديقه مجيد الجزائري النحيف الذي تركه هناك ميتًا، وظَلَّ حتى آخر عمره يبكيه كما لم يبكِ أحدًا من أسرته ولا حتى صديقه الشاعر الكبير لوركا. تلك الصورة التي كان

يخرجها عندما يصفي روحه الشراب ليريني إياها قائلًا: "على الأقل حاولت أن أفعل شيئًا من أجلكم. لم أكن أعلم أن ذريتي مجموعة من المجانين"

وهناك في الحرب كانت الحرب كما كانت وكما ستكون دائمًا، قتلًا خالصًا للقتل. لم يستطع إيمانويل أن يفهم أبدًا لماذا يجب أن يموت كل هؤلاء لكي يعيش آخرون رُبَّما أتعس حالًا؟! كان يحكي لي في سكره الحزين عن أحلام مجيد البسيطة في أن تنتهي الحرب سريعًا ويحضر عائلته إلى فرنسا.. يحكي عن مليكة التي يحبها مجيد، ويحلم أن يعود ليتزوجها لينجب منها أطفالًا.. يحكي عنه عندما عادوا به ودماؤه تملأ ثيابه الممزقة وهو يبكي خائفًا من الموت، خشية أن تعتقد مليكة أنه تركها ليتزوج فرنسية فلا تسامحه أبدًا. وعندما كان إيمانويل يرتمي على صدري ويبكي، كنت أنا أيضًا أتمنى أن أقابل مليكة كي أخبرها أن مجيد مات في الحرب، وأسألها أن تسامحه.. وأبكي.

## -١-

من حق الانسان أن يخطئ.. رُبَّما هذا هو مفهوم الرسالة الخاصة التي حاول الرب أن يفهّمها لآدم بطرده من الجنة. إن على الانسان أن يخطئ ليتذوق لعمة مسامحته لنفسه، لكن البشر يدمنون استجلاب الندم السخيف، ليتركوا للشيطان وحده التمتع بذاكرة بيضاء نحو أخطائه، بينما القديسون لا يملكون ما يستحق التذكُّر سوى هذه الأخطاء التي رُبَّما هي شجاعتهم الوحيدة في الحياة، وسام تفردهم لخروجهم عن القطيع.. القديسون يرتكبون الأخطاء ويبصقون في وجه الجمهور الذي لا يفهم أن الأخطاء البسيطة قد تجعل حياة آخرين أكثر أمانًا أو رُبَّما حتى أكثر سعادة، ليعيشوا هم حطب نيران ضمائرهم التي لا تكف عن الصراخ.

"أنت تستمتعين بجلدك لذاتك" هكذا كان يقول لي دائمًا منصور. أعلم أن لديه الحق، فجلد الذات ميراث عائلي خالص، وهكذا كانت جدتي أيضًا.. ربما لم نكن أبدًا شياطين أو قديسين، لكننا لم نكف عن محاولتنا أن نكون كذلك. لم تستطع أليتا أن تسامح نفسها أبدًا على خيانتها الاضطرارية لجدي، فما إن أنهت مهمتها الصعبة مع السيد فرنسواه، لتعاود ارتداء عبائتها السوداء، دون أن تنسى أن تطبع قُبلة اعتذار على رأس الحصان المسكين باعتباره الكائن الوحيد الذي لا يستحق العقاب في هذه القِصَّة الشنيعة، حتى ذهبت مباشرة إلى حمام حجرتها، وهناك لم تستطع قدماها حملها، فجلست أرضًا تمزق بأظافرها الطويلة جسدها المتسخ بخطيئتها، وبدلا من أن تترك الأخوة سانتا كلار الثلاثة أيتامًا، كعقاب عادل على

فعلتهم بها عندما وجدت المقص في يدها المرتعشة من شدة خزيها ودموعها، بدأت تقص خُصَل شعرها حتى أصبحت رأسها خالية من الشعر تمامًا، تلك العادة السيئة التي ستواظب عليها حتى بعد عودة إيمانويل إلى أحضانها، وركوعه لساعات طويلة عند قدميها لتسامحه على فراقه لها، ولتترك شعرها الحريري يعود لينمو كي ينعم بأن تتخلله أصابعه الغليظة.

أمَّا بيدرو وألفونسو فقد فهما سريعًا أن العقاب الذي ينتظرهما من أليتا الأم سيكون أكثر بكثير من أن تخاصمهما. حتى صوفيا الصغيرة فهمت بأن هناك شيئًا عظيمًا يحدث، فتوقفت تمامًا عن البكاء لغياب أمها عنها. ومن يومها أيضًا بدأ بيدرو عادة قضم أظافر أصابعه التي لن يتوقف عنها. حبست أليتا نفسها في حمام الحجرة أيامًا، خرجت بعدها مشوهة وبرأس صلعاء تمامًا، لتلملم حقائبها مقررة الذهاب إلى أبعد نقطة عن السيد فرنسواه وعن جنوب فرنسا كله، رُبَّما لتنسى وجهه المتغضن من الألم وهي تكويه بختم خطيئتها وخوفها على طفلها، أو لعلَّها تنسى جريمتها في حق إيمانويل.

لم تفلح توسلات زوجة السيد فرنسواه التي كانت لا تعلم بالطبع الحكاية كلها، ولا تفهم سبب ضياع صوت زوجها، ولا حرق صدره الملتهب، في أن تثني أليتا وأسرتها عن قرار الرحيل هذا. زوجة السيد فرنسواه المشهورة بسذاجتها اللامتناهية، شعرت بفطرتها الأنثوية أن هناك قِصَّة ما خلف كل هذا، وأن فرنسواه متورطٌ لا محالة فيما حدث لنفسه وأليتا المشوَّهة. ويبدو أن هذه القِصَّة لم تغير أليتا ولا فرنسواه ولا حتى بيدرو وألفونسو فقط بل غيرت السيدة الفاضلة زوجته نفسها، التي أيقنت بقلبها الطيب أن قدرها قد ارتبط بهذه العائلة الصغيرة التي وهبتها لأول مرَّة معنى السعادة.

وعندما حلت ساعة الرحيل كان على أليتا الأم أن تنتزع أليتا الصغيرة من أحضان السيدة كما ينزع الظفر من اللحم، لتسقط السيدتان والطفلة أرضًا، ولتمتزج دموعهن التي كتب بها عقد مشاركتهن الدائم للحياة. ساعتها أخبرت السيدة، جدتي أليتا أنه إذا كان ولابد لها أن ترحل، فلتنتظر إلى الغد لأن السيدة سترحل مع الأسرة، وبأنها ستأخذهم معها إلى بيت أبيها بشمال فرنسا. وأمام إلحاح ودموع السيدة، واحترامًا لكل الذكريات الجميلة التي أعطتها السيدة للأسرة، قررت أليتا البقاء فقط إلى الصباح التالي، ففي النهاية كان شمال فرنسا وجهتها التي يجب الرحيل إليها ربما لتكون أكثر قربا من إيمانويل المحارب. تلك الليلة سمحت فيها جدتي أليتا للسيدة أن تأخذ صوفيا في أحضانها ليلتها الأخيرة في بيت السيد فرنسواه، مؤمنة بحق السيدة في ابنتها كأمٍّ ثانية تحمل لها الكثير من المحبة. وفي الصباح قبَّلت السيدة زوجها في جبهته لتتركه ضائعًا في هلوسة الحمى. وتحمل صوفيا الصغيرة التي ألبستها قلادتها الذهبية التي كانت تنوي أن تهديها لطفلتها التي لم تأتِ إلى العالم، لتطرق باب حجرة الأسرة الصغيرة أمام الحظيرة، فتجد جدتي أليتا والطفلين مستعدين لرحيلٍ آخر.

## -11-

كان القطار الطويل يتحرك كالأفعى مخلفًا وراءه جبال البرانس وجنوب فرنسا، المكان الذي كان يُشعِر أليتا دائمًا بقربها من قريتها "بن عيشة الأسبانية" وحلم العودة يومًا إليها، محطمة وتحمل خزْي الدنيا برأسها الحليقة. كانت جدتي تتابع القرى الصغيرة التي تمر سريعًا، عبر نافذة القطار، تتحسس ندوبها التي صنعتها أظافرها بأصابعها النحيفة على وجهها المنهك، بينما عيناها تحمل نهرًا من الدموع يرفض الجريان، يتابعها بيدرو وألفونسو اللذان كفَّا عن اللعب في محاولة منهما للتأسُّف على ما أحدثاه لأمهما من ألمٍ لا يُحتمَل، أمَّا صوفيا الصغيرة فقد تشبثت بجسد زوجة السيد فرنسواه تاركة أمها في غيبوبتها اليقِظة.

لكن هل تتوقف الحياة لأننا رُبَّما نتخذ أحيانًا قراراتنا الخاطئة؟ هل أخطأت أليتا لأنها تزوجت إيمانويل العاشق الاشتراكي المجنون؟ هل أخطأت عندما تركت "بن عيشة" إلى المجهول؟ هل أخطأ بيدرو وألفونسو عندما قرَّرا الانتقام؟ وأيّما كانت الإجابة في رأس أليتا الحليق، كانت الحياة ستستمر أيضًا. رُبَّما لأن الحياة هي الحافز الأكثر روعة في وجودنا على هذه الأرض، وربما هي أيضًا الحافز الأهم في كتابتي لقِصَّتي هذه، لعلَّ ابنتي ليزا التي تكرهني لأنها أصغر من أن تفهم حب الحياة الذي جمع بين أليتا وإيمانويل تقرأها يومًا ما، أو يكتشف فيها منصور الذي تركني وعاد إلى المجهول، كيف تحب النساء في عائلتي، رُبَّما إن استطعت أن أعيد كتابة

تاريخ عائلتي كله أستطيع أن أفهم وأستطيع أن أسامح.. أسامح منصور وليزا على تركهما لي وحيدة ومهجورة كبيتٍ باردٍ تسكنه الأشباح.

أكتب تاريخ عائلتي لأن التاريخ فقط هو ما يطهّرنا ويعيد تكوين لعبة الحاضر.. أكتب لأن الكتابة كما تنكأ جراحي.. تداويها. وكلما حاولتْ الكلمات الهرب من قلمي، سألاحقها لأعيد ترتيب مفردات لوحة بازل(puzzle) تاريخ العائلة، لأحاول أن أفهم لماذا كان على منصور أن يرحل؟ ولماذا أنا هكذا؟ ولماذا الحياة الجميلة التي أعشقها لا تعترف بحقي في السلام والسعادة؟

صعبة هي كتابة القصص الحقيقية؛ لأنها مليئة بالرغبة والصراحة، تلك الصراحة التي تصدمنا بضعفنا وعجزنا عن الاعتراف بأننا مساكين للغاية، لا نملك إلا الحياة والأمل.. تلك الحياة التي لا تجد فينا إلا نبعًا دائمًا لشبابها، فتمتص أعمارنا دون أن تهتم بما تعطيه لنا من عذابات وآلام.. أمَّا الأمل، فهو أفيوننا الجميل الذي أدمنَّاه في كل القصص الرومانسية التي تحكيها لنا الأمهات في طفولتنا الساذجة.

لكن رغم كل شيء.. فلم يعد يهمني الآن سوى أن أكمِّل قِصَّة خلاص روحي تلك.

على رصيف القطار في قرية فرنسية صغيرة بإقليم بريتون الفرنسي، بدأ هبوط رهط جدتي الصغير، ليجد في انتظاره السيد «فليب»، مرتديًا بدلته السوداء الكاملة بياقة قميصه الأبيض المكوية بعناية وفي يده مظلة المطر.كان رجلًا نحيفًا وصلبًا، تعلَّم كيف يواجه مِحَن الأيام بصرامة وصبر، رجلاً لا يمكن معرفة مشاعره أبدًا، يهتم كثيرًا أن يكون مظهره مظهرًا يفرض على الجميع احترامه، أمَّا الحب والتعاطف فهما فضيلتان تخلى عنهما بعد

موت زوجته ورحيل ابنته التي تزوجت من رجلٍ كان يجب أن يكون غنيًّا ولا يستمع كثيرًا لمهاترات قلبها الطيب.

كان منظر رهط القادمين الصغير يشبه جنازة صغيرة تسير بلا ميت تحت المطر، وبينما السيدة فرنسواه ترتعي في أحضان أبيها العجوز لتترك دموعها تغرق بدلته -التي طالما ذهب بها إلى الكنيسة أيام الآحاد ولم يصِبها بلل الأمطار أبدًا-لم يستطع السيد فليب أن يخفي نظرات الاندهاش والانزعاج من على وجهه، ذلك الوجه الذي طالما درَّبه على أن يكون محايدًا طوال حياته المهنية كعامل تلغراف، وهو يسلِّم زبائنه برقياتهم التي لا تخلو أبدًا من أخبار محزنة أو مفرحة، متسلِّحًا دائمًا بضرورة شُكر الرب على جميع أفعاله، ولأول مرَّة في حياته يرتجف قلبه المطيع للصرامة التي فرضها على نفسه. كانت توقعاته كرجلٍ ذي خبرة عظيمة بالحياة تحلل وبسهولة كلمات البرقية المختصرة التي أرسلتها ابنته، مستشعرًا أنها قادمة ووراءها كارثة عظيمة، لكن ولأول مرَّة في حياته المهنية، يكتشف أنه مازال أمامه الكثير ليتعلمه عن الحياة من وراء الكلمات القليلة التي يرسلها الناس من أماكن بعيدة ليعلِموا الآخرين بشيءٍ ما.

"ابنتك الصغيرة انتهت وإلى الأبد.. سأحضر ومعي بعض الأصدقاء"

## ١٢- منصور

من نافذة حجرتي التي تطل على الحارة، كانت عيناي لا تستطيعان أن تفارقا مدخل البيت الصغير الذي التهمني، مازال وجهي يشعر بحرارة الصفعة التي نلتها فيه على ذنبٍ لا أتذكره، روحي مجروحة، ليس فقط من الطريقة المهينة التي تمت معاملتي بها، ولكن شعورًا خفيًّا يزعجني، بأنني رُبَّما أستحق ما حدث لي.. ومع ذلك لا أعرف لماذا أستعذب تذكُّر ذلك الجسد الأنثوي الكريم الذي احتواني، وكأنني حبيبٌ عائد بعد غياب استحقَ عليه التأنيب. في هذا البيت شعرت بالحب والكراهية معًا، نظرات المرأة العجوز الشامتة، أخبرتني بأن حياتي السابقة في الحارة لم تكن حياة عادية كما يوهمني الجميع، بينما دموع السيدة الشابة لا تتساقط إلا من عيونٍ عاشقة تعذِّبها المصارحة.

أنتفض وجِلًا من يدِ أم محمد التي حلَّت على كتفي فجأة، فأسمع تنهُّدها المعذَّب من حيرتي التي لا تعرف سببها.

- مالك يا ابني، شايل هموم الدنيا وعنيك مابتتحركش من على باب بيت زينب العرجة؟

- إيه حكاية الناس اللي عايشة في البيت ده يا خالة؟

- حكاية طويلة بين جدك الشيخ وزينب العرجة العجوز. كِفَياك نبش في اللي فات يا ناصر. سيبك يا ابني من اللي فات وخليك في بكره.

- إزاي وأنا حتى مش عارف أنا مين؟!

إنت ناصر اللي الناس كلها بتحبه، الدكتور الشاطر اللي الحارة كلها كانت مستنياه يرجع لها بالشهادة الكبيرة من بلاد الخواجات.

- ياربتني عشت عمري كله غريب ومارجعتش أبدًا.

- وإيه اللي رجَّعَك يا دكتور منصور.

- هو انا ناقص حيرة يا أم محمد. أنا ناصر ولا منصور؟

الحارة كلها ماتعرفش غير ناصر. أمك الله يرحمها اتأخرت في الخَلَف، ولما ربنا رضاها بالولد، كانت نصرة كبيرة لكل الشامتين في انقطاع خَلَف جدك. منصور اسمك اللي أمك خبّته من الناس خوف السحر والأعمال، وطلّعنا عليك ناصر يمكن تكون عظيم ومحبوب زَي عبد الناصر.

عندها يُعلِن جرس الباب عن زائرٍ، فتجده زوج أم محمد الذى تدعوه زوجته للدخول. لتتوجه لزوجها بالحديث بينما هي تعد المائدة لطعام الغذاء:

خد ناصر وخرِّجه يا سعيد بعد الأكل. أنا عملت البامية اللي ناصر بيحبها.

وعندما تعود المرأة الطيبة إلى بيتها، يُخرِج السعيد سيجارة ويشعلها ويعطيها لي مطلِقًا جملته التي ستصبح أحد أهم مفردات لغتي في أبو السِّبَح. "مساء الفل يا جميل" لم تضيّع سيجارته الوقت كي تعلن لي أنها محشوة بالحشيش، الذي أتى إلى دمي كصديق قديم فرحت بلقائه. ببطء امتصصت دخانها، مانعًا نفسي من أي هواءٍ آخر. وببطءٍ أيضا يُفتح المخدر مسام روحي، فأنظر طويلًا لوجه السعيد الذي يتركني أبحث عن نفسي في ملامحه، وجهه فيه شقاوة وعنف، متغضن بفعل العمر والخبرة، عيناه تبرقان بذكاء ثعلب صغير، شاربه الرفيع يحمل صفات

الرجولة كلها.. ودودٌ جدًّا وجهك يا سعيد، يستطيع أن يمنح الأمان لمدينة كاملة، لكن غضبه قاس كبحرٍ هائج. ابتسامتك حنونة وخبيثة، لك وجه راهب وزنديق يا صديقي العجوز، عيناك تشعَّان بحب الحياة، لكنهما معذبتان تمامًا بغدرها.. عيناك تحملان قدرك الغريب الذي صادقته وعذَّب أحبابك. وقفت طويلًا أمام وجهك يا صديقي، كأني طفلٌ متعلق بأمل وحيد.

وفجأة وجدت نفسي أرتمي في أحضان السعيد، وأبدأ الانهيار في بكاءٍ عنيف،

والسعيد يربت على كتفي ويهمس في أذني: "وجِّد الله يا دكتور ويجلسني أمامه كطفلٍ صغير، فأكفف دموعي لأحكي له ما جرى لي. السعيد الذي استمع لي بكيانه كله، شاهدت حكايتي على وجهه كصفعة، كان وجهه يحمر من الغضب حتى كاد أن ينفجر، لكنه بعد الكثير من الصمت احتار: هل يخبرني بالحكاية أم يتركني أبدأ حياة جديدة، بلا ماض ستكون معه هذه الحياة مستحيلة؟ وقبل أن يتخذ السعيد قراره الصعب، جاءت أصوات الصراخ والولولة عالية من الحارة.

فقفز سريعًا إلى النافذة يستطلع أمر الحارة، ليعود ووجهه يعلوه القلق قائلًا:

- قوم بسرعة نزل الحارة، الظاهر في مصيبة، إلبِس بسرعة وحصَّلني.

ليختفي من أمامي، فأرتدي ملابسي بتردد. وقبل أن أغادر شقتي أطالع صورة جدي المعلَّقة على الحائط، وأقرأ اسمه مرَّة أخرى فتشلني المفاجأة، فقد انمحى اسم جدي "سيدي العارف بالله الحسين بن شبل«أبو السُّبَح» "، لتحل محله كلمة واحدة "التائه".. تمامًا كما وصفني

الرجل الذي جالسني في المقام بأنني "ابن التائه"، لتتطابق صورتهما في رأسي، عندها أوقن أن الرجل الذي حدثته في المقام لم يكن سوى جدي نفسه.

## -١٣

مات من اسمه «علي الصعيدي»، هذا ما فهمته من همهمة الحاضرين، أجد العيون تتجه نحوى كطبيب، طالبة مِني الدخول للتأكُّد من وفاته، رُبَّما يكون فقط في غيبوبة، بينما السعيد ينهي نساء الحارة عن لطم وجوههن والعويل. اتجه والسعيد إلى داخل حجرة علي الصعيدى بالدور الأول والأصوات تهمس: "استر يا رب، يا عيني يا علي عشت غريب ومت غريب، لا حول ولا قوة إلا بالله "

وعندما أعبر باب المنزل الخشبي أجد بابًا آخر لحجرة صغيرة تحت السلم موارِبًا فأفتحه، تقابلني عاصفة من الروائح النتنة، خليط من رائحة الكحوليات الرخيصة ومخلفات الطعام المتعفنة، والأقوى رائحة الجثة التي بدأت في التعفُّن، بينما عشرات زجاجات البولناكي والعسكري اليوناني الفارغة مبنية على شكلٍ هرمي، جثة الرجل الأسمر الذي ميزته بسرعة ملقاة فوق الكنبة الوحيدة بالغرفة، هذا هو نفس الرجل الذي شاهدته ميتًا في حُلمي، قبل أن أفتح عيني فأجد نفسي في حارة «أبو السُّبَح»، عيناه تنظران بلا حركة إلى سقف الحجرة الأزرق. بطنه المنتفخ يشد جلبابه المتسخ على الجسد النحيف، وبحركة لا إرادية مددت يدي لأغلق العينين المفتوحتين، أخرج بسرعة إلى الخارج مصطدمًا بهرم زجاجات الكحول التي تسقط محدثة جلبة هائلة، أيضًا كما حدث في حُلمي، لأقف بالباب أتقيأ أمعائي، بينما الرجال الذين يحاولون إخفاء ابتسامتهم من منظري المذعور

يسألونني: "خير يا دكتور" فيرد السعيد: "خير يا أخويه انت وهو، الرجل مات وشبع موت"، وأنا لأُبعِد أنظارهم عَنّي، أهز رأسي موافقًا.

ينقذني المطر الذي بدأ ينهمر بقوة يفرق الجمع، فيهربون للاحتماء من المياه المتساقطة بغزارة بأبواب البيوت، يتجه السعيد لباب غرفة علي الصعيدي ليغلقه، لكن الرائحة القاتلة تؤكّد حضورها القوي. يعلو صوته "لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يسترها معانا دنيا وآخرة ". ليربت على كتفي قائلًا:

- اطلع أنت دلوقتي يا دكتور واحنا هنتصرف.

وعندما أدخل من باب شقتي، أتهاوى على المقعد فتعود إلى صورة علي الصعيدي في حُلمي. في الحلم لم تكن له رائحة، وكان الرجل يتمتع بهيبة حرمه منها موته الحقيقي، فيعاود الحزن الشديد مهاجمتي دون أن أعرف سببًا لذلك، رُبَّما لأني رأيت نهاية قريبة من نهايتي المتوقعة في عالم وحدتي وذاكرتي المظلمة، ولكن أين هي أم محمد، كانت تبكي الرجل في حُلمي الذي تحقق، فما معنى اختفائها في هذا الواقع المرير؟!

عمومًا.. ما الذي يهم في كل ذلك؟ مات الرجل وحيدًا ومتعفنًا ولم يكتشف موته إلا تلك المرأة التي أتت في زيارة لأقاربها من بلدٍ بعيدٍ، وأخطأت الباب فانفتح تحت طرقاتها المِلّحة.

تكفَّل أهل الحارة بدفنه في مقابر الصدَقة بعد أن شيعوه كواحد منهم. السعيد الذي لم أره بقية اليوم، عاد إلى في المساء لنذهب للقيام بواجب العزاء. وأمام عش خشبي صغير تراصت المقاعد في صفين متوازيين، ليصافحني المعزُّون شادين على يدي بقوة، كأن الميت أحد أفراد أسرهم. أو كأنه أحد أقاربي. ومن بين الجميع احتضنني رجلٌ عجوز قصير ونحيف جدًّا، شعرت في ضمته بقوة وشباب لا تبدوان على جسده النحيل، فهمس

السعيد في أذني: "عمك أحمد القفاص أجلس لارتشاف القهوة المرّة بهدوء، مستمعًا إلى آيات الذِّكرِ الحكيم، المتهادية من جهاز تسجيل صغير معلّق على نافذة بيت مجاور، ليأتي العجوز أحمد القفاص فيجلس بجواري ويضع كفه على ركبتي ويهمس في أذني: "حمد الله على السلامة يا ناصر

لا أعلم لماذا شعرت بأن قلبي انفتح بشدة لهذا الرجل العجوز.

انتهى العزاء بربع قرآن بعد صلاة العشاء، ليختفي المعزُّون ويدعونا الحاج أحمد القفاص إلى تناول الشاي في خُصِّه.

لأول وهلة أكتشف أن الخُصَّ واسعٌ للغاية مقارنة بمظهره المهمل من الخارج. اكتشفت أيضًا أنه – ككل بيوت الحارة – منخفضٌ درجة عن الشارع الذي تمت تعليته مرَّات ومرَّات على مراحل زمنية متتابعة. في الداخل أجد كنبة قديمة أكلها الزمن، تحتها قَصعة مليئة برماد الفحم ملقى بجوارها جوال مليء ببقايا قوالح الذُّرة المنتظرة دورها في أن تصبح فحمًا للجوزة. الغريب أن الجدران كانت تخفيها بالكامل مكتبة عامرة بمئات الكتب، أمَّا ما تبقى من فراغ الخُصِّ فمليء بالأقفاص والجريد الذي يستخدمه الحاج أحمد في صناعة قوت يومه.

يُجلِسني الحاج أحمد علي الكنبة ليبدأ في إشعال النار في الهرم الذي صنعه من قوالح الذُّرة، ينفخ فيها ليبعد الدخان عن وجهي، ليجلس على الحصيرة المصنوعة من البوص وبجواره السعيد. وعندما أجلس بجوارهما يطلبان مِنِّي أن أعود لأجلس على الكنبة، فأبتسم لهما مدّعيًا أنني أكثر راحة هكذا، وبينما يضع أحمد القفاص برَّاد الشاي الصاج على الفحم المشتعل، تبهرني العجائب التي صنعها بيديه النحيفتين بعروقهما البارزة؛ عشرات الأقفاص والسلال والحصر. أشياء تحتاج لمهارة حقيقية وصبر شهور. ينطبع لدي

الشعور بأن هذا الرجل ليس مجرَّد عامل يدوي ماهر فقط، إنه فنان حقيقي له وجهة نظر في الحياة، والرجل القابع أمام موقد الشاي، يخرج من جيب جلبابه علبة المعسِّل، ليرص حجارة الجوزة الاثنتي عشرة الموجودة في صندوقها الخشبي بهدوء. يلتقط قطعتين متوهجتين من الفحم يضعهما على الحجر ويدخِّن فيخرج الدخان من فمه كثيفًا، وعندما يكشف غطاء برَّاد الشاي يكون الماء قد بدأ يغلي، فيمد يده تحت الكنبة ويخرج علبة الشاي الممزوج بالسكر ليعاير مقدارًا في كفه ويضعه على الماء، الذي يفور مخرجًا بخارًا له رائحة الشاي اللذيذة، عندها يرفع البراد بيده عن النار، وينظر لي:

- هيه يا دكتور، تشرب شاي خفيف مَلوش طعم زي بتاع القهوة، والا شاي من بتاع عمك أحمد؟

- اللي تشوفه يا عم أحمد.

فيعاود وضع البرَّاد على النار، فأسمع صوت غليان الماء في البرَّاد وأشعر بالراحة مستقبِلًا غابة الجوزة الطويلة التي أدارها السعيد نحوي. ومع النفس الأول أشعر كأني أدخن لهبًا، فأسعل بشدة، لكني أستمر في التدخين خوفًا من أن يضحك مِنِّي أحمد القفاص، متحاشيًا نظرة السعيد المتعجبة لسعالي. يصب لي أحمد القفاص الشاي الأسود كالحبر ويستدير نحوي بوجهه مبتسمًا وكاشفًا عن أسنانٍ سوداء بفعل الزمن والمعسل ليسألني:

- مالك يا ناصر يا ابني، شايل طاجن ستك.. كأن الدنيا اتخربت؟

فأتنهد ممسكًا كوب الشاي معطيًا إياه الجوزة وأفتح قلبي للرجل الذي يحتويني وِدُّه:

- يعني ما انتاش شايف حالي يا عم أحمد. ده انا حتى مش عارف انا مين.

عندها تخرج ضحكة أحمد القفاص صافية من القلب.

لا والنبي. منصور أبو السِبَح راجع مش عارف حاجة، هو صحيح بيقولوا نسوان فرنسا سحرة، بس مش لدرجة انك ترجع كده، شوية دخان يقطعوا نفسك، وتقولي انت ناسي نفسك.

ساعتها يكون السعيد قد انتهى من تقطيع الحشيش وتطعيم حجارة الجوزة الأثنى عشر. ساحبًا نفسًا عميقًا متلذذًا بإخراج دخَّانه ببطءٍ في الهواء، متابعًا بنظره حلقاته المتصاعدة إلى سقف العشة، ومتدخِّلًا لأول مرَّة في الحديث:

- هي العيلة دي كده يا حاج أحمد، كل واحد فيهم يرجع من فرنسا بحكاية تلخبط مخ الحارة لسنين.

يدهشني كلام السعيد فأدفع بيدي الجوزة التي أدارها نحوي متسائلًا:

- هو مين من عيلتي كان عايش في فرنسا يا سعيد؟

## -١٤

يتبادل أحمد القفاص والسعيد النظرات قبل أن يرد أيٌ منهما على سؤالي، ليسود صمتٌ طويلٌ ثقيلٌ، لا يقطعه إلا صوت تردُّد مياه الجوزة في قنينتها النحاسية، بينما الرجلان يتبادلان التدخين، وكأنهما يحاولان الهروب من سؤالي بالتدخين، ليهم السعيد بالحديث بعد طول صمت والكثير من التدخين الشره.. ولكن قبل أن يتكلم، تدق الباب يد ضعيفة دقات سريعة متتالية، فيقوم السعيد ليفتح باب العشة، بينما أحمد القفاص يستمر في تدخين الحشيش بقلبٍ من حديد، ليفاجئني المنظر المروِّع الذي شاهدته.. كانت نفس المرأة العجوز التي شهدت اغتصابي في بيتها: ترتدي جلبابًا أصفر لا يتلاءم أبدًا مع سِنّها العجوز، شعرها مصبوغ كلية بالحناء، فيبدو رأسها أحمر كرأس الشيطان، شفتاها مصبوغتان أيضًا بأحمر قان كأنها شابة عشرينية. تقتحم بخطوتها العرجاء خلوتنا، وتزيح يد السعيد التي حاولت منعها من الدخول كأنها تزيح قشة من على ثوبها. منظرها الغريب هذا جعل قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان، وجعل الحاج أحمد القفاص يتوقف عن التدخين ويتصلب كحجرٍ، لتقترب ببطءٍ مِنّي، وتفتح حقيبة بلاستيكية صغيرة وتخرج منها ملابسي الداخلية. وبعد أن تعرضها أمام أعين الرجلين، تلقيها في وجهي موجهة حديثها للسعيد وأحمد القفاص بتهكُّمٍ:

- ولا مؤاخذة، أصل الدكتور نسي الحاجات دي حدايا ليلة امبارح.

تتحرك ببطءٍ، في عينيها ترقص نظرة شماتة رهيبة نحوي، لتجلس بجوار الحاج أحمد القفاص، وتخطف عصا الجوزة من يده، وتدخن الحشيش فيخرج الدخان من أنفها كثيفًا كما يدخِّن رجال الحارة، بينما الرجل يتابع حركتها مندهشًا من فعلها وجرأتها، ليزم وجهه فجأة وينقضُّ عليها ليحملها كطفلة صغيرة، يمسك بيدها ويغمسها في نار الموقد المشتعلة، فتستيقظ الحارة كلها على صوت صراخها.. وفضيحتي.

## ١٥- أماندا

كانت الحياة السعيدة التي عاشتها أسرة جدتي في منزل السيد فليب أشبه بمعجزة تتحقق في زمن الحرب المُظلِم هذا. بالنسبة للأطفال كان السيد فليب شخصية أسطورية خارجة من كتاب حكايات مدهش بما قد تحمله شخصيات الحكايات؛ من روعة وغرابة ورعب أحيانًا. السيد فليب الذي كان يمضي صباحات أيام الآحاد كلها تقريبًا أمام مرآته ذات الإطار الإيطالي المذهب في صلاة مخلصة لتزيين وجهه الطويل بصبر راهب، ملتقطًا كل الشعيرات التي قد لا تكون موجودة أصلًا، واضعًا الفزلين المعطِّر بعناية على شاربه الرفيع المدبب، مستحمًّا بعطر الياسمين حتى تصبح له رائحة شجرة ياسمين ندية ومتحركة، لينتهي من طقوسه بوضع نرجسة بيضاء في عروة جاكتته التي يمضي الساعات في كيها بنفسه بتلك المكواة الحديدية الصغيرة. ودائمًا عائدًا لمرَّاتٍ ومرَّاتٍ لينظر إلى نفسه بالمرآة، ليخرج فيجد ابنته السيدة فرنسواه، والتي رفضت منذ عودتها إلى بيته أن يناديها أحدٌ بذلك الاسم (مستعيدة اسم بكارتها روز الجميلة)، متذمرة من كثرة تسخينها لقهوة الصباح، وضجِرة من بكاء الأطفال الذين عضهم الجوع، وقسوة أليتا حليقة الرأس في تطبيق قانون وجوب أن لا تلمس أيديهم الطعام طالما السيد فليب لم يترأس المائدة بعد، بينما هي تمارس سلطتها من مقعدها على الطرف الآخر للمائدة بنظرات يعرف الأطفال معنى عدم إطاعتها.

وكعادته يسحب السيد فليب كرسيه ببطءٍ مبتسمًا ومعتذرًا لإحراجه من الضيفة وأبنائها بهمهمة لا يفهمها أحدٌ أبدًا. ليبدأ صلاة الشكر للرب الذي

وهيهم هذا الطعام. بينما دعاء "آمين" لا يكاد يُسمَع من فمي بيدرو وألفونسو الممتلئين بالطعام، ليضحك السيد فليب بصوته العالي، تاركًا جدتي أليتا غارقة في حمرة وجهها من الخجل منهما ومن صوفيا الصغيرة، التي تتجه مباشرة إلى النرجِسة البيضاء التي في عروة جاكت السيد فليب لتخطفها وتضعها مباشرة في شعرها، محتمية من أمها بأحضان روز أو مختبئة تحت مقعد السيد نفسه، والذي دائمًا ما كان يرفعها بدوره ليطوحها في الهواء مستعيدًا ذكرياته مع طفلته روز عندما كانت في نفس عمرها، والتي طالما كانت أمها تنهاه بعنف عن أن يفعل ذلك بابنتهم الوحيدة؛ خوفًا عليها من أن تسقط وتصدم رأسها بحافة المائدة فتموت، كما ماتت هي تمامًا.. شابة وجميلة جدًّا، عندما سقطت من على أحد مقاعد المائدة بينما كانت تحضر آنية الزهور من فوق خزينة الطعام العالية، ليرتطم رأسها بحافة المائدة وتموت، دون أن تنسى أن تخبر زوجها بأنها عاشت مخلصة له دائمًا، وأنها تحبه كما لم تحب أحدًا أبدًا.

هذه البهجة التي يصنعها الأطفال دائمًا، استطاعت أن تعود بالسيد فليب إلى أجواء قد أعدَّ نفسه لفقدانها ما تبقى له من سنوات في حياته القاحلة، بين عمله الذي لا يشاركه فيه أحد، وبين وحدته اليومية في بيته الكبير الذي أُغلِقَت معظم حجراته لسنوات، لتنبت في جو البيت براعم السعادة والمؤانسة التي كان قد نسيها، لتمتلئ جدران البيت برسومات صوفيا العجائبية، وتبدأ الأشياء الصغيرة في الاختفاء بفعل ألعاب الأطفال التي لا تنتهي، لتعود أيضًا حمرة رضا على وجوه أهل البيت جميعًا، وكأنهم أسرة صغيرة عائدة للتجمُّع بعد سنواتٍ طويلة من الاغتراب.

وبسرعة استطاعت جدتي أليتا أن تأخذ مكانتها في بيت السيد فليب، ليست كزائرة أصبحت بحكم الواقع مستديمة، بل كسيدة أصيلة للبيت وككاتمة لأسراره. فروز الجميلة التي عاشت طويلًا كشابة محترمة غارقة في سذاجة الزوجة المخلصة في بيت السيد فرنسواه، عرف قلبها الحب لأول مرّة، ويا للغرابة مع «سبستيان» بائع الحليب الضخم الذي له جسد دب وزوجة غجرية يخاف الجميع لسانها السليط ويدها الطويلة، إضافة إلى سبعة أطفال يسكنون في أفقر بيت بالمدينة الصغيرة. جدتي أليتا لم تكن فقط المتآمرة الصامتة، بل أيضًا حطب ذلك الحب الأسطوري، وعندما كان يئن سرير خطيئة روز تحت ثقل بائع الحليب الدب وصراخ روز الجميلة المنتشية بسعادة إعادة اكتشاف جسدها كأمرأة، تمامًا كسعادة انتقامها بخيانتها للسيد فرنسواه (الذي لم يحاول أبدًا استعادتها )، كانت جدتي أليتا تصرخ بأعلى صوتها بأغانيها الأسبانية عن الحب والجنون، ودموعها تبلل وجهها وملابسها. بينما السيد فليب يُجلِس صوفيا الطفلة التي كبرت وأصبحت فتاة صغيرة لها ملامح أمها تمامًا، على قدميه فوق كرسيه الهزاز، مستمتعًا بكأس نبيذه المعتَّق وبداية شيخوخة ممتعة، دون أن يعلم أن صوت أليتا الأسباني الرائع لم يتعلَّم بَعد كيف يستطيع التوقُّف عن استحضار كل ذكريات الحب الجميلة لإيمانويل الغائب.

## -١٦

تلك كانت أيام الحب الخالصة، حالة من الهيام سادت كل شيء في بيت السيد فليب. جدتي أليتا كانت تحكي لنا نوادر تلك الأيام وتضحك حتى تكاد أن تنقلب من على كرسيها، بينما روز، والتي صارت أيضًا جدتي روز بعد أن هربت من الدير مستمتعة بانطفاء شمعة شيخوختها في بيتنا بتولوز بجنوب فرنسا، محمرة كثمرة فراولة من شدة خجلها. جدتي أليتا وجدتي روز واللتان ماتتا ممسكتين كل منهما بيد الأخرى في الساعة نفسها، وربما في اللحظة نفسها بعد أكثر من خمسين عامًا من هذه الأيام. كانتا أكثر من امرأتين أضاعهما جنون الحب ولذة المؤامرة.

فروز الجميلة بشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين الواسعتين كعيني غزالة كانت في طور عودتها إلى أيام طفولتها الضائعة، ولكن هذه المرّة بدون صرامة الأب التي مارسها عليها السيد فليب ليحافظ على بكارتها، أهم ما يستطيع أن يقدمه للرجل الذي سيتزوج ابنته كأب شريف ومحافظ.

عادت روز لتغرق تدريجيًّا حتى أذنيها في طفولتها، عادت إلى عادة مص أصبعها الكبير والتبول في فراشها، الأكثر من ذلك بدأت حروب دائمة بينها وبين صوفيا الطفلة على عروستها الصغيرة أو على الحلوى التي كان يأتي بها السيد فليب للأطفال الثلاثة، ذلك الأمر الذي أتعب كثيرًا شبح أمها الذي عاد للظهور متجولًا في أنحاء البيت بتنورتها الزرقاء الواسعة وملامحها الحزينة. حدث ذلك بعد سلسلة من الأحداث لم يستطع عقل روز احتمالها. بدأ ذلك بعد أن أهدى السيد فليب، روز وأليتا، مرآة ضخمة تستطيع أن

تُظهِر الشخص الواقف أمامها بحجمه الطبيعي، كهدية يجب أن تفرح بها سيدتان شابتان تحبان التأنق. وبالطبع كان قرار مكان المرآة في يد جدتي أليتا -صاحبة كل القرارات الهامة في بيت السيد فليب-، ولسببٍ ما، اختارت أليتا أن توضع المرآة في الحمام، رُبَّما لتتابع تغيُّرات جسدها الذي يجب أن يبقى شابًا رغم كل شيء، كوديعة خاصة بإيمانويل الذي حتمًا سيعود، أو رُبَّما أيضًا لأن مشاهدة الجسد كاملًا شيءٌ يجب التكتم عليه، تمامًا كفضلاتنا التي نتركها في الحمام دون أن نشعر بخزْينا منها، أو حتى لتسمح للسيد فليب بالجلوس معتنيًا بجسده أطول وقت ممكن، كهواية يجد في ممارستها الكثير من المتعة. وأيًّا كان السبب في قرارها هذا، لم تكن لتدرك أنها تصيب روز بحالة إرباك لا توصف، دون أن تعلم أن روز المسكينة لا تملك الثقة في نفسها لتنظر إلى المرآة عارية. وعندما شاهدت روز جسدها عاريًا لأول مرَّة، لم تستطع أن تحبس دموعها دون أن تعرف لماذا تبكي. كانت تعجب كثيرًا بجسد المرأة الفاتنة التي تطالعها من المرآة، تشتهيه حتى الجنون، لكن نشأتها المتدينة تمنعها من ملاطفته خوفًا من عذاب الجحيم الذي يتحدث عنه آباء الكنيسة. فقررت أن لا تدخل الحمَّام أبدًا إلا بعدما يغبش البخار المرآة التي تعذبها، دون أن تعترف لأحد بما يدور في خاطرها، ويظهر لها في أحلامٍ طويلة تشاهد فيها نفسها تمارس الجنس مع شبيهتها التي تطالعها من المرآة. الحدث الثاني الذي لم تستطع تفسيره أيضًا: هو اكتشافها أن بيدرو وألفونسو يتجسسان عليها كامرأة. فروز الجميلة والتي تربت كطفلة وحيدة يمارس عليها الكثير من الحنان والصرامة من طرف والدها السيد فيليب، لم تعرف كيف هي سنين مراهقة الشابين الصغيرين اللذين تعتبرهما طفلها، في حين أنَّ الولدين اكتشفا لأول مرَّة تمام تكوين الجسد الأنثوي، بمطالعات طويلة لجسدها العاري من ثقبٍ

صغيرٍ صنعاه في حائط حجرتها. الأسوأ من ذلك، أنها شخصيًا بدأت تحلُم أيضًا بأنها تمارس الجنس معهما، وكأنهم يلعبون جميعا لعبة أكثر عفوية من ممارسات زوجها السابق فرنسواه العنيفة و الانانية معها، والذي كان الجنس بالنسبة له معركة يجب أن يكون فيها منتصرًا دائمًا.

وأمام إرباكها الذي لا تستطيع تحمُّله، هربت كعادتها، فعادة الهروب هي أكثر العادات التي اعتادت أن تتقنها في هذه الحياة كحلٍّ سحري وفعَّال. فعندما ضاقت عليها الدنيا بصرامة والدها كشابة صغيرة. هربت إلى الزواج برجل يقيم بعيدًا جدًّا في جنوب فرنسا. وعندما كانت تتعذب في وحدتها وجنون عنف زوجها فرنسواه، كانت تهرب إلى الكنيسة التي تمضي فيها معظم أوقاتها، ليس فقط بدافع الإيمان، بل بدافع البحث عن السلام والوحدة. وعندما أصبحت الحياة لا تطاق بعد أن قررت أليتا وأولادها تركها، هربت معهم إلى منزل والدها بشمال فرنسا. أمَّا الآن وقد أصبح الهروب الجغرافي مستحيلًا من تلك الأحلام التي لا تجدها إلا أحلامًا شاذة لا تصدر إلا عن عقلية امرأة مريضة ونجسة، فقد خلق عقلها ملاذه الخاص بالهرب إلى عالمه المطمئِن.. عالم طفولتها التي لم تجد أسعد منها.

وأمام حالة الجنون تلك، أُجبرت جدتي أليتا أن تكون مسئولة ليس فقط عن ثلاثة أطفال، بل عن أربعة بحساب روز التي تعدى عمرها الثلاثين عامًا أيضًا، إلى أن أتت إليها روز ليلاً منتحبة وشاكية لها بيدرو الذي أوقعها أرضًا وجعل سروالها يمتلئ ببقع دم حمراء وسوداء، لتحاول جدتي أليتا، والتي كانت في نفس عمرها تقريبًا أن تفهّم عقلها الغارق في أوهام الطفولة، أن الدماء التي تلوّث سروالها ليست إلا دماء دورتها الشهرية، وأنها امرأة بالغة وأنها كانت متزوجة من رجل يتباهى بفحولته أمام الجميع إلا هي، تاركة إياها

تمص إصبعها، ناظرة إليها بعيني طفلة تائهة. لتخرج مغلقة الباب وراءها بكل قوتها حنقًا على هذه الطفولة التي لا معنى لها، وبكل غضبها من كل هذا الجنون وكل أعمال البيت التي لم تعد تحتملها لتعود بعد لحظة لتمسكها من كتفيها ناظرة في عينيها مباشرة قائلة لها:

"روز، ليس هناك أغبى من أن تضيعي عمركِ لأن هناك رجلًا سيئًا لم يحبكِ أبدًا. أحببتِه وعاملتِه كسيّدٍ، وعاملك كبلهاء، اخرجي إلى العالم أيتها المسكينة، فهناك العشرات بل المئات من الرجال في هذه المدينة الصغيرة ينتظرون فقط إشارة من إصبعك"

وكأم تجبر طفلتها على ترك لعبتها السخيفة، سحبتها من يدها لتضعها مباشرة أمام المرآة صائحة:

"انظري يا روز كم أنتِ جميلة، لك جسد امرأة يستطيع أن يهلك ألف رجل، ولك قلب، أقسم أنه أروع قلب قابلته في حياتي. فبإسم الله الذي خلق كل هذا الجمال، لا تموتي غرقًا في بئر الجنون، لتميتي أباك الرجل الطيب الذي عاش فقط لكي تعيشي أنتِ سعيدة " لتخرج تاركة روز كمن استيقظت من غيبوبة طويلة.

وطوال الليل سمع السيد فليب وأليتا والأولاد الثلاثة صوت روز وهي تتحدث لشبح أمها وربما للاشيء ضاحكة وباكية في نفس الوقت، تصرخ لتصمت، وعندما يطول الصمت يعود صوت روز يحكي حكايات من الماضي لا تكمّلها أبدًا بسبب ضحكها الذي يتحول نحيبًا. وبأمر صارم من جدتي أليتا، امتنع السيد فليب حتى عن الاقتراب من باب الحجرة، فجلس بعيدًا عن باب الغرفة محاطًا بالأطفال الثلاثة، معلقا عينيه في الفراغ بينما الدموع تنهمر على خده العجوز.

في الصباح التالي، خرجت روز من المطبخ كالعائدة من الموت، شاحبة وباردة كالرخام ومازال شعرها المعقوص للخلف كوردة يقطر ماءً، من أثر الحمَّام الذي أمضت ساعات الفجر تدعك جسدها فيها بالحجارة ،كأنها تقشر بيضة الطفولة لتعود امرأة، سامحة لنفسها بكل الملامسات المحرَّمة التي تمنتها في أحلامها. فلم يستطع السيد فليب أن يميز بينها وبين صورة أمها التي ماتت منذ عشرين عامًا. وبابتسامة واثقة وعينين تشعان مكرًا أنثويًا رائعًا، قدمت للسيد فليب فنجان قهوته، بينما هو غارق في دهشته فاغرًا فاه، مادًا يده في الفراغ ليأخذ فنجان القهوة، متمتمًا بالشكر للعذراء التي صلى وبكى لها طوال الليلة لتعيد له ابنته. ومباشرة اتجهت إلى أليتا الواقفة وسط أولادها الثلاثة لتقبّلها قُبلة طويلة بين عينيها، لتضمها جدتي أليتا وتهمهم في أذنها بالوعد الذي حافظت عليه طوال حياتها. لن يصيبكِ مكروهٌ أبدًا ما دمت حية، يا روز يا أختي الجميلة"

إذًا ما حكاية سبستيان وروز؟ وكيف حولت روز التي اكتشفت شبقها الخاص كامرأة ناضجة، سبستيان الضخم الخجول – زوج الغجرية التي يخاف منها كما لا يخاف أحدًا في حياته – إلى عاشق ومجنون. هذه إحدي قصص الحب التي تختلط فيها الرغبة في الثأر بالرغبة المحمومة لإرضاء الجسد، ممتزجين بالأمل في إنقاذ النفس من الجنون في اللحظة الأخيرة.

فعندما وقع اختيار روز على سبستيان كأقوى رجل يستطيع أن يعبر بوابة بيتها، وكفحل يستطيع أن ينفذ كل ألعاب الحب المجنونة التي تخيلتها روز ورسمتها بعناية خلال أيام ارتدادها للطفولة في حمى من جلد النفس، باغتته وهو بهم بوضع زجاجات الحليب أمام باب المنزل ليرحل دون أن ينظر إلى الشخص الذي يفتح الباب.

- كيف حالك يا سبستيان.

ليتمتم مندهشًا لمظهر روز التي كانت ترتدي فستانًا أحمر كالنار فوق جسدها الأبيض كالحليب، كاشفًا عن صدرها كله تقريبًا.

- بخير يا سيدة فرنسواه، صباحًا سعيدًا. محاولًا أن يهرب من نظرات روز المشتعلة ومديرًا لها ظهره لينصرف ليسمع صوتها.

ألم تعلم أنني لم أعد السيدة فرنسواه أيها المسكين، اسمي الآن روز الجميلة يا دبي اللطيف.

إذًا، نهاركِ سعيد يا روز الجميلة.

- قل لي يا سبستيان، ماذا تفعل بجسدك الضخم هذا الذي لا تعلم قيمته إلا امرأة محررة مثلي.

ودون أن تعطي له الفرصة للإجابة، سحبته من يده كطفل صغير ليدخل من باب المنزل الخلفي، ليجد حوض الاستحمام قد ملأته روز بالحليب. لتخلع ملابسها قطعة قطعة، وتنزلق إلى حمام الحليب، بينما هو واقف ينظر إليها بعينين مذعورتين وقلب كاد أن يخرج من قفصه الصدري لتكمِّل:

أريد منك خدمة صغيرة يا سبستيان، فقط أن تساعد روز المسكينة لتستحم بالحليب الذي تحمله دومًا ليشربه الأطفال.

وأمام حيرة سبستيان، جذبته من حزام بنطاله ليسقط فوقها في حمَّام الحليب، وليسقط أيضًا في حُبِّها للأبد.

## -١٧-

أصبح الليل هو مملكة روز وسبستيان الخاصة تحت عين السيد فليب الأب، والذي وجد في تلك العلاقة طعنة مباشرة لشرفه الذي عاش يحافظ عليه كرجل محترم. إلا أنه لم يفاتح روز في ذلك أبدًا، محاولًا أن يعوض ابنته الوحيدة عن لحظات القسوة التي عانتها كابنة يتيمة وكزوجة تعسة، مسلمًا شكوكه لطمأنة أليتا التي وقع في غرامها دون قصدٍ ودون أن تعلم بذلك إلا بعد سنوات طويلة من وفاته، عندما وجدت صدفة في صندوق روز بعد عودتها من الدير لتعيش معنا في تولوز، ذلك المظروف المليء بعشرات خطابات الحب التي كتبها لها السيد فليب بخط مرتعش ومشاعر مراهق ملتاع لا ينام الليل.

وأمام كل هذه العواطف المتضاربة، ظلَّ الرجل يطمئن نفسه بأن حكاية سبستيان وروز لن تكون إلا نزوة عابرة ستعود بعدها روز ابنته إلى الحياة كامرأة متزنة وصالحة. كان يسعده كثيرًا أن يستيقظ فيجد الأزهار تملأ المكان، وروز تغني ألحانًا علمتها لها أليتا، لتطير نحوه كفراشة فتطبع على وجنتيه قُبلة فيبتسم دون أن يستطيع أن يمنع عينيه من الترقرق بالدموع. لأنه بعد كل سنين عمره الطويلة تلك وجدت ابنته السعادة التي طالما فشل في أن يهديها لها. أصبحت روز متفجرة بالجمال، تستطيع أن ترى جيّدًا مكان قدميها في هذه الحياة التي حرمتها من الكثير. وبخلاف حكاياتها تلك مع سبستيان، تعلمت كيف تحسب مقادير كل شيء، لتواصل هوايتها في

إسعاد من حولها، وأولهم أبوها الممصوص بصرامته وخوفه الدائم من فقدان الأشياء القليلة التي تهبها لنا الحياة.

وبما أننا نتحدث عن الخوف، فيجب أن أخبركم بأن خوف روز من أن يعلم أبوها بتلك العلاقة ،كان هو مفتاح السر الذي كانت تلعب به جدتي أليتا لتكبح جنون روز وسبستيان على السواء، وبحرفية امرأة علمتها الحياة الكثير، كانت دَقَّة واحدة من يد أليتا على الباب كافية لأن تجعل روز الغارقة في اللذة تعض الوسادة لتكتم صيحات نشوتها التي لم تعرف مثلها مع فرنسواه، زوجها الذي لم تعرف معه معنى الحب أبدًا.

أمَّا أنتِ يا جدتي العزيزة، ماذا فعلَ الخوف بكِ، فقد أصبح خوفك من أن لا يعود إيمانويل، شبحك الذي يطاردك في كل مكان، وأنت تطاردينه كساحرة مجنونة بآلاف الحيَّل التي تبعث الطمأنينة في النفوس. جلسات اعتنائك بجسدك رغم رأسك الحليقة دومًا. حكاياتك التي لا تنتهي عن الأب الغائب في الحرب للأطفال، أغانيك ودموعك التي لابد أن إيمانويل يسمعها في مكانه البعيد، وقبل كل شيء فرحك المكتوم بحب روز وسبستيان؛ لأن البيت الذي يعيش فيه حب ما، لابد أنه يرسل إشارات كفنار رومانسي يعيد كل العشاق التائهين.

وفي هذا الجو الرومانسي والتآمر العائلي المذهل، كبرت أمي صوفيا الصغيرة وخالاي بيدرو وألفونسو، واللذين بدأت سنوات نضجهما كصبيين على مشارف المراهقة والرجولة تظهر التباين الواضح في شخصيتهما. فبيدرو الذي كان على مشارف الخامسة عشر، أصبح بوجهه الطويل وعينيه الغائرتين وجسده النحيل دودة كتب لا تشبع، وبدأ اهتمامه بالأشعار الشعبية لشعراء مجهولين وحكايات العشق الرخيصة يزداد،

متفاخرًا دومًا بأن أباه العزيز كان أقرب أصدقاء لوركا. أمَّا صور الهيبين المعلَّقة في حجرته والتي كانت تزعج أليتا الأم بشدة، فهي أحد المقدسات التي لا يستطيع أحدٌ أن يلمسها، وطالما كان شعره الطويل مثلهم هو سبب المعركة الأهم بينه وبين أمه، فكانت تقص شعره بالمقص وهو نائم، وعندما يستيقظ ويبدأ في البكاء، كانت تكلمه وهي لا تكلف نفسها حتى مغبة أن ترفع عينيها عن إبرة التطريز:

لا أريد أن يعود أبوك فيجدك مخنّثًا كالمثليين الذين تضع صورهم على الحائط.

بينما بيدرو الصامت الكتوم والذي بدأ يتعلم الشيوعية سِرًّا على يد معلِّم الموسيقى بالمدرسة حتى صار عضوًا بارزًا بالحزب الشيوعي الفرنسي بعد عشرين سنة، يكتم صوته ويبتلع دموعه متمنيًا عودة أبيه، الذي كانت تضيء ذكراه في رأسه كرجلٍ طويلٍ ضخم لم يرفض له طلبًا أبدًا، ويتمتم بغضبٍ، أشعار لوركا التي صار يحفظ معظمها عن ظهر قلب:

أي ذنبٍ اقترفه قلبي

وأي هوى آخر ينتظرني حين ينقشع الضباب؟

أتراه يكون هادئًا ونقيًّا؟

آه لو كان في وسع أصابعي قطف بتلات القمر

أمَّا ألفونسو ذو الأثني عشر عامًا، فقد ترك نفسه ليعب كما يشاء من ملاذ الحياة، حتى سمن وأصبح كفيلٍ صغيرٍ من كثرة الأكل، فرِحًا بأن لا يهتم بشيء سوى بحثه الدائم عن السعادة. وطالما أحرجته أمه أليتا لنهمه الذي لا نهاية له. ورغم أنها كانت تترك له نصف طعامها ليلتهمه سِرًّا بالمطبخ بعد أن يلتهم ما تبقى من طبق أخيه النحيف، إلا أنه لم يكف عن عادة النظر

كقطة جائعة لأطباق السيد فليب وروز، اللذين ينظران لبعضهما ضاحكين، بينما أليتا غارقة في خجلها من ذلك الابن الذي لا يشبع.

صفتان أخريان كانتا تميزان ألفونسو الصغير، وسامته الشديدة والتي فتحت لها لاحقًا قلوب النساء (وفتحت عليه أبواب جهنم) ونذالته الشديدة أيضًا. ورغم جسده القصير ووزنه الثقيل، كان ألفونسو يمشي بخطوات متناسقة رشيقة محدِثًا حوله جلبة خفيفة الظل، متهربًا دائمًا من كل مشاكله بالكلمات التي استعارها من أمه أليتا نفسها: "ماذا تنتظرون من طفلٍ وسيم ونذل ؟!"

في هذا الجو من التسامح العائلي والفوضى، كبرت أمي صوفيا الصغيرة، دون أن تشغل العائلة كثيرًا الحرب التي انتهت دون أن يعود جدي إيمانويل.

## ١٨- منصور

تقول لي أم محمد متنهدة، بعد أن تجلس القرفصاء أمامي معاتِبة:

- ما انا حذرتك قبل كده يا ناصر.

- والنبي يا حاجة اسكتي علشان انتي مش عارفة اللي حصل.

- يا لله خدت جزائها، عالم تستاهل الحرق.

- إيه الحكاية يا ام محمد؟ ما انا مش هفضل علطول كده مش عارف حاجة.

- شوف يا ناصر.. الحكاية دي تار قديم بين زينب العارجة وبين جدك الله يرحمه.

- طيب وانا مالي.. جدي الله يرحمه مات وشبع موت، أنا ذنبي إيه أتهدل البهدلة دي؟

- يعني إيه انت مالك؟ إنت الوحيد اللي فاضل من دم سيدي أبو السِّبَح، وانت الوحيد اللي زينب ممكن توفي معاه بالندر. لتكتم ضحكة قبل أن تكمِّل: بس صحيح الولية اللي جلد على عظم دي نامت معاك.!

إنتي بتقولي إيه يا ام محمد؟! شكلك كده اتأخرتي على البيت. خدي صنية الأكل واتكلي على الله وابعتيلي السعيد.

- الله، إنت زعلت يادكتور؟

- وانتي شايفة كلامِك مايزعَّلش؟

طيب يا سيدي، أنا هحكيلك الحكاية، ويارب سيدي أبو السِّبَح ما يزعلش مِنِّي في نومته.. زينب العارجة ست يعني، مَتأخذنيش، طول عمرها مشيها بطال. بس مكانش حد يقدر يوقفها عند حدها. كان أهل الحارة بيخافوا من جوزها فوزي العِجل.. مستعجب؟ ماتستعجبش، أصل زينب ربنا يحفظنا ليها في السحر والأعمال من زمان، وفوزى كان رجل مجدع، جزار وكسيب، بس امه الله يرحمها دعت عليه في ساعة غضب إن ربنا يبتليه بمصيبة. الظاهر إن أبواب السماء كانت مفتوحة، فربنا استجاب دعوة الست الغلبانة، وسلَّط على فوزى زينب العَرجاء. الرجل يروح المدبح من هنا والحارة تتملي بالرجالة أشكال وألوان. كان ناقص يقفوا طابور قدام بيت العرجاء. أصل فوزي كان متعود يخرج من المدبح يلف على القهاوي لحد ما يليل الليل، وعمره ما رجع البيت بدري. الناس كانت بتعز فوزي. ماهو ابن الحارة برضو، لما كان حد يجي يحكي عن اللي بيحصل لفوزي المسكين، يقلبه السحر في عين الرجل لعجل، ويقوم ساحب السكينة وعايز يدبحه. وياما رجاله خلصناهم من إيد فوزي والسكينة على رقبتهم.

سمعة الحارة بقت على كل لسان في المنصورة. سمُّوها حارة العرجاء. والناس في الحارة مابقاش ليهم أمل، غير إن ربنا يزيح الهم ده على إيد جدك سيدي ابو السِّبَح الله يرحمه. بس هو كان فين جدك، كان بيطلع من خلوته على موالد أهل البيت مش حاسس بالدنيا، ويرجع يحبس نفسه في الخلوة بالشهور، لا حد يدخله ولا هو يخرج، لا حد عارف بياكل إيه ولا بيشرب منين. الناس قالوا إن ربنا سبحانه وتعالى سخَّر له ملاك قاعد لخدمته. المهم ما أطولش عليك، في يوم أغبر، رجع فوزي واكتشف بنفسه الفضيحة، الراجل كان هَيتجن. حبس زينب في دارهم، ونصب

الخشبة اللي بيعلق عليها الدبايح، وحِلِف ليبيع الرطل من لحم زينب بصاغ. الحارة كلها وقفت تتفرج.. ربنا يسامحنا بقى، كنا شمتانين فيها ومستنين ناخد بتارنا.

شوية ودخل فوزي العجل على زينب، وبدل ما نسمع صراخها سمعنا صوت الزغاريد. وتطلع لنا زينب ساحبة فوزي من رقبته زي العجل. والراجل يا ولداه عقله ضايع وبيرِّل على نفسه زي العيل الصغير. الناس اترعبت، فجأة انشقت الأرض وخرج لنا سيدي ابو السِّبَح ألف رحمة ونور عليه، راكب فرس أبيض أكبر من الخيول اللي نعرفها مرتين، لابس ابيض في ابيض، وماسك سبحته زي السيف، ومن غير ما ينزل من على الفرس، ضرب فوزي بسبحته ضربة خفيفة على رأسه. وفجأة صلب فوزي طوله ورجع فوزي المجدع اللي نعرفه. وبضربة زيها على دماغ زينب، وقعت على الأرض ما حطتش منطق. فوزي كان عايز يدبحها، بس احترامًا لجدك لَم هدومه وساب الحارة بعد فضيحته. الناس شالت زينب ورجعتها بيتها. ومن يومها اتحرَّم عليها صنف الرجالة. كل ما يقرب منها رجل تشوفه كأنه وحش هياكلها. السحرة قالوا لها انه مش هيرجعها لصنف الرجالة، غير إنها تنام مع سيدي ابو السِّبَح نفسه أو حد من دمه. بس ده مين، جدك كان ولي من أولياء الله. وأبوك الله يرحمه عاش تقريبا شبابه فى القاهرة علشان الجامعة. ومَكَانش جدك بيسيبه أبدًا لما يجى يزورنا. حتى انت يادكتور، كنت عارف بالحكاية، ودمك عمره كان ما يختلط بالنجاسة دي على قد شقاوتك. ومن يوم الحادثة دي وزينب نادرة تلبس شفتشي وتحني راسها لو خدت بتارها من عِيلتكم.

تدهشني القِصَّة ويدهشني أنني لا أتذكر شيئًا منها، ومع ذلك أضحك مخبرًا أم محمد أن لعنة جدي على زينب لم تنته بعد، فتقوم المرأة لتجري إلى النافذة وتطلق الزغاريد عالية في الحارة، فأستمر في الضحك، متسائلًا بيني وبين نفسي عن السيدة التي صفعتني وهي تبكي.

## -١٩

ألحَّ عليَّ السعيد، قال إنه أحد أحب الموالد لقلبي، تمامًا كمولد السيدة زينب ومولد سيدنا الحسين. قال أيضًا إنني أول من ذهبَ بصحبته إلى هناك.. مولد مار جرجس بميت دمسيس، ليضع الطعام الذي حمله لي وعلبة سجائر على المنضدة، وعندما استدعيته طالبًا أن يتوقف هو وأم محمد عن إرسال الطعام، نظر لي بعتابٍ شديد وخرج صوته حزينًا، فعلمت أنني جرحته.

- عيب يا ناصر.. احنا أكتر من أهل.

شكرته وسألته عن أخبار محمد الذي ارتبط بإسم زوجته، فابتسم وسدَّد بصره للأرض.

معلش علشان ذاكرتك بعافيه شوية.. إحنا ربنا مارزقناش بالخِلفة.. خالتك ام محمد أبوها سمَّاها كده. هي اسمها أم محمد مع إنها عمرها ماكان عندها عيال. خلاص ساعة زمن وامرّ عليك يا جميل، واعمل حساب يوم الجمعة الغداء عندنا.

استحممت وحلقت ذقني التي لا أدري منذ متى لم أحلقها. أكلت شيئًا مما تركه لي السعيد. الطعام على مذاقه الشهي لم يحفز شهيتي على تناول الكثير. فتحت دولاب ملابسي لأول مرَّة فاكتشفت أنَّ أم محمد غسلت كل ملابسي، كما كوت قمصاني كلها، فابتسمتُ لود المرأة التي تعاملني كابنها. تقع عيناي أثناء ارتدائي ملابسي، على صورتي مع الحسناء

الفرنسية، أمسكت بالصورة وجلست أتأملها.. ولأول مرّة تبرق في ذاكرتي صورٌ لحدثٍ ما.

شاهدتني أمشي في ممرٍ طويل الحجرات المتتابعة على جانبيه، كأنها مكاتب إدارية. أنا أرتدي معطف المستشفى الأبيض، ممسكًا بيدي سماعتي الطبية أهزها بتوتر، ومن بين الغرف المتتابعة أقصد حجرة بعينها، أدخلها غاضبًا من شيءٍ ما، فأجد سيدة مشغولة بالنظر في شاشة حاسوبها الإلكتروني، الشاشة تخبئ معظم وجهها، كأنها تحتمي بالشاشة من المتطفلين على ملامحها. وعندما أبدأ في الحديث، تستقيم بقامتها لترى المتحدث. فأكتشف أنها أماندا التي تحتضنني في الصورة.

يصدر جرس الباب حشرجته المبحوحة، فأستيقظ من ومضة ذاكرتي. كان بالباب فتاة صغيرة، عمرها رُبَّما عشر سنوات، مليحة ترتدي فستانًا يبدو واسعًا عليها، فتبدو عظام جسدها النحيل من فتحة رقبته الواسعة، وعندما تراني تبتسم فينير وجهها.

- إزيك يا عمو ناصر؟

لتقترب مِنِّي وترتمي في أحضاني فاحتضنها وأتركها تطبع قُبلة لطيفة على خَدِّي. أبهجتني جدًّا قُبلتها البريئة. أدفأت قلبي وأشعرتني بالسعادة.

عمو السعيد مستنيك تحت، بس والنبي وانت نازل فوت على ماما وتيته.

ولأني لا أعرف أين هما؛ أم وجدة هذه الطفلة اللطيفة، طلبت منها أن تنتظرني لأني سأذهب معها. وضعت الصورة التي كنت مازلت ممسكًا بها على المنضدة، وحملت علبة سجائري وتبعتها. لم تذهب بي الطفلة بعيدًا،

كانت درجات سُلّم بيتي الضيقة كافية بأن تخبرني بأنها ابنة جيراني في الطابق الأول. وفي ثوانٍ، كان صوتها يسبقني:

- ماما.. ماما.. عمو ناصر على الباب.

لأجد بعدها سيدة أربعينية ممتلئة تقف أمامي، جسدها القصير يشي بملاحة لم يطفئ بهجتها الزمن. ترتدي رداءً بسيطًا لا يستطيع إخفاء مفاتن جسدها المتفجرة. تقابلني ناظرة للأرض. تحاول الابتسام، لكن وجهها يحمرّ تدريجيًّا من شدة الخجل وربَّما الخوف، ومن خلفها ابنتها التي تشبهها كثيرًا، بوجهها الطفولي المتطفل بفتنة، فتنهاها الأم عن تتبعها:

- ياسمين.. ادخلي دلوقت.

لتدخل ياسمين الرقيقة كاسمها متذمرة، فتسحب الأم باب شقتها وتغلقه، وما إن تتأكد من أنها فعلًا أغلقت الباب، حتى ترتمي أرضًا ممسكة بيدي تقبّلها، بينما دموعها تنهمر على يدي وتبللها، فأحاول أن أسحب يدي مذهولًا من المرأة وفعلتها. أميز الكلمات الصادرة بصدقٍ من صوتها المبحوح في فورة انهياره:

- سامحني ياناصر.. وحياة سيدي ابو السِّبَح تسامحني.

عندها أسمع صوت السعيد يناديني بقوة، فاخاف أن ينكشف أمري أنا والسيدة التي لا أعرف حتى اسمها، فأسحب يدي من يدها بكل ما أوتيت من قوة، وأهرب إلى باب البيت المغلق على غير العادة، فتسقط السيدة على الأرض مكمِّلة بكائها، فأمسح أثار دموعها من على يدي، بينما أنا ألقي بنفسي في سيارة السعيد القديمة، وأشعر بعيني تحرقني، وكأنني أنا من كان يبكي.

## -٢٠

أشعرني زحام المولد الشديد بالفرح، حيث يتجمع الآلاف ممن ينشدون البهجة مثلي. أصوات الموسيقى الزاعقة تفرض سطوتها على المكان، والمكان باحة واسعة مليئة بعشرات المراجيح وعربات الباعة الجائلين، يتوسطها سيرك شعبي فقير يقدم عروضه كل ساعة. العشرات من أبناء القرية المشتغلين بالفلاحة يعرضون حميرهم وأحصنتهم كوسيلة ترفيهية. أطفال المدينة يختبرون متعة ركوب الدواب والتقاط الصور، بينما أطفال القرية يفترشون الأرض أمام عرض الأرجوز الذي أبهرني بأغانيه الشعبية وألفاظه النابية، فيضحك الجميع على العمدة الخشب الذي ضربه الأرجوز بالحذاء. بينما كورال الكنيسة يقدم ترانيم لشابات أسكرهن الوجد وحلاوة إيمانهن، لكن تضيع أصواتهن المبتهلة في دوامة موسيقى المولد وصرخات الباعة الجائلين. علب الملوحة وسمك كلب البحر تصنع للمشهد رائحته العتيقة، نفاذة وقوية، لكنها رائحة المولد. البنت التي تقف على عربة النيشان ترتدي بنطلونًا ضيّقًا وتضع أطنانًا من الأصباغ على وجهها فتطمس براءتها، لتصير مشتهاة هي وبنادقها القديمة. تعلّق صورًا لقديسين وآيات قرآنية كهدايا لمن يحسن التنشين وفرقعة البومب. صوت منادي السيرك الشعبي يعلن بمكبر صوت عن عروض الفتاة البهلوانية والخواجة المجَري المجنون صاحب الموتسيكل الطائر.

ومع الوقت، بدأتُ الاستسلام للدهشة. كان ما يجري حولي يعيد ضخ الدماء في عروقي، لأشعر بأني تفصيلة قديمة في لوحة المولد الصاخبة. تركت لقدمي الزمام. كنت أستمع لتعليقات السعيد إلى أن اكتشفت أنني فقدته. الحقيقة أن ذلك لم يزعجني، اعتبرتها فرصة حقيقية لأن أمارس تجوالي بلا توجيه من أحدٍ، حتى لو كان السعيد نفسه. أشعلت سيجارة وبدأت التدخين بلذة. لكن شعورًا بأن أحدهم يراقبني سطا عليَّ. تلفَّتُّ حولي، فلم أجد غير وجوه الناس العادية في المولد بانشغالها. تابعت السير والفرجة. دار الكتاب المقدس تضع لافتة كبيرة معلنة عن وصول كتاب "الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان – عزازيل" مكتوب عليها أيضًا "نبيع الأشرطة والسي دي بجوارها شادر كبير للتبرعات والنذور من الخراف واللحوم. أشك أن الرجل الأحدب المرتدي جلبابًا أسود يتابعني فعلًا، لكني أستمر في المشي متجاهلًا نظراته لي. العشرات من الأسر القبطية تفترش الأرض أمام خيم بسيطة في انتظار الليلة الكبيرة، بينما عشرات آخرين من الشباب والشابات يدورون خلف الشاب الذي يحمل الدُّف، متغنين بالأغنية نفسها ومتطلعين إلى السماء.

رُبَّما تتشكل غيمة على شكل الشهيد ماري جرجس، بحصانه ورمحه الذي يطعن به التنين، فتتحقق معجزة تجسِّد الشهيد وينال الجميع البركة. الرجل الأحدب أصبح تقريبًا بجواري يشد يدي فجأة ليوقفني. أحاول الهروب منه، لكن الرجل تشبَّث بيدي، فلم أستطع التخلُّص منه. أزعجني فعل الرجل بشدة، فنظر إليَّ معاتبًا:

- هو في إيه يا دكتور ناصر. قطعت نفَسي وراك.

وعندما يلاحظ أنني لا أتذكره بالمرَّة، يعاود الحديث:

إيه يادكتور، انت نستني ولا إيه؟ أنا عمك عريان خادم الكنيسة، إلا انت صحيح فينك، بقالك كم سنة ماجتش المولد. تعالى أبونا عايزك.

يحيرني كلام الرجل الذي يبدو أنه يعرفني فعلًا، ودون أن يترك لي فرصة التفكير، يتجه بي ناحية الكنيسة مباشرة، فأمشي خلفه في الشوارع التي تضيق كلما اقتربنا من باب الكنيسة. رغم الزحام الشديد، الرجل يمشي بضعة أمتار ويتوقف ليتأكد أني أتبعه. حتى إذا وصلنا بالقرب من الباب الذي يتزاحم حوله الناس، يعاود إمساك يدي والانحراف إلى باب صغير مغلق. يضع يده في سيَّالة جلبابه، ويُخرج مفتاحًا يعالج به قفل الباب الحديدي فينفتح. عندها يدخل يعاود النظر لى متعجبًا من ترددي في الدخول. الباب يؤدي إلى سلم تنيره إضاءة خافتة. تقابلنا الرطوبة والهواء البارد عند أول درجات السلم الهابط، وأنا أتابع النزول متفحصًا حدبة عمي العريان، كأنني أتتبع أحدب كاتدرائية نوتردام دي باغي بباريس. جعلني ذلك أبتسم من نفسي، فأنا أتذكر تمامًا تفاصيل المسرحية الغنائية الشهيرة، ولا أتذكر تقريبًا شيئًا عن نفسي. السلم ينتهي بحجرة واسعة، يتصدرها مذبح كنسي صغير، مضاء بالكثير من الشموع، يعتليه صورة بالحجم الطبيعي لماري جرجس. أمام المذبح صندوق زجاجي كبير لم أستطع تمييز ما به، يخفيه عَنِّي جسد الكاهن الضخم والواقف في خشوع أمامه. نظرت فوجدت عمي العريان قد جثا على ركبتيه راسمًا الصليب في الهواء، فوقفت بهدوءٍ، متابعًا المشهد المبهر، ودون أن يوجه نظره إليَّ، حدثني الأب الكاهن:

نشكر الرب على سلامتك يادكتور.. للأسف منتاش كريم زي جدك، سنين ماتجيش تزور الشهيد.. هو حد كان زعَّلك في حاجة.

## ٢١- أماندا

في اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر عام (1945) وبالصفحة الخامسة من الجريدة المحلية وبخطٍّ صغيرٍ ولكنه واضحٌ وتحت عنوان البحث عن مفقود، كان هذا الإعلان:

تبحث السيدة أليتا سانت كلارا وأولادها: بيدرو وألفونسو وصوفيا الصغيرة، عن زوجها إيمانويل سانت كلارا الأسباني المولد، والذي التحق بقوات الجمهورية الفرنسية في الحرب المنصرمة، وتعلمه العائلة بأنهم في بيت المحترم فليب عامل التلغراف بالمدينة، وبأنهم يحبونه وينتظرون عودته دائمًا"

كانت هذه فكرة روز الجميلة والتي فعلت المستحيل لتقنع أباها فليب بها. والرجل الطيب الذي وقع بين نار ضغط ابنته الملح ونار أن يتحقق المستحيل وتقع الجريدة في يد إيمانويل إن كان حيًّا، فتبتعد أليتا عن عينيه وإلى الأبد، قرَّر أن يغامر بنشر هذا الإعلان بجوار عشرات الإعلانات التي تنشرها العائلات التي تبحث عن أبنائها بعد سنوات الحرب. وأمام موظف الإعلانات بالجريدة، وبينما هو يقدم الإعلان بيد مرتعشة، سمعه الموظف يخاطب نفسه بصوت منخفض: "على الأقل يا فليب أنت تتصرف كشخصٍ نبيلٍ يقدِّم شيئًا بسيطًا لهؤلاء الذين أعادوك وابنتك للحياة"

وعندما عاد السيد فليب إلى بيته، اتجه مباشرة إلى حجرته وأغلق على نفسه الباب بالمفتاح. كان قلبه منقبضًا تتسارع دقاته. جلس على مكتبه الصغير، وأخرج ورقة، وبدأ في الكتابة بخط مرتعش:

"زوجتي الحبيبة، سامحيني لأنني لم أكتب لكِ من قبل، لكن لابد أن طيفك اطلع على كل خطاباتي الساذجة لضيفتنا السيدة أليتا العزيزة. أعلم أنك أعقل من أن تشعري بالغيرة منها بعدما أصبحتِ طيفًا من نورٍ في عالم ملكوت الرب البعيد، لكنك هل كنت بعيدة أبدًا؟ تعلمين كم يحبك قلب زوجك الطيب، ولكني رغم كل وفائي لك، ارتكبت جريمة أن أحب امرأة أخرى.. هل سيكون ادعائي بأنني وجدت فيها روحك النبيلة عذرًا أستطيع أن أعتذر به عندما أقابلك؟.. رُبَّما بتساميك الآن عن كل همومنا الدنيوية ستستطيعين التفهُّم والتسامح. عندما قدمت اليوم هذا الإعلان الغريب إلى الصحيفة، لمحت طيفك بجانبي تبتسمين لي وكأنك تشجعيني.

صدقيني رغم أنه إعلان تافه لن يصل أبدًا لذلك الرجل الذي اسمه إيمانويل، والذي رُبَّما مات من سنوات في الحرب، أو تزوج من امرأة آخرى، أو حتى لا يستطيع القراءة بالفرنسية كما تعلمين ويعلم الجميع. إلا أن قلبي حزين جدًّا.. ماذا سيحدث لزوجك فليب لو عاد هذا الرجل ورحلت معه أسرته الصغيرة بعيدًا عَنِّي..؟ سينتهي كل شيء وسأعود وحيدًا كشجرة جافة بلا جذور. لقد انتهت قدرتي للعيش وحيدًا ككلب عجوز. أحتاج إليك الآن كما لم أحتاجك من قبل. أنا أبكي بينما أكتب لك، وأعلم أن دموعي التي تبلل خطابي هذا لكِ، تزعجكِ. هذه الدموع التي لم تريها أبدًا وأنتِ حيَّة.. هاهي تتساقط خوفًا من ضياع امرأة غيرك مِنِّي. رُبَّما تتهميني الآن وأنت في ملكوت الرب بالنذالة والخسة، ولكنه الضعف البشري ياحبيبتي. ذلك الإحساس النبيل بالحب والضعف والحزن، أشياؤك التي تعلمتُها معك أنت كشاب وعجوز. أرجوك لا تتركيني وحيدًا فأنا تعيس بدونك. أنا رجل عجوز تعيس تعيس تعيس يا حبيبتي البعيدة.

زوجكِ الذي لا ينساكِ أبدًا.. فليب..

وفي المساء بينما كانت الأسرة كلها تحتفل بعيد ميلاد أمي صوفيا الصغيرة والتي أتمت عامها الخامس، في حضور سبستيان الذي أصرت روز على دعوته كصديق للعائلة، وبينما كانت تستعد الأسرة لإطفاء شمعاتها الخمس، وسبستيان يلعب بأليتا الصغيرة حاملًا إياها كريشة يطوحها في الهواء، سمع الجميع صوت طرقات كالرعد على باب المنزل ليفتح بيدرو فيجد الغجرية زوجة سبستيان في مواجهته تسأله:

- أين أمك الصلعاء القحبة.

ودون أن تترك للولد المذهول فرصة الرد، دخلت البيت كزوبعة لتجد زوجها سبستيان متجمدًا كتمثالٍ من الشمع الأبيض بعد أن هربت الدماء من جسده.

وكمن اكتشفته في السرير مع عشيقته توجهت بحديثها إليه:

إذًا أنت تركتني لأتضور جوعًا أنا وأولادك السبعة، لتحتفل بميلاد بنت هذه الأسبانية الصلعاء القذرة.

وقبل أن يفيق أحد من هول المفاجأة، اتجهت مباشرة إلى جدتي أليتا وصفعتها على وجهها وسحبت سبستيان من يده، ليخرج من بيت السيد فليب ولا يعود له أبدًا. جدتي أليتا التي وشمت يد الغجرية وجهها بأصابعها الخمسة، جرت إلى روز الجميلة التي سقطت في إغماءه على كرسيها، بينما السيد فليب واقفٌ مذهولٌ والأولاد الثلاثة يرتفع صوتهم بالبكاء.

إذًا وقع ما كان يخاف منه الجميع. علمت الغجرية بقِصَّة تورط زوجها في حب امرأة أخرى، ولكن ما لم يفهمه أحد، هو: كيف أخطأت أوراق اللعب في إخبار الغجرية بعشيقة سبستيان الحقيقية؟ أم أن الغجرية كانت من الذكاء بحيث أنها لو اتجهت مباشرة إلى روز الجميلة فستنقلب المدينة كلها

عليها، ليس بالطبع لأن الجميع يحبون روز الجميلة، فهي على كل حال كانت موضع حسد الكثيرين بسبب زواجها من السيد فرانسوه الغني، وهي زيجة حلم بها الكثيرون لبناتهم ولم ينالوها، هذا بالإضافة لطريقة روز العفوية في تجاهل المتحدثين إليها لسقوطها في إغفاءات خيالها الجامح، فيحسبها المتحدث معها تعاليًا لم يكن موجودًا فيها أبدًا. لكن الحقيقة سينقلب عليها الجميع من أجل السيد فليب الطيب، والذي يدين له الجميع بكتم أسرار تلغرافاتهم ومشاركتهم بقلبٍ صادق في تحمُّل صدمات الأخبار السيئة، أو الفرح الحقيقي بأخبارهم السارة. وهكذا انتشرت أخبار الفضيحة بسرعة وبدون تحفُّظ. فأصبح الخبر الأهم في المدينة الصغيرة المتعشطة لأخبار جديدة، بعد أن أدمنت أخبار الحرب، والتي خلق انتهاؤها حالة من التعطُّش لأي خبر تشتغل به جلسات العشاء حول المائدة.

وبينما كانت روز تحبس نفسها في حجرتها مرتدة مرَّة أخرى إلى عالم طفولتها، وممضية الأمسيات تبكي وتمص إصبعها الأكبر وتتصارع مع صوفيا الصغيرة على عروستها، كانت جدتي أليتا تتحمل بصبر نظرات الإزدراء وكلمات النعت بالعاهرة بينما هي تتحرك في المدينة برأسها الحليق رافعة أنفها للسماء، لترد بأسبانية لا يفهمها أحد، بأنهم هم المجانين أبناء الذئاب. إلى اليوم الذي دُقَّ جرس الباب لتفتح أمي صوفيا الصغيرة فتجد رجلًا ضخمًا يخبئ الشمس بقامته الطويلة، ممسكًا بيده حقيبة صغيرة، وتحت إبطه جريدة مطوية، يحمل على ظهره أكرديونًا قديمًا، لتنطلق صرخة جدتي أليتا من الداخل قوية كصرخة غريق لمست قدماه الأرض فجأة: إيمانويل..

ليسقط السيد فليب أرضًا.. ويموت.

## -٢٢

عاد إذًا جدي إيمانويل من الحرب. والحرب العالمية التي غيرت وجه العالم كله لم تغيّره. عاد بشوشًا بقامته الطويلة وشنبه الكث، وكأنه خرج منذ دقائق لإحضار الخبز والحليب، لا يفهم كثيرًا مما عانته أسرته الصغيرة، ولا يعرف كيف جاءوا إلى شمال فرنسا، وتحديدا إلى المدينة الصغيرة التي أطلقوا فيها سراحه بعد أن وضعوا في جيب سترته الخشنة حزمة من المال تكفيه لشهر بالكاد، وشهادة تثبت بأنه حارب في صفوف الجمهورية الفرنسية ويستحق الإقامة فيها بشكلٍ شرعي. ليجلس هو وأصدقاؤه في حانة صغيرة ليستريح ويفكر كيف سيجد أسرته البعيدة، ليصيح فيه فجأة صديق ويحتضنه، قبل أن يريه الإعلان الصغير بالجريدة. وبحميمية الصداقة التي يخلفها الدم ودفن أشلاء الزملاء في الحرب، أعدَّ له أصدقاؤه حفلة وداع كبيرة، رقص فيها الجميع على أنغام أكورديونه الذي لم يفارقه أبدًا. أهدوه بعدها معطفًا جديدًا لأحد أصدقائهم الذين قضوا في الحرب، كان قد اشتراه خصيصًا ليعود به إلى أسرته، ليعانقهم جميعًا وهو يبكي كطفلٍ كبيرٍ فرحَ أخيرًا بالعودة إلى البيت.

ولأن الدنيا ليست عادلة تمامًا خاصة مع الغرباء، عاد جدي إيمانويل لتطفئ فرحته موت السيد فليب، الذي دفنوه في جنازة مهيبة، حضرها أهل المدينة كلهم، في ذلك القُداس العظيم الذي ترأسه الأب جورج بنفسه مؤبّنًا وواصفًا السيد فليب بأنه كان مثالًا للنبل الفرنسي الخالص، وبأنه فارس الأسرار وصديق الجميع، وبأن بيته كان دائمًا ملاذًا للخائفين والحيارى، في

إشارة واضحة لاستضافته الكريمة لأليتا وأسرتها، وبينما كان العشرات يلقون نظرة الوداع على السيد فليب في تابوته المحاط بالورود، كانت روز الجميلة تقف في القداس بوجهٍ شاحب، ناظرة لوالدها دون أن تذرف عيناها دمعة واحدة، لتعود الأسرة فتكتشف عدم وجودها ويلتفوا حول رسالتها التي كان نصَّها كالأتي:

"أختي الحبيبة أليتا، أكتب لكِ رسالتي هذه لأشكرك على كل ما فعلتِه لي ولأبي، ولأودعكم أيضًا. سأذهب يا أليتا إلى الدير لعلَّ صمته ووحدته القاتلة تكفِّر عن جرمي بقتل أبي المسكين، أعاهدكِ يا أليتا بأنكِ ستبقين دائمًا أنتِ وأولادنا في قلبي"

وعلى عكس ما رتب جدي إيمانويل في خياله، ليالي لقائه بجدتي وأسرته، التي ملأها في سنوات غيابه بالأغاني والرقص والعزائم التي تُفتَح لها أبواب البيت لاستقبال الغرباء، ارتمى جدي على الكرسي الذي كان يجلس عليه السيد فليب مسدداً نظره للأرض، فتتساقط دموعه حزنًا على السيد فليب الذي أحبَّه الجميع ولم يخاطبه أبدًا في حياته. وقبل أن يرفع رأسه من خزية الشخصي العارم على ما أصاب عائلته من جنونه، كان صوت أليتا المبحوح يخاطبه:

اِعزف لي يا إيمانويل، لأرقص كما كنت أرقص على أنغام أكورديونك، عندما كنت تعزف لي من الشارع في قريتنا بن عيشة، فأرقص وحدي كالمجنونة خلف باب حجرتي.

وبحركة كهل وقلب مذبوح، مدَّ إيمانويل يده إلى الأكورديون لتخرج الموسيقى حزينة، بينما أليتا ترقص ممسكة بيدها ذيل فستانها، تغني أغنيتها الأثيرة عن الغريب الذي قتله الحنين إلى الوطن. ببطء بدأت دورانها حول نفسها،

محاولة أن ترسم بسمة على شفتيها، قدماها الفرِحتين نسيتا خطوات رقصتها، يسري في جسدها تيار من المشاعر المتناقضة فيصيب جسدها بالتعب، فتتحرك بثقل أكبر وإصرار على أن تنتصر ابتسامتها الحزينة. الموسيقى التي استعادت ألحانها، تدفعها نحو رقصتها التي أعادت رقصها مرارًا في الذاكرة لسنوات، فتشعر أنها تُدفع للسقوط من على حافة خواء مرعب، لتسقط مختنقة بدموعها تحت أقدام إيمانويل الذي أخذ وجهها بين يديه وصار يقبّله نقطة نقطة، ودموعه تختلط بدموعها متمتمًا بوعده الذي لم ينفِّذه أبدًا "سنعود، سنعود يا أليتا"، بينما الأولاد تائهون بين فرحتهم بعودة أبيهم، وحزنهم على رحيل فليب وروز الجميلة.

## -٢٣

مازلت أكتب إليكما يا أكثر مَن أحبَّ قلبي، ابنتي ليزا وحبيبي منصور لتعلما مع أي مجنونة كنتما تعيشان، ولتعلم ليزا التي هجرتني لترتحل وراء صديقها، أنها موشومة بقدر نساء العائلات المرتحلات دومًا وراء أحلام وأوهام من تحبين، لعلَّها لو علمت تاريخ نساء العائلة لفهمت أن هروبها ليس استهتارًا وجنونًا (كما كنت أحاول أن أقنعها دائمًا)، بل وراثة لسلالة من النساء لم تخلقن إلا للعشق والتضحية. الآن أنا أكثر تفهُّما وقدرة على الاعتراف بأن كلمة ليزا الأخيرة التي بصقتها في وجهي قبل أن يرتطم الباب الذي خرجت منه، منهية كل هذا الصراخ الذي تبادلناه، كانت صادقة جدًّا كما هي مؤلمة للغاية، "منافقة"

وعندما أكتب قِصَّة عائلتي ككتابٍ مقدس لخلاص روحي، أعترف بأنني كنت بارعة في ابتداع ذلك العالم الملون المبهج الكاذب الذي ترعرت فيه ليزا، ولكن أي ذنبٍ لي إذا كان ذلك هو إرثي من أمي صوفيا الصغيرة، متيقنة أيضًا أن ليزا ستعيش في نفس العالم، فلا فائدة إذا من محاولاتي الساذجة في أن أغيِّر قدرها وقدري. وإذا كان هذا اختيارك فليس عليَّ الآن إلا أن أساعدك على أن تكوني كما تريدين، ولتعلمي القِصَّة الحقيقية كاملة، لعلك تتعلمين يومًا ما أن تحبيني وتحبين نفسكِ كما أنت، فلا تعميك غشاوة ذلك العالم الذي نعيشه، فيضيع منك حُبُّكِ كما أضعت مِنِّي منصور.

كبرت أمي صوفيا الصغيرة في غفلة من العائلة التي انشغلت بين عودة جدي إيمانويل ومحاولات جدتي أليتا لحماية أولادها من عفويته، تلك العفوية التي كانت لا تراها جدتي إلا همجية لن تؤدي بأبنائها أبدًا إلى المستقبل الذي تتمناه لهم. وبين استقبال الولدين لهذا الأب المدهش البسيط الذي لا يستطيع أن ينطق بكلمة "لا" أبدًا، وجد بيدرو في أبيه مثالًا صادقًا لليساري المؤمن بكل قيم الحرية والعدل والمساواة التي تتبناها الدولة الفرسية. فبدأ يعيد تأهيل أبيه البسيط بمنهجية الكتيبات التي يوزعها الحزب الشيوعي لتثقيف الطبقة العاملة. ورغم أن إيمانويل لم يكن يفهم كثيرًا من المصطلحات التي ينطقها بيدرو بنفس الطريقة المضخمة التي يستعملها قادة النقابات العمالية بفرنسية حماسية ومتوترة، حاملة كل أعماق ثقافة المجتمع الفرنسي المعقدة الذي لا يعلم إيمانويل عنه الكثير، فإن إيمانويل كان يستمع له لساعات، محاوِلًا أن يجد في كلماته ما ينفعه في أن يفهم العلاقة بين العدل والمساواة التي يدعيها الفرنسيون، وبين بقائه حتى الآن ولسنوات عمره كلها، إيمانويل الأسباني كما يناديه الجميع، حتى بعد حربه في صفوف القوات الفرنسية. لكن كل آلام ساعاته الشاقة مع بيدرو كانت تمضي وهو يشعر بفخره الخاص بامتلاكه ابنًا يستطيع أن يتحدث تمامًا كقائده الفرنسي في الحرب، لتنتهي محادثاتهما بقصائد لوركا التي تهبه الشعور بالأهمية والسعادة، فيحمل أكورديونه ويغني قصائده، متخيلًا أن بيدرو تحول إلى لوركا نفسه، متمنيا أن يكون حظه في الحياة أفضل من حظ صاحبه الذي لم ينسَه أبدًا.

أما ألفونسو الوسيم السمين، فقد وجد في أكرديون إيمانويل نهمًا جديدًا ليروي حبه اللانهائي للحياة والموسيقى، ليتحول إلى إسفنجة لا تتشبع من محيط موسيقى إيمانويل، الذي يبتدع كل ساعة لحنًا جديدًا لأليتا،

فتبتدع بدورها رقصة جديدة لكل لحن. بينما ألفونسو يجلس تحت قدميها يحفظ الألحان والرقصات ليطبقها بحذافيرها في سهرات السبت الصاخبة، حتى أصبح أشهر عازف أكرديون وأروع راقص بتولوز التي اجتمع بها الكثير من العائلات الأسبانية المهاجرة، في محاولة لصنع أسبانيا أخرى خلف جبال البرانس، ولكن هذه المرّة في الجانب الفرنسي، بعد أن اكتشفت العائلة عشرات الأسر التي شاركتهم قدر الحرب والهروب. لتصبح تولوز الوجهة المثلى للجميع. وفي هذا البيت المليء بحمى الرقص والموسيقى والخطب العمالية الملتهبة، اكتشف الجميع أن صوفيا الصغيرة كبرت فجأة، وأن العائلة لديها ممثلة قديرة.

## -٢٤

نحيفة جدًّا، وذات ملامح دقيقة للغاية. كانت أمي صوفيا مخلوقة كدمية خشبية منحوتة بدقة؛ رأسها الصغيرة بضفيرتها الطويلة وأنفها المدبب المتطلع دومًا للسماء متماشيان تمامًا مع مشيتها الراقصة كفراشة. وكممثلات الأدوار الأولى على خشبة المسرح تنحني ممسكة بطرفي ثوبها محيية الجميع عندما تقدم نفسها لأول مرَّة. ولكن خلف هذا الجسد الملائكي ،كان هناك (للأسف) المرأة الحازمة المجنونة التي كانتها جدتي أليتا دومًا، ولكنها هذه المرَّة فرنسية خالصة بكل ما يحمله المجتمع الفرنسي من نُبلٍ وتناقض ونرجسية. مشكلة أمي أنها كانت امرأة جميلة وذكية، لا تعي أن عليها أن تدفع ثمن ذلك غاليًا جدًّا. لم تفهم أبدًا أن الحيوانات والطيور الأكثر جمالًا هي الأغلى ثمنًا والأكثر طلبًا من الصيادين، وأن مكانها دومًا هو قفص الأسر المميت. أعلم الآن أن أمي كان من الممكن أن تكون زوجة صالحة للغاية، وصبية مطيعة، لولا دماء جدتي أليتا النارية التي تجري في عروقها وعروقي. وهكذا كانت تنتهي كل قصص حب أمي إلى الدمار الذي انتهى بها من ممثلة شابة جميلة ينتظرها مستقبل باهر، إلى حطام دمَّر نفسه وكاد أن يدمر الجميع.

بدأت القِصَّة بسبستيان مرورًا بماتيو الفرنسي أيضًا وشُوي الصيني ومحمد مختار الجزائري ورجل مصري آخر غريب الأطوار، بالإضافة إلى العشرات من مشردي الشوارع. وانتهت بماركو غبريال الذي أحمل اسمه كأبي الشرعي (والذي لا أعلم أبدًا إذا كنت ابنته فعلًا أو لا). حتى لو كان الرجل الذي

أحمل له الكثير من الذكريات كأبي الحقيقي بعد أن انقطعت علاقتي به كلية، أو لكي أكون أكثر صدقًا، بعد أن قطعتُ علاقتي كلية به، وهربت تمامًا منه مثلما هربتْ أمي، صوفيا التي اكتشفت في نفسها كونها ممثلة بارعة، عندما بدأت تتقن دور المريضة للهروب من الذهاب إلى المدرسة متلوية في فراشها كدودة، حتى ترضخ لرغبتها جدتي أليتا التي لم يستطع أحد على وجه الأرض أن يخدعها.. إلا أمي.

كانت موهبة أمي في تقمُّص المرض غير طبيعية، وكانت نظرة شك واحدة من جدتي أليتا إليها كافية لتزيد أمي في تقمُّصها، فيحتقن لونها حتى تصبح زرقاء تمامًا، وتبدأ في موجة عارمة من نوبات التقيؤ التي لا تتوقف حتى ترى جدتي أليتا راكعة على ركبتيها، متجهة إلى الصليب المعدني الصغير المعلَّق على الحائط ومشبكة يديها متضرعة بكل روحها إلى المسيح الواقف مصلوبًا وحزينًا، أن ينقذ ابنتها الصغيرة من الموت. وعندها يبدأ لونها في التغيُّر إلى الوردي ويتوقف التقيؤ، لتطلب من أمها بصوت ملاك مريض أن تتركها لتنام قليلًا حتى تشفى. وما إن تخرج جدتي أليتا من الحجرة بعد أن تنظف أرضية الحجرة من القيء، حتى تقوم أمي لترقص قافزة على سريرها كلاعبة سيرك ممسوسة من الشيطان.

قدرة أمي على التمثيل في سنوات طفولتها تلك، لم تكن سلاحها ضد جدتي فقط، بل أصبحت أيضًا لعبتها المفضلة في المدرسة، مقلدة أصوات الأساتذة وحركاتهم، مضحكة كل تلاميذ الفصل عليهم. حتى ضبطتها "مدام أني مديرة المدرسة تمثِّلها هي شخصيًا وهي تمشي بجسدها الكبير آمرة التلاميذ بصوتها المنفِّر أن يلتزموا الصمت، لتنظر إلى أستاذ الرياضيات "السيد دونيه" من تحت نظارتها، محاولة أن تلفت نظره إلى أنوثتها العاقر،

بينما هو يهرب منها متلعثمًا في حل المسائل الحسابية على السبورة. فما كان من مدام آني إلا أن حملتها بيدٍ واحدة كجرذ لتسقط في ملابسها إلى حجرتها مباشرة، وترسلها إلى بيتها بجواب تعنيف شديد اللهجة إلى والديها، واصفة ابنتهما بأنها طفلة شاذة وقليلة الأدب وغير مرغوب فيها، كتفاحة فاسدة لها القدرة على أن تفسد كل أطفال المدرسة.

ولم تفلح كل توسلات جدي إيمانويل وجدتي أليتا في إعادتها إلى فصلها. حتى تدخَّل السيد دونيه مدرس الرياضيات بنفسه، والذي كان صديقًا حميمًا لخالي بالحزب الشيوعي، فقبلت مدام آني عودة أمي إلى فصلها بعد أن اعتبرت ذلك جِميلًا قد يضيفه السيد دونيه إلى رصيدها لديه، فيلتفت إليها كامرأة. ولكن بعد وعد قاطع من والديها والسيد دونيه بأنها ستنقطع تمامًا عن التمثيل بالفصل، ووعد خالص من السيد دونيه لأمي صوفيا بأنها ستكون عضوًا في فريق التمثيل الذي سينشئه السيد سبستيان مدرِّس الموسيقى الشاب، والذي سيكون فيما بعد أول حبيب لها، والرجل الذي سيحصل على بكارتها، والذي سيترك بسببها التدريس إلى الأبد، لينزوي في بيتٍ صغيرٍ في قرية منسية على المحيط. يصنع فيها المراكب الخشبية الصغيرة قاطعًا علاقته بالعالم الكبير كله، مستمتعًا باستجلاب ذكرياته مع تلميذته التي علمته الحب ورشفات نبيذ بردو الفاخر، ومختبئًا من خزيه؛ لأنه لم يكن أبدًا الرجل الذي يستطيع أن يسعدها.

## ٢٥- منصور

هكذا حدثني «الأب مكسيموس»، عندما عرف بحكاية سفري وعودتي بلا ذاكرة:

- أنت من نسل عائلة مباركة يا دكتور. جدك كان يعرف أن النبع واحد، فزار حنوط مار جرجس كما كان يزور مقامات الأولياء وأهل البيت. كان من الحكمة لأن يعرف أننا جميعًا نعبد نفس الرب كُلٌّ بطريقته. أنا من أرسل في طلب جدك إلى ميت دمسيس لأول مرَّة، وعندما ذهب خادم الكنيسة ليحضره من المنصورة، عاد لي بعد دقائق ولسانه مشلول، وما إن سقيته الماء وهدأته، حتى نطق بأن الرجل الذي بعثته لاستدعائه، يقف بباب الكنيسة الخلفي، يربط حصانه الذي لم يرَ أبدًا مثله.

كانت ليلة النصف من شعبان، وكنت أخشى أن لا يحضر معه جدك لتعبُّده في الليلة العظيمة، لكن جدك كان على كرمه المعتاد وأتى ليخلصني من الورطة. أحدهم حاول سرقة ذراع ماري جرجس. لم تكن هذه المرَّة الأولى التي يحاولون سرقة الذراع المباركة، حدث مرَّة في الأزمنة البعيدة أن حاول شقي أن يسرقه، كان يريد أن ينقله إلى قريته ليقيموا بها كنيسة تُشهِر القرية، لكن جسد السارق تحجَّر حاملًا الذراع المبارك، ولم ينجه غير زيارة أحد القديسين السواحين، الذين يسافرون متعبدين للرب بين البلاد، قديسون لا نعرف أعمارهم أو هل هم أحياء أم متنيحون. ولأن السارق تاب توبة عظيمة، فقد بعث له الرب من ينجيه من العذاب. أمَّا سرقة ذراع القديس قبل أن يزورنا جدك، فكانت شيئًا

مختلفًا، فقد كان السارق قاطع طريق، سمع بقيمة الحنوط التي لا تضاهيها أموال، فكسر الحجرة السرية بالدير وسطا على الذراع.

جلست وقتها يومين أمام جسد السارق الذي تصلَّب حاملًا الذراع كصنم. أعلم أن فيه الروح رغم تصلُّب جسده وبرودته كالرخام. ولم يعد من جسد الرجل أي شيء حي سوى عينيه، اللتين لم تتوقفا عن النظر إليَّ والبكاء. صليت كثيرًا للرب والعذراء والقديسين، لكن الرجل بقى على حاله حتى خشيت عليه من الموت متصلِّبًا، حاملًا الذراع الطاهر. ومن شدة إرهاقي وتعبي، نمت فشاهدت رؤية مباركة: شاهدت مار جرجس يخاطبني، ويدعوني لأن أستدعي جدك ليحرر ذراعه. قال لي عنه إنه رجلٌ مسلم يحب الله ويحبه الله، ويركب فرسًا من خيل الجنة كفرس مار جرجس نفسه. وعندما شاهد حيرتي من استدعاء رجل مسلم، وبَّخني متعجِّبًا من أن أكون خادمًا للكنيسة ولا أعرف أننا جميعًا عبيد للرب ذاته، حتى لو اختلفنا في فهم حكمته في جعلنا مختلفين. فاستيقظت باعثًا بخادم الكنيسة لجدك الذي ذاع صيت صلاحه في المنصورة وأجوارها، جدك الذي دخلَ عليَّ يصاحبه النور الرباني. لم ينتظر أن أحكي له أي شيء، فقط بدأ في قراءة آيات القرآن، واضعًا يده فوق رأس الرجل. ومع القراءة، بدأ جسد السارق يستعيد حرارته، حتى تهاوى أرضًا وسقطت ذراع مار جرجس الشهيد بين يدي، ففرحت بالبركة التي نلتها، ولم أنتبه إلا والسارق يحاول أن يقبِّل قدم جدك، وجدك ينحني ليرفعه من على الأرض، ويهزه ووجهه كله غضب، ويصيح بصوتٍ أشعرني بالخوف الشديد: أتسرق من أوصانا بهم رسول الله خيرًا ليصفع الرجل صفعة أدمت وجهه، ويخرج هاربًا.

جدك ساعدني في وضع الذراع الطاهرة في صندوقها هنا. ومن يومها وحتى مماته كان يأتي ليشاهد معي الليلة الكبيرة للمولد وكنت تأتي معه، وحتى بعد وفاته لم تنقطع عن زيارتي كل مولد.. إلى أن اختفيت فجأة"

ينهي الكاهن حديثه معي بصمت طويل، ثم يتنحي قليلًا مبتعدًا عن الصندوق ويكمِّل حديثه لي:

- تعالى يا ابني، شوف ذراع مار جرجس. يمكن ربنا يرجعلك ذاكرتك ببركة مار جرجس وجدك الشيخ أبو السِّبَح.

عندها أقترب من الصندوق الزجاجي فأرى ذراعًا بشرية كاملة، موضوعة على قماشٍ من الكتان، اصفرَّ لونه من شدة القِدَم، فيهتز جسدي كله من الرعشة، وأسمع أصوات الكاهن وخادم الكنيسة ترتفع بالصلاة. فأقرأ في سِرِي الفاتحة؛ للترحم على مار جرجس وجدي، ليبدأ جسدي في الطمأنينة، وتختفي الرعشة وأشعر بالأمان.

## -٢٦

خرجت من باب الكنيسة الخلفي، تسكن قلبي طمأنينة لم أشعر بها من قبل. لأعاود الدخول إلى عالم المولد المدهش. كانت ليلة العجائب بحق. فما إن ابتعدت قليلًا عن الكنيسة وزحامها، حتى قابلتنى عجوزٌ غجرية تحمل على رأسها سلة من الخوص، تصيح بصوتها المبحوح. أبين زين وأوشوش الودع لفت مظهرها العجيب انتباهي؛ قصيرة هي، وترتدي السواد، لكن وجهها الأسمر ينير بابتسامة ودّ فاتنة، فتوقفت للحظة أتابع دورانها كفتاة عشرينية نشيطة، تحاول بصوتها الضعيف أن تقهر ضوضاء المولد، ولا أحد يهتم بها. رُبَّما اكتشفت أنني أتابعها بنظري، فاقتربت مِنِّي وقد زادت ابتسامتها:

- أبين زين يا أستاذ. تعالى يا ابني أشوف بختك، وراضيني بأي حاجة. ربنا يكرمك. خالتك تعبت من كتر اللف.

لتفترش الأرض أمامي دون أن تنتظر موافقتي، وتفتح منديلها الكبير، فتظهر الرمال الصفراء وأصداف البحر.

- هو انت اسم امك إيه يا أستاذ؟

يغرقني السؤال في إحراجٍ شديد. فأنا لا أتذكر حتى اسم والدتي. وعندما يطول صمتى، تنظر المرأة طويلًا في وجهي العابس كأنها تقرأه، فتختفي ابتسامتها المنيرة، وتظهر ملامح سنوات العمر الطويل عليها في نظرة حزينة ومندهشة.

يا عيني يا ابني. كل الهم ده شايله لوحدك. تعالى اقعد جنبي وادّيني إيدك.

لتخرج منديلًا أبيض نظيفًا، تفرشه على حافة الرصيف بجوارها. فأجلس وأمدّ لها يدي، فتحتضنها بيديها السمراوين، فأشعر بيديها دافئتين وجافتين حول يدي.

العمر الطويل لك يا ولدي (لتتنهد مكمِّلة): أحببت من لها دمك ورفضته. عقلك تايه وقلبك حزين. الماضي ضيَّع لك الحاضر وخايف يا ابني من المستقبل. الطريق قدَّامك بس عنيك مش شَيفاه.

تصمت السيدة لفترة. تسرح فيها طويلًا مع خطوط كفي المتقاطعة. ثم تضم أصابعي إلى كف يدي، وتشيح بوجهها عَنِّي قائلة:

- كفاية كده، عنيَّا وجعتني، ومعنتش عارفة أشوف حاجة. قوم يا أستاذ ربنا يسهلك ويسهلي.

وعندما أحاول أن أعطيها بعضًا من النقود، تردها إليَّ، فأصر، فتأخذ جنيهاتي وتعاود السير لتضيع في ضجيج المولد.

وجدني السعيد وقد أربكتني كل أحداث ليلتي العجيبة. لم أحكِ له عن شيء مما حدث لكنه استطاع أن يقرأ بخبرته في الحياة ارتباكي، فأراد أن يرفه عَنِّي بشيءٍ رُبَّما لم أرَه من قبل.

أخذني السعيد إلى حجرة إخراج العفاريت، حجرة صغيرة تطل على باحة الكنيسة المزدحمة. يفترش الأرض فيها القليل من العجائز، ويتعاقب عليها الفضوليون من أمثالي أنا والسعيد. تتوسطها صَبِيَّة نحيفة ملقاة على الأرض، متشنجة يغطيها العرق ويسيل الزبد من فمها الملتوي، عيناها زائغتان، ووجهها متغضن من شدة الألم، قدماها مرفوعتان، وكأن هناك

من يحملهما في الهواء. بينما رجل في العِقدِ الخامس يحمل الصليب ويقف في مواجهتها، يصرخ في الجِنّي الملتبس للجسد النحيل آمرًا:

- اخرج يا خسيس من جسم البنت. اخرج ببركة ماري مرقص. اخرج بدل ما أضربك لحد ما تخرج. اخرج من صباع رجلها الصغير يا خسيس ومَتأذهاش.

وعندما يزداد تشنُّج الصَّبيَّة، تطفح الدموع من وجهها الصغير وتعلو صيحات آلامها. ينهال الرجل على الفتاة بالضرب بوحشية تدمي قلبي، لأشعر برغبة قوية في التقيؤ، فأخرج هاربًا خارج الكنيسة. يتبعني السعيد الذي لا يخفي ضحكاته مِنّي.

## -٢٧

لم يتركني وجه صَبيَّة مولد مار جرجس وآلامها لليالٍ طويلة. كما لم تتركني أطياف أساطير وحكايات جدي. كنت أبيت ليالي بطولها مرتبكًا ومسهدًا، أنتظر الصباح. أحاول الهروب من الناس. رفضت دعوات السعيد المتكررة للسهر معهم في خُصِّ أحمد القفاص. كما اعتذرت عن تقبُّل دعوته لبيته، وأصبح حرجي منه ومن زوجته لا يوصف. كل يوم يحمل أحدهما الطعام والسجائر لي، حتى وجدت بالمصادفة دفتر توفير بنكي يحمل اسمي وتوقيعي. كانت هذه مصادفة أكثر من رائعة، تسمح لي بالاستقلال وردِّ البعض من ودِّ السعيد وأم محمد لي.

ذهبت إلى البنك، وصرفت الكثير من المال. اشتريت الهدايا للسعيد وزوجته، ووضعت إيجار شقتي المتأخر لسنوات في مظروفٍ؛ لأمرره على أصحاب البيت في الدور الأول. عند عودتي إلى الحارة شجعني الجو اللطيف على شُرب كوبٍ من الشاي في المقهى الصغير على باب الحارة. بمجرَّد اقترابي من مدخل المقهى، كان ترحاب صبي المقهى يدل على معرفته القديمة بي. وفور دخولي المقهى، صاح مرحِّبًا باسمي، ليقترب ويحتضنني مقبِّلًا، تاركًا لعابه على خدي. اخترت مقعدًا يقبع في الزاوية، محاولًا التهرُّب من العيون التي بدأت في متابعتي أنا وما أحمل مِن هدايا. ودون أن أطلب، نادى عامل "النَّصبَة" طالبًا لي الشاي والشيشة، ليعود حاملًا الصُّحُف اليومية. كان المذياع يشدو بصوت محمد عبد الوهاب، وعيون مرتادي المقهى ترسل لي نظرات الودِّ والابتسامات. نظرات

مصحوبة أيضًا بالتطفُّل لمعرفة ماذا في حقائب الهدايا التي أحملها، فرددت عليهم بابتسامات مشابهة خجلة، لأهرب ببصري إلى شارع محمد فتحي المزدحم. عاد صبي المقهى في سرعة لم أتخيلها، حاملًا الشاي والشيشة. تظاهرت بانشغالي في الصحف. حتى أُسكِت سيل كلامه وأسئلته. سددت أذنى تمامًا عنه، **ووضعت كل تركيزي في صور الجريدة** وسطورها المتتابعة. وبدلا من **أن أقرأ الأخبار**، ظهرت بين السطور مشاهد تمحي تصارع الكلمات **أمامي**.

شاهدتني أقف على محطة للحافلات، أنتظر حافلة بعينها تحمل رقم ٦٠، متجهة إلى حي "كاستي بتولوز"، **وعندما أصعد** إلى الحافلة تبتسم لي السائقة السمينة، فنتبادل تحيَّة الصباح بالفرنسية، وأجلس في مقعدٍ شاغر، لتتحرك الحافلة فيظهر لي نهر الجارون ومتحف أوجستين. أشعر كم أحب الشارع الواسع الذي تمر به الحافلة؛ بمبانيه الوردية ومقاهيه الصغيرة.

ومن بين المقاعد الشاغرة الكثيرة في الحافلة، يختار عجوزٌ يرتدي بذلة كاملة في صيف تولوز الخانق، الجلوس بجواري، فأنظر إلى يديّ الرجل بأصابعهما المتشابكة، وأسمعه يحدِّث نفسه بصوتٍ مهموم: "لقد مرَّ سريعًا جدًّا" أتعاطف مع الرجل الذي ينظر بوجهه إلى الأرض، فأسأله متوددًا: "ما هذا الذي مرَّ سريعًا جدًّا أيها السيد؟ فينظر الرجل لي مبتسمًا بعيونٍ ممتلئة بالدموع: "العمر يا صديقي الشاب الصغير

يخرجني من برق ذاكرتي، صوت ضجيج مكتوم، فأكتشف أنَّ رجلًا جلس بالمقعد المجاور لي، على نفس الطاولة بدون أن يستأذن، يسحب عصا الشيشة من يدي، ويدخن بشراهة شديدة. أتذكر نفس الوجه العابس

للرجل، هو نفسه الذي شاهدته يجلس وحيدًا مع حماره بالحارة. تذكرت أيضًا حكاية زوجته التي ماتت محترقة، وأن اسمه «سراج المصري». وبعد فترة أعاد لي عصا الشيشة فوضعتها جانبًا.

- إزيك ياناصر؟

- الحمد لله ياعم سراج. إن شاالله تكون بخير.

- خالتك عزيزة دفنوها حيَّة، ومَخلونيش حتى اسلم عليها وهيَّ نازلة تُربتها.

- وجِّد الله ياعم سراج، وادعِلها بالرحمة.

يبدأ الرجل في البكاء، فيعاود مرتادي المقهى النظر إلينا.

كان مجيء السعيد للقهوة بمثابة طوق النجاة لي. والسعيد الذي شعرَ بورطتي مع سراج، انقضَّ عليه متحدِّثًا بصوتٍ عالٍ:

هو انت مش هتلم نفسك بقى وتبطَّل ولولة النسوان دي يا سراج، يعني هو الدكتور ناقص قلبة الدماغ بتاعتك دي.

عندها يسبُّه المعلم سراج بأفظع كلمات السباب التي أعرفها، تاركًا المقهى، لأسمع صوته:

- والله يبقى رجل مَرَه اللي يقعد مع الأشكال اللي زي وشك. ولكن دون أن ينسى أن يقول لي:

- بالإذن يا دكتور، طول ما الحارة فيها الأشكال دي، عمرها ما هتنضف أبدًا.

وعندما أتابع دخول المعلِّم سراج إلى الحارة، يُرجِعني صوت قهقهة السعيد إلى وجهه المتغضن من شدة الضحك.

والله كانت بتضربه بالشبشب. ما انساش أبدًا كُنَّا مرَّة سهرانين عنده بنحشِّش، والحاج علي شاهين كان جايب صنف محترم. وبعدين عمَّك

سراج شرِب وتقِّل.كان أيامها الحاج علي كاتب على بنت صغيرة عندها يجي 18 سنة بتشتغل عنده في الوكالة، ما انت عارف الحاج علي طول عمره طفس وخصوصًا في صنف الحريم. المهم يا سيدي، عمَّك علي انسجم وأخذ يوصف في الكتكوتة اللي كاتب عليها جديد على نسوانه الاثنين. إشي البنت شفايفها عاملة إزاي، ولا وسطها اللي يحل من على حبل المشنقة، وعينها اللي تجيب سكتة قلبية. كل ده وعمك سراج ساكت، يشد في دخان الحشيش ويكتم، يشد ويكتم، تقولشي يا اخويا الرجل دماغه في حتة تانية خالص. لحد ما العبد لله انسحب من لسانه وقلت للحاج علي: بس يا حاج البنت صغيرة وعفية عليك، وانت ياعني مَتأخذنيش السن برضه له حكمه. يقوم عمك سراج تقولش لدغته عقربة، يصيح بأعلى صوته: سِن إيه يا ابو سِن، ده انا يا اللي أكبر من علي شاهين بخمس سنين ممكن أنام مع الحمارة مرتين في اليوم. وزي ما يكونوا الكلمتين دول جردلين ميَّه مثلجة ووقعوا على دماغ عمك سراج. الرجل بص لباب الأوضة اللي مراته نايمة فيها لقاه موارب، الدم هرب من وشه وجتته ازرقت. وهي ثانية، وكان صوت عزيزة الله يرحمها جايب آخر الحارة "مرتين في اليوم مع إيه يا رجل يا ناقص، بتفكر تنام مع الحمارة يا عربجي يا ابن نبوية الحولة، تنام مع الحمارة وانت بتنام جنبي زي الجردل".. وهات عندك فين يوجعك بالشبشب ابو وردة الرجل يا عيني اتكوم على نفسه والولية بركت فوقه هتفطسه، أصلها الله يرحمها كانت جتة برضه، طبعًا انا والحاج علي شاهين نزلنا جري من على السلم قبل الناس ما تتلم.

خالتك عزيزة حلفت عليه ما تقعد ليلة في البيت إلا إذا كانت الحمارة متباعة، رغم إن الرجل كل اللي قاله بفكر بس، مجرَّد تفكير علشان يشبِّه البنت الصغيرة بالحمارة. وفعلًا تاني يوم كانت ساحبة الحمارة للسوق.

وهات ياضرب في الحمارة بالخرزانة تقولشي ضُرتها. وكل ما واحدة تفتح باب ولا شباك علشان تتفرج، كانت عزيزة تسيِّب عليها لسانها اللي زي الكلب السعران، بتتفرجي على إيه يا بنت..... يا لا يا مره يا..... الحكاية وصلت سوق البهايم قبل سراج ومراته. التُّجار قعدوا يفطسوا في سعر الحمارة لحد ما باعها ببلاش. وعلشان عزيزة الله يرحمها كانت أصيلة، قلعت الماشاء الله الذهب وباعتها، وما سبتوش يروَّح من غير حمار. إنما إيه حمار حصاوي بجد، قعدت ربطاه قدام البيت جمعة علشان النسوان تتأكد إنه دكر.

## ٢٨- أماندا

كادت الفرحة تقفز من عيني أمي صوفيا الصغيرة عندما وجدت السيد دونيه ينتظرها خارج الفصل بعد أن خرج الأولاد للفسحة، ليأخذها لمقابلة أستاذ الموسيقى المسئول عن فريق التمثيل بالمدرسة «السيد سبستيان جون بير» كما وعدها. وما إن دخل بها إلى قاعة المدرسين بعد أن مشت معه الممر المؤدي للقاعة تصفر وتنحني، ممسكة بيديها طرفيّ ردائها للمدرسين، مستقبلة ابتساماتهم، منتشية بتلك الضحكة القصيرة المكتومة التي أطلقتها مدرستان شابتان تصادف مرورهما في الممر، متذكرتين قصتها مع مدام آني مديرة المدرسة، ليجدا سبستيان معطيًا ظهره لهما متحدثًا بعصبية إلى أحد المدرسين، بعد أن أحرجته مدام آني أمام تلاميذه ووصفته بأنه مهرجٌ، لأنه بدلًا من أن يلقن التلاميذ موسيقى بتهوفن وموزارت واستراوش الكلاسكية، يفسد ذوقهم بأغاني حديثة ستحوّل الأطفال إلى مخنثين وهيبين. في محاولة صريحة منها لاحتقاره بشعره الطويل ومظهره الحدائي. وما إن التفت سبستيان جون بير إلى السيد دونيه الذي ناداه باسمه ليقدّم له صوفيا، حتى انفجرت التلميذة الصغيرة في البكاء وانفجر سبستيان في الضحك.

وأمام حالة الارتباك هذه التي خلفها سبستيان وصوفيا للسيد دونيه، أدرك الرجل أن دوره قد انتهى، وأنهما بالفعل يعرفان بعضهما، فخرج الرجل مبتسمًا تاركًا سبستيان يأخذ بيد صوفيا ليجلسها على مقعده الخاص ويجلس بجوارها على ركبتيه مهدئًا من روعها، بينما هي تنتحب مكررة أنها

لم تكن تقصد. بالطبع لم تكن هذه المقابلة الأولى بين سبستيان وصوفيا. حدث ذلك في ليلة السبت السابقة لهذه المقابلة المدرسية بأسبوعين، وتحديدًا بعد أن عادت صوفيا مطرودة من المدرسة بسبب مدام آني. وبعد أن حرمتها جدتي أليتا من أن تدفن رأسها في الوسادة لتبكي مخبرة إياها بأن عليها أن تقف أمامها كتمثال من الشمع لتستمع إليها وهي تعنفها، مذكِّرة إياها وباقي العائلة بأنها عاشت عمرها كله لتجعل منهم أسرة محترمة، وأنه كان عليها أن تأكل أوراق الأشجار أحيانًا في مزرعة السيد فرنسواه لتجد هي في صدرها بعضًا من الحليب. وأمام ثورة غضب جدتي أليتا، لم يستطع أحدٌ أن ينقذ أمي المسكينة من الصفعة التي هوت على وجهها والتي اهتزت لها جدران المنزل. لم تهدأ جدتي أليتا حتى سمع الجميع صوت بكاء جدي إيمانويل. فتحرك خالي بيدرو ليحتضن أخته الصغيرة قبل أن تسقط على الأرض مغشيًا عليها.

في اليوم التالي وافق الجميع على أن يصطحب ألفونسو أخته صوفيا الصغيرة إلى الحفل الذي يقيمه عمدة المدينة على شرف عريس ابنته الطبيب الباريسي. وبدون أن تبدي جدتي أليتا موافقة أو ممانعة على ذلك، بعد أن اختفت عن أنظارهم ليلة أمضتها محبوسة في الحمام، لتخرج لهم حليقة الرأس مرَّة أخرى ومشوِّهة وجهها بأظافرها، تمامًا كما خرجت لهم بعد حادثتها مع السيد فرنسواه في مزرعته، بعد أعوام حاولت أن تمحو فيها الحادثة تمامًا من ذاكرتها.

في الحفل المهر الذي أقامه العمدة، اصطفَّ الجميع ليستمعوا إلى ألفونسو الذي احتضن أكرديونه بعد أن أفرغ زجاجة نبيذ كاملة في جوفه مرَّة واحدة، وانطلق ليرقص كغزالٍ في حجم الفيل، مازجًا الموسيقى الفرنسية

بألحان أسبانية غجرية القوة والأداء، دون أن ينسى أن يوزِّع ابتسامته على حسناوات الحفل، مرتّبًا في ذهنه المشوَّش والمنتشي بفعل الخمر والموسيقى، خطط الإيقاع بكل حسناء على حدة. بينما بعيدًا، وقفت أليتا الصغيرة بجسدها النحيف الطويل، مختبئة في معطف أمها الواسع، والذي لم يجدوا لها ملابس تناسب الحفل غيره، وبعد أن رفضت أن تعطيه للخادم الأنيق الواقف بالباب، لتحتفظ به كقشرة تحتوي على رائحة أمها التي اعتادت أن تحميها دائمًا.

كان كل شيء في الحفل يجري على ما يرام، إلى اللحظة التي دخلَ فيها سبستيان جون بير الحفل، كأمير قادم مباشرة من أساطير القرون الوسطى، ملفوفًا برائحة عطره القوية، غارقًا في لباسه الأسود ومصففًا شعره الطويل بعناية للخلف. لتتجه مباشرة نحوه، أنظار كل نساء وفتيات الحفل في لحظة وقف فيها الهواء وثقلت فيها نغمات الموسيقى. وسبستيان النحيل الطويل كساحر غامض يستعد لعرض عمره، يشق طريقه، ناظرا إلى حذائه اللامع، محدِثًا ضجيج خفاش مكتوم. لتجد صوفيا الصغيرة نفسها مدفوعة بقوة لا نهائية باتجاهه، لتوقف تقدمه إلى الصالون الفرنسي العريق أمام العمدة الذي همَّ ليمد يده ويسلم عليه، فتقف صوفيا الصغيرة حائلاً بينهما، وتنظر مباشرة إلى عينيه، وترفع يدها عالية لتصفعه على وجهه. وبكل ما أوتيت من قوة تنطلق لتجري إلى بيتها، لتدفن رأسها في الوسادة وتبكي.

الآن.. وأنا أمر بشوارع ومقاهي تولوز القديمة التي أحببتها يومًا ما، حاملة ذكرياتي كصندوق موسيقى مليء بحكايات عجيبة، أقف دائمًا أمام هذه القِصَّة متذكرة فقط أنني ابنة هذه المرأة المدهشة المجنونة، متسائلة: كيف

يصنع الحُبُّ هذا الوهج الهش كخيط عنكبوت صبور وقاتل، ليجعل العشاق يتمتعون بهالة نور تدل على وجودهم كمتهمين ضالعين في البراءة، ليصبح كل شيء في عيونهم قادرًا على صنع الأساطير وخلق الدهشة. يختفي عالم الحقيقة المؤلم، ليصبح القمر حيوانهم الأليف الوفي، ليفنى الوجود في بسمات محبيهم؟.. أبكي كما بكت أمي لأن العمر قصيرٌ جدًّا، ولأنني كمجنونة أصابتني كثيرًا نوبات من التعقُّل.

## -٢٩

بالطبع لم تعرف صوفيا الصغيرة، لماذا صفعت ذلك الشاب في تلك الليلة. كما لم تعرف لماذا أراحها كل هذا البكاء الذي بكته على وسادتها حتى كادت تعصر الدموع منها. وأزاحت عن قلبها الصغير حجرًا ثقيلًا كانت تحمله من الليلة السابقة عندما صفعتها أمها. أيضًا لم تعلم كيف انفجرت الدموع من عينيها عندما رأت سبستيان جون بير للمرَّة الثانية في المدرسة. ولأول مرَّة لم تستطع أن تتحكم في عواطفها التي كانت خادمتها المطيعة. ولم تنجح كل حيل سبستيان في إيقاف نحيبها المتصل رغم حرجه الشديد من الأساتذة المتسائلين عن سبب بكاء صوفيا الصغيرة، التي لم تتوقف إلا عندما رفعت عينيها عن أرضية الغرفة لتتطلع في الوجوه المبحلقة فيها، فتكتشف غياب وجه سبستيان من دائرة الوجوه المحيطة بها فتصمت. لتقف وتتجه مباشرة إلى حوش المدرسة لتلعب مع أصدقائها وكأن شيئًا لم يكن. كان هذا هو اللقاء الثاني بين صوفيا الصغيرة وسبستيان جون بير. أمَّا اللقاء الثالث فكان في مسرح المدرسة بعد أن حضرَ إليها السيد دونيه ليخبرها بأنَّ عليها أن تقابل السيد سبستيان جون بير في المسرح في الفُسحة المدرسية، وأن عليها أن تعلم أنه لا معنى لأن تبكي عندما تراه، لأنه سامحها، وأنها لو قررت البكاء فإن عليها أن تذهب للعب مع أصدقائها، لأن السيد سبستيان لا يرغب في أطفالٍ صغار في فرقته التي هو بصدد تكوينها، لتكون أول فرقة تمثيل بالمدرسة. ورغم الإهانة الصريحة التي وجدتها أمي صوفيا في الرسالة التي بعث بها سبستيان

جون بير إلهما، إلا أنها ذهبت مدفوعة ليس فقط بحبها اللانهائي للتمثيل، بل بقوة القدر الذي سيغيّر حياتها وحياة سبستيان بلقائهما هذا ولقاءاتهما المتتالية.. وإلى الأبد.

لكن ماذا حدث لسبستيان الذي تم إحراجه أمام جمهور السهرة التي كان يتمنى أن يتم فيها تقديمه كمسرحيٍّ واعدٍ.. سبستيان المهموم بحبه لفرنسا الحديثة التي يجب أن تعيد اكتشاف نفسها، بعيدًا تمامًا عن جيل العجائز القادر على تدمير كل شيء، لأنهم غير قادرين على فهم أن الحياة تتغيَّر بعيدًا عن ثوابتهم الحجرية عن معنى الحرية والإبداع والأمل في غدٍ جديدٍ لن يكونوا فيه أبدًا. كان قلبه مليئاً بغضبٍ لا يعرف في أي اتجاهٍ يجب التخلُّص منه، بعد أن طردته باريس بمسارحها وجمهورها. ليتم تعينه في مدرسة تتمع مديرتها بصرامة الراهبات، دون أن تتعلم منهم الحب والجمال. كانت هذه مرحلة الغضب العالمي الكبير، وكان هو لا ينتمي سوى لجيله الغاضب من كل شيء. تتابعه دومًا كلمة فاشل؛ فاشل في الحب. فاشل في المسرح. فاشل حتى في فهمه لنفسه ومعرفة ماذا عليه أن يفعل بحياته. لتصفعه فتاة صغيرة بمجرَّد دخوله لحفلٍ دُعِيَ إليه مصادفة. كان يتخيل أنه لن ينتبه له فيها أحد في بيت عمدة المدينة الذي بيديه الكثير من مفاتيح الشهرة والنجاح. فشاب لا يحمل سوى شهادة في المسرح والكثير من الأحلام والأمل، لا يقارن بعشرات المدعوين الذين يتمتعون بصداقة العمدة شخصيًّا. وبعد الكثير من التردُّد استطاع أن يعبر باب بيت عمدة تولوز، غارقًا في خجله وغيمة عطره الثقيل، لتحدث المفاجأة الذهبية بصفعة فتاة صغيرة سيتذكر ملامحها بالكاد عندما تبكي أمامه خائفة بزيّها المدرسي. لتكون هذه الصفعة مفتاح تعرُّفه الشخصي على العمدة، الذي شعر بحرجٍ شديدٍ

مما حدث مع ضيفه الذي حتى لا يعرف اسمه، ليجالسه طوال السهرة ويقوم هو بتقديمه للجميع، محاوِلًا الاعتذار عن الموقف المحرج الذي حدث في سهرته. وعندما يعود سبستيان إلى بيته، شاعرًا لأول مرّة بأنه على بداية الطريق الصحيح، بعد أن تحمَّس كثيرًا عمدة تولوز لمشاريعه المسرحية، يشاهد نفسه في حُلمه يزرع الأزهار الرائعة في حديقته ويأكلها. بينما نفس الفتاة الصغيرة التي صفعته، تنظر إليه من بعيد وتضحك. فيستيقظ مبتسمًا، متمنيًا أن يقابل هذه الفتاة مرّة أخرى ليشكرها. رُبَّما لأن صفعتها اختصرت طريقًا طويلًا لم يكن يعرف كيف يسلكه ليقدِّم نفسه في المدينة الوردية تولوز، أو رُبَّما لأنها لأول مرّة يصفعه أحد فيشعر أن غضبه يتبخر رغم إحساسه بالمهانة، أو رُبَّما لأنه حلُمَ بفتاة يستطيع أن يدعوها فتاة أحلامه.

كان موضوع الرواية التي ستمثلها فرقة التمثيل المدرسية هو الصدام الثاني بين سبستيان وبين آني مديرة المدرسة، كصراعٍ دائم بين جيلين متعاقبين: جيل فرنسا الكاثوليكية الذي تمثله مدام آني الملتزمة دائمًا بوضع صليبها الذهبي الذي يكاد يصل وزنه الربع كيلو، والذي يعد إرثها الخاص من عائلتها التي ينتمي معظمها إلى الكنيسة كرهبانٍ وقسيسين وراهبات. ذلك الإرث الذي ظلت تعتقد طوال حياتها أنه كان سبب نجاحها في حياتها المهنية كمديرة لمدرسة يطمئن الآباء لإرسال أولادهم لها لتلقي علوم القرن الحديث التي لا غنى عنها لفرنسا المتعطِّشة لفرض سيطرة علومها ولغتها على العالم، ولكن تحت قيادة خادمة مخلصة لتعاليم المسيح الحقيقية كمدام آني. ذلك الولع المسيحي الذي أدمنته آني، والذي جعلها في نهاية المطاف بعد أن أُحِيلَت للمعاش تستيقظ كل صباح لتقف على باب المدرسة، تخطب في الآباء القادمين لتوصيل

أولادهم إلى المدرسة خطبتها الطويلة التي لا يسمعها أحد؛ عن النار التي صنعها الرب للآباء والأمهات الذين يتركون أبناءهم يسقطون في براثن الحضارة الجديدة المليئة بالانحلال، والتي تسمح للأطفال دون الثمانية عشر عامًا بأن يفقدن بكارتهن ببساطة تحت أعين الأسرة ومباركتها. بينما هي عاشت عمرها كله تفتخر بأنها عاشت عذراء، وبأنها ستموت عذراء كأم المسيح. حتى انتهت إلى مجنونة خرفاء وعذراء أيضًا بأحد بيوت العجزة بتولوز. أمَّا سبستيان الذي خلق المشكلة، فكان ذلك الملحد خِرّيج المدرسة الوطنية للمسرح، الذي طالما لم يجد في قِصَّة صلب المسيح وإرسال الرب لابنه ليقتله أهل الأرض فيحمل عنهم خطاياهم، إلا قِصَّة دموية خالية من أي روح للتسامح والجمال الذي يجب أن يتمتع بها الرب، الذي لم يكن يعتقد أساسًا في وجوده. ومن اليوم الأول أصبح سبستيان جون بير أمام مدام آني هو كل المجتمع الفرنسي"اللاديني والذي بدأ يفرض سيطرته وبقوة على كل مفردات الحياة اليومية الفرنسية، فقررت أن تكافح ذلك المُعلِّم الجديد الذي بحسبها ليس إلا ولدًا طائشًا مستهترًا طرده المسيح من رحمته، مؤمنة بأنه نبتة فاسدة يجب أن تجتثها قبل أن تدمِّر سمعة المدرسة. فكان الصدام الذي كاد أن يجهض فكرة فرقة التمثيل بالمدرسة هو الرواية التي ستفتح بها الفرقة موسمها وتنهي بها العام المدرسي.. قِصَّة قيام المسيح الحي، أم رائعة كارمن لبيزيه.

-٣٠

- هل يضايقك أن أناديك مباشرة سبستيان؟

أبدًا يا صوفيا، ولكن بشرط أن نتحدث كشخصين ناضجين، وأن تعديني بأن تكفِّي عن البكاء وحركاتك المجنونة.

البكاء، أستطيع أن أعدك به. فأنا لا أستطيع أن أدعى أنني ما خلقت إلا لأكون ممثلة بينما لا أستطيع أن أكف عن البكاء وقتما أشاء. أمَّا جنوني فهذا مالا أستطيع أن أعد به أبدًا.

ضحك سباستيان ووضع يديه في جيب جاكته.

- إذًا ماذا تريدين أيتها المجنونة الصغيرة.

- فقط أردت أن أسألك، لماذا لا تريد أن تمثِّل قِصَّة قيام المسيح الحي؟

- بصراحة أنا لا أجد فيها إلا خرافة يتعاطاها مدمنو التديُّن كآني. بينما كارمن شخصية مليئة بالثورة والحياة.

- وما الفرق بين العذراء وكارمن، ألم ترِد كلتاهما أن تغيِّر وجه العالم؟

- أنتِ مازلت صغيرة يا صوفيا لتفهمي ماذا يعني تغيير وجه العالم. صحيح أن كارمن رُبَّما لا يكون لها وجودٌ إلا في عقل مؤلفها، بينما مريم العذراء لا يستطيع أحدٌ أن ينكرها -على الأقل تاريخيًّا- ولكن العذراء لم تختَر. عبقرية شخصية كارمن في أنها اختارت أن ترفض. أحبت واختارت ورفضت. العالم في حاجة إلى ثائرات يرفضن أن يهبن للعالم أبناءً يمشون صامتين ليصلبوا على صليب الظلم وليصبحوا أساطيرًا وآلهة.

- إذًا أنت ترفض أن ترى فرقة التمثيل النور.

لا، أنا أرفض أن أتنازل عن مبادئي في أول اختبار حقيقي.

أنت ترفض أن تواجه يا سبستيان. ما أسهل أن ينتهي كل شيء دائمًا لأن الظروف غير مناسبة. أعذرني لأنني كنت أتوقع أنك أشجع من ذلك.

ودون أن تنتظر أن تسمع من سبستيان رده، أعطته ظهرها لتنصرف من قاعة الألعاب الرياضية التي أُعِدَت ليستخدمها فريق التمثيل. وعندما علا صوت سبستيان مناديًا باسمها، ردَّت عليه دون أن تلتفت إليه:

لقد وعدتك أن أتوقف عن البكاء، لكني لم أعد أبدًا أن أتوقف عن الجنون.

وما هي إلا أيام حتى بدأت تدريبات فرقة التمثيل تحت سياج قوى من التكتم. لكن بالطبع كان ذلك بعد موافقة مدام آني المديرة التي انتصرت إرادتها وتوقيعها على قائمة المشتريات الضرورية للملابس والديكورات. كانت مهمة سبستيان معقدة في اختيار مفردات الديكور الكنسي. وهو الشخص الذي لم يدخل الكنيسة في حياته إلا مرتين: المرَّة الأولى يوم زواج أبيه وأمه، وكان عمره وقتها خمس سنوات، ولا يتذكر من هذه الذكرى سوى صورة أمه ببطنها الممتلئ في شهرها التاسع وآلام الولادة التي أتتها على المذبح، مما استدعى أن يذهب الأب مع المدعوين إلى المستشفى لإتمام الزواج، بعد أن ترجَّاه والد سبستيان ليساعده في أن يتم وعده لوالدة سبستيان بأن الطفل القادم لن يأتي إلا وهما مرتبطان برباط الزواج الكنسي، وذكرى جدته لأبيه، تلك المرأة النحيفة القصيرة بوجهها المليء بالتجاعيد التي أمضت صبيحة هذا اليوم كله تؤكد عليه بأنه لا يجب أن يبول ببنطاله حتى لا يحرج أباه وأمه.

أما المرّة الثانية التي كان على سبستيان أن يدخل فيها الكنيسة فكانت عندما أصبح في الصف الخامس الابتدائي. وذهب مع المدرسة لزيارة كاتدرائية نوتردام دي باغي الشهيرة بباريس، ورغم أن ألوان الزجاج الرائعة في نوافذ الكاتدرائية أعجبته بشدة، إلا أن صور مسوخ برج الكاتدرائية ظلت لأشهر تؤرق أحلامه بكوابيس تسكنها وحوش وأشباح.

بالطبع هاتان المرّتان لم تكونا كافيتين ليستطيع أن يرتب أي شيء عن ديكورات مسرحيته التي تحكي قِصَّة قيام المسيح، بشكل يقنع مديرة المدرسة آني بأنه بصدد إخراج قِصَّة دينية بحتة. حتى وقع في يده مصادفة موسوعة قديمة وجدها بمكتبة المدينة تحتوي على فصل كامل عن حياة المسيح. عندها تعمَّد سبستيان أن يكتب النص الذي أعطى منه نسخة لمدام آني لتقرأها مذيَّلة بقائمة الملابس والديكورات مستخدمًا الأسماء اللاتينية لإرباكها ولإعطائها انطباعًا قويًّا بالجدية.

ورغم ذلك كاد مشروع المسرحية كلها ينتهي إلى العدم، عندما أرادت مدام آني أن تحضر بنفسها بروفات المسرحية لتضع لمساتها الإيمانية على حركات الأطفال الذين لا تثق أنه قد تم تعميدهم جميعًا. خاصة وأن منهم من يُشَك في إيمانهم وليسوا من أصولٍ فرنسية، كصوفيا الأسبانية. لكنها أمام نوبة غضب سبستيان الجنونية وتدخُّل الأستاذ دونيه مدرس الرياضيات وآخرين، انسحبت آني من البروفات مقسِمة لسبستيان بأنها ستقطع رأسه إن لم تأتِ المسرحية مطابقة تمامًا لتعاليم الكنيسة.

في صبيحة يوم العرض المسرحي لم تخفِّف نسمات اليوم الربيعي المشمس، حالة التوتر التي انتشرت في المدرسة، فرغم أن الساعة قاربت الحادية عشرة، لم تحضر مدام آني، وهي المعروف عنها أنها أول من يأتي إلى المدرسة صباحًا. بينما الفرقة المسرحية تستعد في غرفة تغيير الملابس بالصالة الرياضية، وأسر الطلبة تتوافد على المدرسة بملابس يوم الأحد الكنسية المهندمة. وبدأت الهمهمات في غرفة المدرسين انتظارًا للمسرحية. بين منتظر لعرض مغاير ومتحد وصادم لآني، التي لم يكن يحبها المدرسون الأصغر سنًا مع عدم قدرتهم إلا على احترام مكانتها كمديرة للمدرسة، وبين الجيل الأكبر سنًا والذي يبدي إعجابه بإدارة آني الحديدية التي استطاعت أن تكسر رغبة سبستيان المتمرد على القيم التي شبوا عليها.

أما سبستيان الذي لم يرَه أحد، فقد حبس نفسه مع أطفاله يتأكد من ملابسهم وحفظهم للأدوار وقدرتهم على مواجهة الجمهور. وبعد أن انتهى من كل شيء، اتجه إلى صوفيا ليمسك يدها بكلتا يديه ناظرًا في عينيها قائلاً:

شكرًا جزيلًا يا صغيرتي، لولاكِ لما كنت أنتظر الآن عرضي المسرحي الأول. تذكري يا صوفيا أن ما اتفقنا عليه كان قرارنا معًا، وأنني سوف أتحمل عواقبه كلها حتى النهاية. فلا تترددي ولا تشعري بوجود الجمهور، فقط استمتعي بذلك الألم النبيل والكبرياء الذي طالما رأيته في عينيك.

- بل أنا التي تشكرك يا سبستيان، ولكن من فضلك كف عن أن تعاملني كطفلة.

ليبتسم سبستيان ويقبِّل رأسها ويذهب ليلقي نظرة على المسرح والجمهور فيكتشف المصيبة التي أعدتها له آني.

حضرت آني متشحة تمامًا بالسواد وواضعة غطاء على شعرها كالذي تضعه الراهبات، بينما صليبها الذهبي الكبير بسلسلته الطويلة يتدلى إلى خصرها. يتبعها خمسة من القساوسة بلباسهم الكنسي. يتقدمهم الأب أدوار راعي كتدرائية سان سيرناه، المشهور بقوته الخطابية وعدائه الشديد لمفاسد المجتمع المدني المنحل. ليجلسوا بالصف الأول الذي تُرك شاغرًا بناءً على أوامر المديرة لتسكبت آني همهمات الحضور بإشارة واحدة من يدها.

سيداتي سادتي، أرحب بكم في حفل نهاية عامنا الدراسي الذي بذلت إدارة المدرسة كل جهدها لتخدم فيه أبناءكم وبناتكم، متمنية أن يصبحوا يومًا رجالاً ونساءً صالحين، يقدمون للجمهورية الفرنسية مجهوداتهم، فيكرسوا حياتهم لقيم العدل والمساواة والإخاء.. فلنشكر الرب العظيم في ملكوته على أنه أعطانا القدرة على أن نكون خُدَّامًا مطيعين له. أرحب بحرارة معكم ومن كل قلبي بالآباء الأفاضل الذين شرفوا مدرستي، وعلى رأسهم الأب العظيم أدوار الذي حلت علينا بركة حضوره هو والآباء. نقدم لكم مسرحية قِصَّة قيام المسيح الحي التي طال انتظاركم لتروا أطفالنا الأحباء يمثلونها.

كان من الممكن جدًّا أن تمر الأمور كلها على ما يرام. كان ممكنًا أن تنتهي المسرحية بشكل يرضي الجميع وخاصة مدام آني والقساوسة الذين حضروا معها، لو لم يضع سبستيان وصوفيا تلك النهاية التي أشعلت النار.

سارت القِصَّة تمامًا كالقِصَّة المعروفة للملايين، حتى إن آني لم تكف عن الصلاة للرب طوال العرض. إلى اللحظة التي ظهر فيها سبستيان مكان

الطفل الذي مثَّل المسيح، حاملًا الصليب على ظهره مؤديًا دوره. لتقوم صوفيا التي لعبت دور العذراء بجدارة، لتمسح عنه دموعه ودماءه المتساقطة من يديه بفعل مسامير الصلب المقدسة:

- أهي إذًا النهاية يا ولدي الحبيب؟

- إنها ذنوب البشر جميعًا يا أمي.

- وأي عدلٍ في أن تحمل خطايا كل هؤلاء المجانين والتعساء يا يسوع.

إنه اختبار الرب. ألم تكوني دائمًا المؤمنة التي علمتني أن أدير خدي الأيسر لمن يضربني على خدي الأيمن.

أمِن الحكمة يا بني أن تكفِّر عن ذنوب من يريدون أن يقتلوك لتثكلني بموتك.

- إنها إرادة الإله يا مريم العذراء.

- ومن أخبرك بذلك يا يسوع؟

- هذا ما سيخبرنا به الكتاب المقدَّس إلى نهاية العالم يا أمي.

اِنزل من على صليبك يا يسوع، فلا أستحق كلمة أم إذا تركتك تموت ذليلًا مقهورًا على صليبك الذي ما هو إلا قطعة بائسة سيقدسها الملايين إلى الأبد.

- ولكن الأناجيل كلها لم تخبرنا بذلك يا حبيبتي وأمي.

من كتبوا الأناجيل لم يكن لهم قلب أمٍّ مثلي، ولم يكن لهم أولاد يسوقونهم للموت على صليب واضعين أكاليل الشوك على رؤوسهم.

- وذنوب البشر إلى يوم القيامة؟

- ذنوب البشر يحملها البشر لا ابني الذي أهداه لي الإله من العدم. عندما بعثك ربك، أرسلك لتعلمهم أن يسامحوا ويحبوا أنفسهم، لا ليستمتعوا بذنوبهم ليفديهم دم ابني الذي مات مقهورًا على صليب من الخشب.

وعندها قامت العذراء أو صوفيا لتنتزع المسامير وأكاليل الشوك من على رأس سبستيان المسيح لتنغلق الستار وسط تصفيق العشرات الذين أذهلهم العرض. لتهرول مدام آني خلف الآباء الذين خرجوا من صالة المسرح غاضبين، بينما سبستيان يهمس في أذن صوفيا الصغيرة.

"أُحِبُّكِ أيتها المجنونة"

## ٣١- منصور

بكثير من التردد، وقفت أمام باب جيراني بالدور الأول. كان السعيد هو من لفت نظري لإيجار شقتي المتأخِّر. كان باب شقتهم مفتوحًا كالعادة. بحثت عن ياسمين الصغيرة بنظرة سريعة إلى الداخل فلم أجدها. الصالة الضيقة مكتظة تمامًا بالعفش القديم، بينما سيدة عجوز تجلس على الكنبة تشاهد التلفزيون. عدت بنظرى باحثًا عن زِر لجرس الباب، فوجدته مطموسًا يغطيه التراب تمامًا، فسَّر ذلك عدم خروج أي صوت عندما ضغطت عليه، فالجرس معطل رُبَّما منذ سنوات. أعتقد أن أهل البيت لا يستخدمونه أبدًا، فبابهم دائمًا مفتوح هكذا، ومَن أراد أهل الدار ينادي عليهم من أمام باب الشقة. لم أدرِ ماذا عليَّ أن أفعل. كنت عقدت العزم على أن أعطي المظروف الذي يحتوي النقود لياسمين الصغيرة وأهرب، محاوِلًا تجنُّب مقابلة السيدة التي لثمت يدي معتذرة وباكية. قررت أن أصعد منتظرًا فرصة أخرى سانحة، لكني وعند صعودي السلالم الأولى صوب شقتي، سمعت صوتًا أنثويًا يناديني من داخل الشقة:

- يادكتور ناصر.. يادكتور ناصر.. أدخل.

أعادني الصوت إلى باب الشقة مرَّة أخرى، ليتابع الصوت دعوتي للدخول:

أدخل يادكتور.. هو انت غريب.. لحظة هغيَّر هدومي واجيلك.

دخلت من الباب وجلست مقابلًا للسيدة العجوز والحرج يربكني. والسيدة العجوز التي اكتشفتني بعد لحظات، حوَّلت نظرها نحوي تتفحصني، لتعتدل في جلستها، وتعيد ترتيب طرحتها حول وجهها وتبتسم:

- خير يا أستاذ.. فرح ولا طهور؟

يدهشني سؤالها. فأردُّ:

لا يا حاجة، أنا ناصر جاركم اللي فوق، كنت جايبلكم الإيجار. معلش بقى اتأخرت شويتين أصلي كنت مسافر.

والعجوز التي ينمُّ وجهها عن بقايا جمال مبهر، تعاود الابتسام وهز رأسها، لكن يبدو لي أنها لم تفهم كلامي.

على العموم مبروك. بس يا اخويا أنا باخد أجرتي أنا والآلاتية مقدم. ومَبخدش أقل من تلاته جنيه في الليلة. استنى البت الصغيرة هتيجي تفهمك على كل حاجة.

لتتركني وتعاود مشاهدة التليفزيون. شقتهم صغيرة مثل شقتى تمامًا، لكنها تبدو أكثر ازدحامًا بالكثير من العفش القديم. كل شيء فيها متهالك أو يكاد، باستثناء خزانة مليئة بالعديد من الآلات الموسيقية التي تلمع وكأنها في فاترينة العرض بأحد المحال. على الجدار عشرات الصور وقصاصات الجرائد، جميعها تقريبًا لنفس السيدة ببذلة الرقص. في واحدة منها تقف السيدة متوسطة فريد الأطرش وسامية جمال. صورة أخرى لها مع استيفان روستي واضعًا يده على كتفها بينما هي تنظر إلى وجهه بابتسامة واسعة.

شعرت بيد تلمس كتفي من الخلف. انتقضت من المفاجأة. فانسحبت اليد بسرعة. التفت فوجدتها أم ياسمين. اسمها «وردة» كما سأسمع أمها

تناديها. وجهها مازالت تعتليه حمرة الخجل والاعتذار من شيء لا أعرفه. (وإن كان مجرَّد رؤيته تجعل دقات قلبي تتسارع)، لكن هذه المرَّة وجهها تنيره ابتسامة ساحرة. الشبه بينها وبين صور أمها لا يمكن أن تخطئه عين. ترتدي جلبابًا أزرق غامقًا يبيّن بياض صدرها الشهي، مفتوحًا حتى مفرق ثديها الثريين بفتنة. تنظر مباشرة إلى عيني وتمد يدها البضة اللينة، فأستقبلها بين يدي، تسرى في جسدي رعشة سريعة، فتسحبني من يدي التي رفضت أن تتركها لتجلسني بجوارها على الكنبة، فأتحدث إليها متلعثمًا محاولًا الهروب من نظراتها. أسحب يدي باحثًا عن المظروف الذي به النقود وأمده لها.

- الإيجار.

تأخذ المظروف لتضعه بجوارها دون أن تبدي أية بادرة اهتمام بما يحتوي، وترد:

- طيب مش نشرب الشاي الأول.

- معلش أصل أنا مستعجل شوية. مرَّة تانية إن شاء الله.

أَهُم واقفًا، فتقف وقد بدا عليها الضيق من قيامي، فيخرج صوتها مبحوحًا:

- هو انت فعلًا رجعت ومش فاكر حاجة زي الناس ما بتقول؟

نزلَ عليَّ السؤال كجردل ماء مثلج، وشعرت بغضبٍ شديد. فاتجهت نحو الباب دون أن أرد على سؤالها، وعبرته سريعًا متجهًا نحو شقتي.

عندما أمسك صورتي مع أماندا الفرنسية التي كتبت لي أنَّ حبنا سيستمر إلى الأبد، أتساءل: لماذا كان وجهي يبدو حزينًا، ولماذا تولوز مدينة وردية؟ يعجبني أن المدينة التي عرفتك فيها كانت وردية.. مَن الذي يعطي للمدن أسماءها الملوَّنة؟ بالتأكيد في هذا العالم الواسع الكثير من المدن البيضاء والخضراء، لكن الوردي لون عشق الطفلات البريء، لون حائر بين الأحمر الدموي القاتل والأبيض المنتسب إلى عالم الملائكة، لون محايد قلِق لا يريد أن يهرب إلى أحد ضفتي الوضوح السخيف. في الصورة أماندا ترتدي الوردي وكأنها تحاول تأكيد انتمائها إلى عالم الأزهار. وأنا ملامح وجهي حزينة لأثبت أنني أنتمي إلى عالمٍ أبعد. لو كان في الإمكان للوَّنتُ وجهكِ بالوردي الذي يعيدك إلى مكانك كزهرة، ولونت ملامح وجهي بالأزرق البحري، وأصبحت أنا البحر الواسع، أصنع أمواجي وأهدر غاضبًا من كل شيء. لكني لن أخيف بحَّارة تنتظرهم سيدات جميلات مثلك. سأصنع دوّامات صغيرة وأجعل الأصداف تتراقص فيها. رُبَّما لأن الرقص هو الشيء الوحيد الذي لم يصاحبني. لأن وجهي بجوار وجهك المنتشي بالسعادة....حزين. لو كان في الإمكان أيضًا لاستبدلتكِ في صورتنا بصورة السيدة المصرية التي تعتذر دائمًا عندما تراني. فأنا أنتمي إلى مدينة يجب أن تعتذر دومًا. تُرى ما لون المدن التي يجب أن تعتذر؟! رُبَّما مدينة زرقاء لا يجب عليَّ التحول فيها إلى بحرٍ غاضب، لأن غضبها الأزرق أكثر قوة من غضب بحر لن يخيف بحَّارة تنتظرهم نساء وأطفال...فقط لو كان في الإمكان، لابتسمت بجوارك وتحوَّل لون وجهي للوردي، ككل شيء في مدينتك الوردية...وكنَّا صنعنا حكاية حُبّنا الخالدة في عالم لا تسكنه سوى قصص وردية حائرة كلونها؛ بين الأحمر الدموي القاتل والأبيض المنتسب دومًا لعالم الملائكة.

## -٣٢

"لماذا تريد النبش في قبور الموتى يا ولدي؟ ألا يكفيك ما علَّمَته لك الحياة وتناسيته؟ محظوظ أنت لأنك تعيش مولدك مرَّتين؛ ميلادك يوم أن وهبتك أمك للحياة، وميلاد آخر يوم أن عادت ذاكرتك بيضاء بلا مرارة التذكُّر. فقدان الذاكرة هبة لا يستحقها إلا المتفردون جدًّا، فلماذا لا تفرح بحياة جديدة، بلا ذكريات ستحمل لك دائمًا طعم الحسرة على ما فاتك، بلا تلك المرارة التي تدمي الحلق على أحباب لن تقابلهم ثانية أبدًا، أحضان فارقتك إلى الأبد، وأماكن لم تعد موجودة إلا في خيالك.

هكذا تكلم الحاج أحمد القفاص بحكمة سنواته الثمانين. كان مازال سؤالي عن المسافرين إلى فرنسا من عائلتي، شوكة عالقة في حلقي. فالإنسان بلا تاريخ عائلي جسدٌ كسيح يمشي بلا أقدام، تمثال لا ظِل له، صورة حقيرة تطوى في كتابٍ مَنسي. ذلك الضياع الأسري أشعرني بأنني مجرَّد لقيط الزمن. معجزات جدي لا تستطيع مداواتي، ولا صورة حبيبتي الفرنسية تفهّمني مَن أكون. وأمام إلحاحي عليه أكمل حديثه. فهو الرجل الوحيد الذي يحمل أسرار الحارة غائرة في قلبه كأخاديد من العُمرِ والشقاء.

السفر سمة عائلتكم تجري بها دماؤكم يا ولدي. قدركم الذي تهربون إليه. نداء الغواية وفاكهتكم المحرَّمة. سفر لم يعرف من بلاد الله الواسعة إلا بلدًا وحيدًا، وكأنكم مجاذيبه. فرنسا التي ورطتكم الجدة في

حُبِّها، فصارت الحُلمَ، سافر إليها الجميع، وعادوا كلهم مثلك: أشخاص تعيد الحياة ولادتهم كأنهم لم يكونوا أبدًا.

الحكاية أقدم كثيرًا من جدك الذي كان نديمي وصديق عمري. الحكاية بدأت مع جدتكم «زبيدة بنت شيخ العرب محمد البواب» رحمة الله على الجميع. وإن كنت لا تتذكر، فدعني أروي لك تاريخك كما أحب أن تعرفه. فسلسال أصلك ينتمي إلى «سليمان مراد»، الابن الأكبر الذي رُزِقَ به الفرنسي «جاك مينو» القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر، أو عبد الله جاك مينو كما كان يحب أن يناديه أسياد رشيد وحرافيشها، زوج جدتك زبيدة، الذي أعلن إسلامه فقط كي يتزوجها. وعندما أنجب منها الولد، سمّاه سليمان على اسم سليمان الحلبي، قاتل قائده الذي لم يكره أحدًا مثله، كليبر خليفة نابليون في حُكم مصر. الأصل في كل الحكاية يرجع إليها، يا بن زبيدة التي لم تعرف مصر امرأة في شجاعتها.

ورغم كل ما قالوه عنها، ستبقى حفيد المرأة التي وهبت حياتها للحب في زمنٍ لم يكن للمرأة حق حتى في الوجود. حواء المصرية التي ارتكبت جريمة اختيار الرجل الذي ستعيش معه، حتى ولو كان ذلك القائد الفرنسي الذي أتى ليحتل بلادها، عدو أبيها الذي جهز القبائل لطرده من بر مصر. فكان طردها من جنة الحُلمِ والبراءة إلى أرض الحياة بقسوتها، ليرث جميع أحفادها إرث الحلم بالعودة.

ومع مينو الفرنسي، أسكرت زبيدة متعة الحياة كإنسانة، فقررت أن تعيش كما يجب أن تعيش. وفي الوقت الذي كانت المصريات لا تجالسن أزواجهن أبدًا على طاولة الطعام، عاملها الفرنسي كأميرة، فاستمتعت بالحب وباقات الزهور على فراشها الحريري، سمعت عبارات الحب

الفرنسية مترجمة بعربية مضحكة، واستحمت بالعطور والصابون المحمولين خصيصا للقائد الفرنسي، من الإمبراطورية التي تجوب بواخرها العالم. كانت زبيدة الدمية اللطيفة، شهرزاد المصرية التي تفهّم القائد الفرنسي كيف يتعامل مع الشعب الذي يحاول أن يكسب وده، لم يكن مينو بالنسبة لها سوى عاشقٍ مضحك، لحوح وطفولي. ورغم أن الأخبار التي تأتيها من هنا أو هناك عن الحملات التي يشنها أبوها الشيخ محمد البواب على زوجها ورجال الحملة الفرنسية، كانت تزعجها، إلا أنها كانت تتمنى فقط أن تحدِّث أباها عن زوجها؛ لتخبره كم أن هذا الفرنسي لطيف ومضحك، لكن فورة العشق واكتشاف عالمها الجديد جعلاها تدمن تجاهل أخبار كهذه. كان الجنين الفرنسي الأب الذي يتكون في أحشائها، علامة كاملة على إمكانية التعايش بين الشعبين، فقررت أن تسامح أباها كما سامحت نفسها. على الأقل إلى أن اكتشفت بعد سنوات، كيف يكون الفرنسيون لطافًا جدًّا عندما يرغبون فقط في شيءٍ ما. فبعد أن انتهت الحملة الفرنسية على مصر، ذهبت مع زوجها إلى مرسيليا.

وهناك اكتشفت الوجه الآخر للحقيقة، فالبيوت الواسعة الجميلة والشوارع التي تزينها الحدائق المزهرة دومًا لا تعني أبدًا السعادة، خاصة وأن شهريارها لم يعد يهتم بقصصها عن مصر والمصريين. مات عبد الله جاك مينو العاشق لها ولكل ماهو مصري، وعاد جاك مينو آخر إلى الحياة؛ فرنسي حقيقي بلا محاولات متمصرة لإغوائها، واكتشفت بسهولة أن حفلات الشاي التي أعدها زوجها لتقديمها لمجتمعها الفرنسي الجديد، لم تكن سوى مناسبات لتقديم تحفة نادرة ومختلفة إلى مجتمع يعشق جمع التذكارات من تراب إمبراطوريته المترامية؛ ليؤكد لنفسه تميُّزه على

الجميع. كان مينو يسهر على تزينها بملابسها الشرقية المطرزة، يضع لها الكحل في عينيها بنفسه ويضمخ شعرها بالحناء حتى تبدو وكأنها خارجة للتو من صفحات كتاب وصف مصر، ليؤكد لضيوفه مهارة رجال حملته في تسجيل الواقع. ورغم كل شيء، احتملت مرارة العرض المتكررة، كتمثالٍ شمعي لا قدرة له إلا على الابتسام. حتى ملَّ الفرنسيون من الدمية المصرية، تمامًا كما ملَّها مينو كامرأة وحبيبة.

وفى مرارة الوحدة والاغتراب، واجهت زبيدة بشجاعة قدرها الذي اختارته.

عرفت كيف تعامل فرنسا امرأة شرقية مطرودة إلى الشارع، لأنها أصبحت مملة وغير لائقة بقائد فرنسي. باعت الزهور على المقاهي. سكنت في بيت سيدة عجوز ثرثارة ومجنونة لتحتمي بجدرانه من الشارع وعارها الشخصي. رُبَّما حتى أنها أدمنت الخمور وأصبحت تقتات من بيوت الهوى، ولكنها رغم كل شيء، كانت الحرة بنت جدك محمد البواب الذي أقام له المصريون مقامًا قُرب قوص في الصعيد.. البطل الذي ظَلَّ يحارب المحتل حتى مماته، فاعتبره البسطاء من أولياء الله الصالحين. لقد رفضت زبيدة أن تكون عبدة مينو المحتال، وأورثتكم جميعًا مسئولية العودة للأخذ بثأرها من فرنسا التي أحبتها وغدرت بها، تمامًا كما ستحبونها جميعًا وستغدر بكم جميعًا.

لا أحد يعرف كيف ماتت جدتك زبيدة وأين في أرض مصر الواسعة، لكننا نعرف أنها علَّمت أولادها أن الحياة حرب، لا تنتهي فيها المعركة بموت جندي واحد، وأن استعادة النصر ممكنة، طالما أن في الجسد قلب لا ينسى. ومع كل حكاياتها المريرة عن الرجل التي ظلت إلى رحيلها الأخير تتحدث عنه كزوج وحبيب، تعلم الأبناء والأحفاد أن فرنسا كانت الجنة

التي طُرِدَت منها لذنب لا تفهمه، فأحبَّ الجميع الشوارع النظيفة وبساتين الأزهار والعصافير التي تطير حرة في سماء فرنسا الحُلم المزعج، واستعد الجميع للطيران في فضاء الموسيقى والطعام الفرنسي اللذيذ. وقبل ذلك كله، محاولة إعادة تجربة الجدة في معاشرة ذلك الجنس البشري الذي لا يمكن فهمه أبدًا.. الفرنسين.

## -٣٣

هكذا وجدتك عند باب شقتي؛ متوترة كمن تقدِّم روحها قربانًا للآلهة، فاتنة وندية كفاكهة تتحضر للحصاد. جميلة أنتِ يا وردة كاسمك، تبتسمين لي بخجل، فيحيط بوجهك هالة تضيء المكان. أخاف لمسك فتتهشم روحك الرقيقة، لكني ألمسك لأنني ذلك الأحمق الذي أدمن تكرار أخطائه، فتسري في يدي رعشة تحوِّلني إلى ناسك ومجنون بحبِّكِ، يصدر جسدك موسيقاه التي تُسكِر العالم، فتشتعل في دمائي حمى الأساطير السعيدة، يرقص قلبي على إيقاع موسيقى أنفاسك. أعيد اكتشاف ملامحك كطفل تُضحِكه رؤية البحر لأول مرَّة، فترتبك روحي فرِحة لتحقق وجودك. روحي التي ستصاحبها المرارة لأنك أصبحتِ حُلمًا متحققًا، لن أستطيع العودة لأحلُم به مرَّة أخرى.

هكذا يا وردة تمنيت أن أكتب عن لقائنا الحميمي الأول؛ لأضفي على قصتنا الرومانسية التي طالما حلُمت بها، وأجعلك ملكة الجمال التي دوخني الشوق لها. لولا أنك بنت واقع حارة «أبو السُّبَح».. واقع الحقيقة التي أحاول تجميلها.. بعيدة تمامًا عن سذاجتي التي رُبَّما اكتسبتها من العيش في تولوز التي لا أتذكر عنها غير لونها الوردي.

و بينما كان صوت سيد مكاوي ينساب من المذياع مستحلفًا حبيبه بأن يريح قلبه ويخبره بأن الصبر تعب بينهما، كان ذهني غارقا تمامًا في استعادة مشاهد حياة جدتي زبيدة، التي أدهشني أحمد القفاص بها، ساخرًا من كوني حفيد امرأة انتهت الحياة بها مدمنة للخمور وبنت ليل،

رغم كل الخصائص الحميدة التي حاول الرجل أن يجمِّل بها القِصَّة الموجعة؛ ليخرجني جرس الباب المزعج من محاولة إيجاد الأعذار لجدتي. كنت قد فكرت مرارًا أن أغيِّر هذا الجرس اللعين، ولكني كسَّلتُ كعادتي. لأفتح الباب فأجدك تحملين صينية طعام تغطينها بقطعة قماش مرتدية قميص نوم يكشف عن نصف صدرك، تفوح منك رائحة عطر مبهج ونفَّاذ، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهك المرسوم بمساحيق مبالغ فيها، لا أعلم لماذا جعلت رؤيتك الآن على هذه الصورة، قلبي ينقبض وتسري رعشة خفيفة في جسدي، رغم أنني اعتدت مؤخرًا على رؤيتك، وربما بنفس قميص النوم. مارة في الشارع أو جالسة أمام باب شقتكم في ساعة العصاري. تصنع كل مقابلة لي معك إرباكًا لنا لا أعرف له معنى. ودون أن تنتظري دعوتي لكِ بالدخول، دخلت مباشرة إلى الشقة وأغلقت الباب بسرعة، لتضعي الطعام على الطاولة، بينما أنا واقفٌ في مكاني أواصل اندهاشي من تصرُّفك، لتنظري لي نظرة متعجبة لا تخلو من دلال ويرتفع صوتك:

- في إيه يا ناصر، هو انت لا سمح الله شفت عفريت ولا حاجة..

- العفو يا ست وردة، خطوة عزيزة.

لتضحكي ضحكتك الخليعة التي سأتذكرها باقي حياتي كأكثر ضحكة مبهجة أحتفظ بها في مخيلتي.

- إيه حكاية ست وردة اللي طالعلي فيها دي يا اخويا من يوم ما رجعت، إشحال ما كنتش أكبر منك بثلاث سنين عُمي.

وفجأة تنقضين عليَّ لتعتصريني بين أحضانكِ، وتضعين شفتيك على فمي حتى أشعر أني سأختنق، فيبدأ جسدي في التشنُّج والارتعاش، فتتوقفين مذهولة من رد فعلي، ليعود صوتك في حنق:

في إيه يا ناصر، أنا قاعدة أقول هيرجع لعقله يا بت، وانت ولا هنا، وقال جايبلي مئتين وخمسين جنيه إيجار ثلاث سنين، إيجار إيه يا مغفل اللي هَطلبه منك.

وبدلًا من أن تغضبي يا وردة، وتتركيني أفيق من مفاجأة جسدك الذي تهدينه لي، تنقضين علي مرَّة ثانية، لتطرحيني أرضًا وتنزعين عنِّي ملابسي كطفلٍ يبن يدي أمه، تتخلصين من قميص نومك بحركة ساحرة، أدهشني فيها قدرة جسمك الممتلئ على الإتيان بمثلها، كنت أتمنى أن أقول إنني قاومت بعنفٍ ماضيَّ المتورط معك، أنا الطبيب المثقف حفيد أولياء الله الصالحين، وأني استطعت أن أهزم هذا الجسد الأنثوي المتأهب لابتلاعي، كنت أتمنى حتى أن أقول إنك اغتصبتيني كما فعلت معي المرأة التي تشهك في بيت العجوز العرجاء، وأنني على الأقل لم أستمتع بترك نفسي بين يديك كرجل محترم ينهزم أمام امرأة لا تليق به، لكني أدهشت نفسي بتجاوبي المحموم معك على أرضية شقتي العارية. أصابعي النحيفة تتحسس جسدكِ البض المتوتر كأصابع نحَّات يصنع تمثال عمره. ولوجي وهروبي ومناورتي والعودة للهجوم، أرتني في نفسي ذلك الآخر الذي لا أتذكره، والذي بدأ يعود لي رويدًا رويدًا، حتى لو أصررت على إنكاره، مع يقيني بأنه قريب جدًّا مِنِّي، موجود دائمًا في أعين المحيطين بي، رافضًا إياه وهاربًا منه إلى ذاكرتي البيضاء. الغريب يا وردتي أننا فعلناها بذلك التناغم، بلا سذاجة وأخطاء اللقاءات الأولى، والأغرب

أننا ونحن في قمتنا، طفقت في عينيك الدموع، فتطابقت صورتها مع عيني المرأة التي اغتصبتني مرتدية النقاب.

وبينما أدخِّن سيجارتي، متكومًا على نفسي فوق الأريكة، أنظر إلى جسدك البض الملقى على الأرض بلا حركة، عاد صوتك يحدثني بدلال:

- يخرب عقلك يا ناصر.... والله زمان.

تقومين وتخطفين السيجارة من يدي، تأخذين نفَسًا طويلًا، تعيدين إطلاق دخانه في وجهي، وتعود ضحكتك الخليعة الرائعة، لتقبليني بين عيني، ويعود صوتك المبحوح من الفرحة وأنت تتجهين إلى الحمام قائلة:

حمد الله على السلامة يا دكتور، بس إيه رأيك في القلم إلى ادتهولك عند زينب العارجة. هعملك إيه.. كنت فاكرة إني معنتش قد المقام، وإنك عمرك ما هترجعلي.

بينما أنا أتابع مؤخرتكِ العظيمة المتجهة إلى الحمام، فأبتسم وأعود لأطل من الشباك على الحارة، أتابع مباراة الكرة الشراب، محاوِلًا أن أجد لجدتي زبيدة الأعذار.

## ٣٤- أماندا

انتهت الضجة التي صنعتْها مسرحية نهاية العام، تاركة حقيقة واحدة، هي: أن سبستيان وصوفيا أصبحا عاشقين. أمي صوفيا التي أنهت بالكاد عامها الخامس عشر والتي لها جسد غلام نحيف، وسبستيان الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا أخرى، تلك العلاقة التي كان بالطبع سيرفضها أشد المتدينين بقيم الحرية في وقتها، كان واضحًا جدًّا لكليهما العقوبة التي قد ينالاها لو علم أحد بالأمر؛ فاستمتعا بنبضات الحب المجنونة في شقة سبستيان التي لم تكن أكثر من مغارة صغيرة يسكنها فنان مجنون يحب الحياة، في أحد العمارات المليئة بالشقق على الطراز الأمريكي، والتي تطل على نهر الجارون.

ومع سبستيان امتصت أمي الفكر الماركسي وأسئلة الوجودية المقلِقة، وتعلمت متعة حياة التشرُّد والسهر، واستطاعت خلال أشهر الصيف القليلة أن تكوِّن مع سبستيان فرقة من فِرَق فن التمثيل بالشارع، مستفيدة من ذكائها الحاد والإجازة المدرسية والدعم المعنوي الدائم الذي كان يقدمه لها جدي ليعوضها عن سنوات غيابه. ورغم أن التغيرات التي طرأت عليها بعد علاقتها مع سبستيان كادت تكشف الضياع الذي وصلت إليه بسهولة، إلا أن القدر قد تحالف معها لتنتهي النهاية التي لا يمكن لأحد أن يتوقعها.

وسريعًا أتت الليلة التي بدأ وانتهى فيها كل شيء. عادت صوفيا هذه الليلة إلى المنزل سكرانة تمامًا وبحالة مزاجية رائعة، وأطلقت لسانها

يحكي أمام ذهول الأسرة بأكملها. حكت عن سبستيان وأوضاع الحب البهلوانية، التمثيل وديانة عبادة الجسد، تكلمت أيضًا بكثير من الحسرة عن أبيها الساذج الذي حارب في قضية لا يعرف ما هي، وأمها حليقة الرأس الصارمة التي عاقبت أباها على تركها قريتها بأسبانيا؛ لتعيش معه صلعاء. وبكثير من الدموع تحدثت عن ضياعها وإحساسها الدائم بالغربة والخوف. وبدلاً من أن تحتضنها جدتي أليتا، حملتها بيدها كجرذ بعد أن تقيأت في وجه الجميع أمعاءَها، لتلقيها أمام البيت ككيس من القمامة، لتفتح الباب في الصباح فلا تجدها إلا بعد عشر سنوات كاملة وأنا طفلة صغيرة على يدها. فما كان من جدتي المسكينة يومها إلا أن صاحت "يا يسوع المسيح" وتلقفتني من يدها قبل أن تسقط على الأرض.

الأيام القليلة التالية التي عاشتها أمي العائدة إلى بيت جدي وجدتي، كانت كافية بأن تخبرهم بما فعلته تلك السنوات العشر التي أمضتها أمي مرتحلة مع ممثلي الشوارع والمتسولين والهيبين وحتى المجانين؛ محتمية من برد الشتاء بالكحول الرخيص والمخدرات حتى عادت كشبح. وخلال تلك السنوات تعرفت أمي على عشرات الرجال بعد أن تركها سبستيان خائفًا من محاكمته بتهمة إغواء قاصر، كما هدده خالي بيدرو الذي بدأ يتخذ طريقه في عالم المحاماة، فهرب سبستيان إلى قرية صغيرة على المحيط، تاركًا التدريس وأحلام الفن والمسرح، ممسوسًا بلعنة صوفيا الصغيرة التي لم يستطع أن ينسى حبها أبدًا.

وفي محاولة لإعادة أمي صوفيا إلى الحياة، اجتهدت جدتي مستخدمة كل عنادها مع الدنيا في تجربة ما تعلمته من تراث جداتها وخبرتها في ابتكار طرق قد تعيد الدماء إلى الوجه الشاحب. أجبرتها على شرب القرفة

والقرنفل المحلَّى بالعسل عشرات المرَّات في اليوم الواحد. عطرت الغرفة بالبخور الهندي لطرد الأرواح الشريرة، حتى كادت أن تخنقها. جلست على ركبتيها أمام الصليب ليالي كاملة حتى أصابت قدميها القروح. صلت للعذراء وبكت حتى عصرت الدموع من ملابسها. عزف لها جدي إيمانويل كل الفالسات المبهجة التي عرفها وهو يبكي من الألم وعقدة شعوره بالذنب. رقص لها خالاي بيدرو وألفونسو حتى الإعياء. حتى إنهم بعثوا برسالة إلى روز الجميلة في الدير لتحضر حالًا لعلمهم كم كانت صوفيا تحبها، ولكن الدمار الذي لحق بروحها كان أكبر كثيرًا من الذي لحق بجسدها الهزيل، فلم يبقَ لديها أية رغبة في البقاء في تلك الحياة التي خبرتها على حقيقتها في سنوات الضياع. فماتت أمي كزهرة ذابلة لم تُبقِ فيها الحياة أيًّا من رائحتها.

في القداس الحزين، ألبسوها نفس فستانها القصير الذي كانت تحبه كثيرًا عندما كانت طفلة ذات خمسة عشر ربيعًا قبل أن تختفي من البيت. فكان لها ابتسامتها الشاحبة على وجهها الميت، تلك الابتسامة التي أبكت الجميع، خاصة روز الجميلة، التي خلعت لباس الراهبات، حابسة نفسها في حجرة أمي صوفيا الصغيرة، محتضنة لعبتها التي كانت تتصارع معها عليها، ماصة إصبعها الكبير ناظرة في الفراغ.

## -٣٥

كان الجنون الذي أصابنا أكبر كثيرًا منها ومِنّي. أصبحت حياتها نوبات متتالية من الغرق في بئر الكحول الذي أدمنته، يعقبها لحظات ندم حقيقية يظهر فيها معدنها الماسي الرقيق، فتقوم لتحتضن أماندا وتحتضنني وتبكي طالبة المسامحة وواعدة للمرّة الألف بترك الكحول، لكنني علمت أننا نفقدها عندما اكتشفت كيس الحبوب المخدرة. كنت قد استطعت أن أنهي علاقتها تمامًا بالمشردين الذين أدمنت الحياة معهم. كتبت لها دورًا خاصًا في المسرحية التي أعددتها وحلمت أن تمثلها بالكومدي فرانسيس، ولكنها.. ولكنها يا سيدتي اختفت"

هكذا جلس أبي ماركو، أمام جدتي أليتا متحدِّثًا بأسبانية سليمة متفجرًا في بكاءٍ مرير. كنت عندها قد أكملت عامي السادس، وأستطيع الآن تذكُّر كل شيء.

صدقيني يا سيدتي، تركت من أجلها الحياة، عدت لأتتبع أثر المشردين باحثًا عنها. أمضيت الليالي الطويلة ممشِّطًا شوارع باريس كالمجنون. اتصلت بكل ملاجئ الأيتام باحثًا عن ابنتنا أماندا، ولما يئست من باريس، ارتحلت في مدن فرنسا كلها. تركت الكتابة والمسرح والحياة. قرأت رسائلها التي كانت تكتبها لكم كلما استبد بها الشوق ألف مرّة فلم أصل لشيء. حتى قادني القدر والمصادفة إلى صديق قديم نصحني بتولوز، ولكن يا لحياتي التعسة.. وصلت متأخرًا جدًّا.

- أنت لست أسبانيا يا بني؟

قالتها جدتي وهي تحتضنني، رافضة أن أفارق يديها التي أحاطت بخصري تمامًا.

لا يا سيدتي، لقد حضرت من شيلي مع أسرتي التي هربت من الديكتاتورية والظلم. لكن أبي وأمي لم يستطيعا أن يقاوما نداء الحنين، فرحلا وتركاني أدرس المسرح. أمي أخبرتني أن أبي اختفى مع العشرات من رجال النقابات هناك. صوفيا وأمي كانتا صديقتين، كانت صوفيا تهاتفها طويلًا وتضحك قائلة: "كأنني أحدث أمي تمامًا"

- وما الذي أستطيع أن أقدِّمه لك أيها السيد المحترم؟

قالتها جدتي بينما يداها تعتصراني حتى كدت أن أختنق.

- أتعلمين يا سيدتي أن أماندا تشبهك تمامًا كما كانت صوفيا.

فترد جدتي:

- أتوقع من رجلٍ يبدو لي كشخصٍ نبيل مثلك أن يتجه مباشرة إلى هدفه.

عندها رفع أبي رأسه من إطراقته، ماسحًا بقايا الدموع من عينيه، ناظرًا إلى جدتي مبتسمًا، فأكملت جدتي:

- إذًا فلقد أتيت لتأخذ ما تبقى لنا من صوفيا التي أضعناها.

- أتيت لأبحث عن صوفيا وابنتنا أماندا يا أمي.

- أنت لا تريد أن تقول إنك أتيت لتأخذ مِنّي أماندا.

أعتقد أن القدر قد حطم قلبكِ بما فيه الكفاية يا سيدتي، ولا أريد أن أظلمك ولا أن أظلم نفسي.

- تستطيع أن تبقى معنا بتولوز وتكون ابني الثالث، ما اسمك يا بني.

- ماركو غبريال.

- سأحضِّر لك غرفة صوفيا، ولتذهب لإحضار حقائبك وتجلس معنا على المائدة للعشاء.

عندها انحلَّ الطوق الحديدي الذي طوقتني به جدتي بيديها لتدفعني إلى حضن أبي الذي احتضنني وانطلق في بكاءٍ مرير.

## -٣٦

بدأت الحياة تدب من جديد في بيت جدي وجدتي، أبي الذي عاد إلى البيت ليبحث عن زوجته وعني، أعطى شعورًا بالراحة والفرح للبيت كله. فبحسب جدتي، أمي صوفيا قد أحسنت الاختيار، كما كانت تشعر هي في قرارة قلبها نحو اختيارها المجنون لجدي الطيب. في النهاية اختارت رجُلها من هؤلاء الرجال الذين يضحون بالكثير من أجل ذلك الشيء المبهم الذي يسمونه الحب. وفي المقابل وضع أبي نفسه في خدمة جدي وجدتي مستعيضًا بهما عن أبيه المفقود، وأمه التي تعيش في شيلي. حتى الحذر الذي أبداه خالاي بيدرو وألفونسو من ذلك الرجل الذي عاشت معه أختهما سنوات عمرها الأخيرة، تبدَّد سريعًا أمام مشاعر الودِّ والصداقة التي اجتهد في بذلها أبي ماركو غبريال تجاههما. الثقافة الواسعة لأبي وخبرته الحياتية العريضة، برهنت لهما سريعًا على حقيقة أن هذا الرجل لابد أنه حاول كثيرًا لإنقاذ أختهما من جينات الجنون التي يحملها كل أفراد أسرتهم وخاصة نساء العائلة.

ليعود أبي للكتابة بعد أن بدأ الحنان العائلي الذي أظهرته له العائلة بسخاء يضمد جراح قِصَّة حبه الحزينة. عاد ليصوغ قِصَّة حبيبته صوفيا الطفلة المسوسة بحب الحياة والتمثيل والضياع، وقبل كل ذلك حبها للحب نفسه الذي توصلت له متأخرّة جدًّا، بعد أن كانت قد أنفقت كل ذخيرة روحها قبل أن تراه متمثلًا فيه هو نفسه. وخلال ذلك بدأ رحلته الصعبة معي.. أنا الطفلة ذات الست سنوات.

رُبَّما الآن وأنا أكتب عن أبي أشعر بحزنٍ ومرارة؛ لأنني أضعته مِنِّي كما أضاعته أمي تمامًا، ولكن ما الغريب في ذلك؟ ألست أنا ابنة صوفيا الأم وأليتا الجدة أيضًا؟! ورغم أن جدتي أليتا وجدتي روز ظلتا لآخر عمريهما تؤكدان لي أنني كنت أحبه فعلًا، إلا أنني أعلم كيف أني كنت أكره هذا الرجل اللطيف لشيء أقوى مِنِّي. أحيانًا كنت أسأل نفسي ذلك السؤال الذي سهد روحي في مراهقتي وشبابي (وإن فقد هذه الأهمية الآن وأنا امرأة تخطت الأربعين وحرقتها الحياة بخاتم الخبرة): هل هذا الرجل أبي فعلًا، أم أنني ابنة أحد هؤلاء المشردين الذين كانت أمي تقابلهم في الشارع لتشاطرهم الغرام كيفما اتفق، لتشرب وترقص حتى يغشى عليها من السعادة، لتستيقظ فتجد نفسها وحيدة بالشارع تبحث عن علبة فارغة تمد بها يدها لفرنكات المارين بجوارها بسرعة وإصرار على الهروب من مطحنة الحياة، بينما هي تبتسم لهم آملة أن تجد رجلًا يحبها وتحبه؟

الآن أعلم أنني كرهت أبي لأنه أراد أن يخفي عَنِّي حقيقة أمي كما فعلتُ تمامًا مع ابنتي ليزا. حاول أبي معي بكل الطرق ليكتسب ودي؛ اشترى لي الملابس الجديدة والحلوى، صحبني في جولات عديدة إلى متاحف تولوز والحدائق والسينما، لكنني دومًا كنت أتقبَّل هداياه صامتة دون حتى أن أطبع قُبلة واحدة على خده، الذي كان يمده لي ويسحبه حزينًا عندما يراني أدير وجهي إلى الناحية الأخرى. وبعد ساعات من الحديث معي عن شيلي والثورة والمسرح والموسيقى لا أرد إلا بسؤال واحد: كيف كانت أمي؟ عندها يبتسم لينظر إلى الأرض قائلًا: كانت امرأة عظيمة رائعة وأُمًّا تحب ابنتها بشدة" لأصرخ في وجهه "كاذب" وأجري لأبحث عن جدتي وأرتمي في حضنها وأبكي. الغريب في الأمر أنَّ كلانا لم يتعب من حالة الحرب هذه، ورغم أن اسمه بدأ يشتهر ككاتب مسرح واعد، إلا أن

مسرحيته التي كتبها عن أمي قد أفادتني كثيرًا في أن أحب هذه المرأة التي أحس بطيفها يؤنسني وأنا نائمة وحيدة ومهجورة أبكي في سريري بينما الظلام الدامس يلف غرفتي. وبمرور الوقت تعودت على أبي كما تعودت الحياة نفسها. المرّة الوحيدة التي ألقيت بنفسي في حضنه وبكيت كما لم أبكِ أبدًا، كانت عندما رقد جدي إيمانويل أمامي ببذلته السوداء منتظرًا أن يحملوه في تابوته الخشبي إلى قداس الجنازة، عندها كنت قد أكملت عامي العشرين وأستطيع أن أفهم، فهمس في أذني قائلاً. "نعم يا أماندا، كانت مشردة في الشارع، تسكر لتتركك تتضورين جوعًا. لكنها كانت المرأة التي لم ولن أحب امرأة مثلها في حياتي. رُبَّما لا تكونين ابنتي أيضًا، ورُبَّما تكونين ابنة ذلك المصري غريب الأطوار الذي اختفت معه لشهور، ولكن صدقيني، لم أعد أملك شيئًا في هذا العالم سواكِ"

## ٣٧- منصور

كان مجرَّد حُلم.. هكذا حدثت نفسي عندما استيقظت. حاولت فقط أن أعيد تفاصيله لأفهم سبب كل هذا الغضب الذي اعتراني. حلمت أنني أجلس تمامًا عند قدميها، هي بكل عظمة وقارها وصوتها الرائع، أم كلثوم في صورة لم تلتقط لها أبدًا؛ شابة عشرينية فاتنة، ومن خلفها فرقتها بكامل هيئتها، عجائز يلهثون فوق آلاتهم الموسيقية، يحاولون الجري وراء صوتها الشاب فتغلبهم، تغني فترتفع قليلًا قليلًا نحو السماء، وتصمت فتعيدها الموسيقى إلى الأرض بخفة لا توصف، تسألني بملام "هو صحيح الهوى غلاب"، فأطرق خجلًا منها. لتعاود السؤال، فأعاود الخجل من نفسي، لتترك المسرح وتجلس بجواري، تداعب شعري وتمسح دمعة لا أعرف لأي سبب كانت، وعندما تهم بتقبيلي، يرتفع صوته الغبي "عظمة على عظمة يا ست"، عندها تشيخ أم كلثوم فجأة، وتعود إلى مكانها على المسرح. تغني لجمهور لم أعد منه، ويرتفع صوت الموسيقى نشازًا، فأستيقظ على صوت حشرجة الشريط في جهاز التسجيل الذي دمره.

عندما جلسنا في خُصِّ عم أحمد القفاص، كان من نصيب بصري، ألف ليلة وليلة، تضيء بجلال المكتبة العامرة التي ترتفع حتى السقف، وكأنها تحمي تعريشة الخُص من الطيران. يجلس تحته تمامًا حسين الزفت، بكرشه الضخم ويديه اللتين التصق القطران بهما. يدخن الأرجيلة، واضعًا نصف غابتها في فمه، يبتلع الدخان تاركًا لعابه القذر كتذكارٍ

شخصي لعين. شكرت الحظ أنني لم يكن دوري بعده تمامًا في مناولة دخان الحشيش، الذي لولاه ما اجتمعت أبدًا بأمثاله. وعم أحمد القفاص بصبره المعتاد، يتناول من الرجل غابة الأرجيلة، وينظفها بمنديله قبل أن يدخن بهدوء، فيضحك حسين ويرتج جسده كله كجبلٍ يداعبه زلزال. لم أجد اسم وظيفة ينطبق على شخص مثل حسين الزفت، الرجل الذي يكتسب قوته من أعمال طلاء الأسقف بالبلك الأسود، ويبدو أن الدخان الأزرق بتجلياته قد فك لجام لساني، فتساءلت ببراءة:

- هي إيه حكاية ام زيتون وبنتها وردة يا عم أحمد؟

عندها اهتزَّ جبل الزفت ضاحكًا:

- هو انت رجعت من فرنسا بالشهادة، علشان تسيب الطب، وتجري ورا الغوازي ولا إيه ياداكتور؟

فاجأني تعليق الرجل الذي لا أعرفه ولا يعرفني. لكن نظرة واحدة من السعيد وأحمد القفاص أعادت للرجل مكانته، فتمتم "ولا مؤاخذة" وهو يضم ساقيه المفرودتين إلى جسده الضخم.

عايز تعرف إيه يا ناصر؟ قالها عم أحمد وهو يضع النار فوق حجر المعسِّل الجديد، فأربكني السؤال.

عادي يعني يا عم أحمد. الناس دول جيراني، وكنت بسأل عنهم. يعني هم مين وعايشين في الحارة من إمتى.

وقبل أن يبدأ عم أحمد في الرد على سؤالي، صدرَ عن حسين الزفت صوت كصوت صياح الديك الرومي، وانطلق في التدخين الشرِه، حتى سمعنا صوت طقطقة الحجر، ليرتطم جسده الضخم بالجدار مستندًا

إليه، فيسقط أحد أجزاء ألف ليلة وليلة على رأس الرجل، فيزيحه عن فخذه الذي استقر عليه الكتاب كأنه يهش ذبابة، ويبدأ في التحدُّث إلى الفراغ. عيناه زائغتان، تتسارع الكلمات على لسانه غير مفهومة، يتساقط اللعاب من طرف فمه.

كان الأمر يشي بأن الرجل سيدخل في نوبة لا تحمد عقباها. عندها نظر لي السعيد نظرة يملؤها الخبث غامزًا لي بعينه.

- مَتخَفش يادكتور.. هرجَّع حسين لقعدتنا حالًا.

عندها مال السعيد على جبل الزفت صائحًا في أذنه:

إلا صحيح يا حسين، هي الست أم كلثوم كانت بتشرب حشيش؟

عندها تختفى الزرقة التي كانت قد بدأت في الزحف على وجه حسين، ليفتح عينيه كأنه استيقظ من نومٍ طويل، ويخرج صوته مبحوحًا:

- الست أم كلثوم الله يرحمها كانت أشرف من أشرف واحدة في عيلتكم.

وعندما يلاحظ أحمد القفاص توتر الجو، يتوجه لي بالكلام "إنت عارف يا ناصر ان أبو حسين هو اللي كان بيقول في حفلات أم كلثوم، عظمة على عظمة على عظمة يا ست" ليضع حسين يده في جيب معطفه العتيق ويخرج لي صورة قديمة بالأبيض والأسود لرجلٍ يشبهه وهو يحمل للسيدة أم كلثوم معطفها، بينما هي تمد يدها لترتدي المعطف ناظرة للأرض، واضعة نظارتها السوداء على وجهها. وبإصبعه المحروق باللون البني من أثر السجائر، يشير إلى طفلٍ صغير يراقب أم كلثوم ويقول:

- ده أنا وانا صغير. ياما أخذني ابويا معاه لحفلات الست، وعمرها الله يرحمها ما كانت تعيد كوبليه إلا لما تسمع صوته في آخر الصالة بيقولها عظمة على عظمة يا ست.

بعدما نشاهد الصورة، يأخذها ليضعها مرَّة أخرى في جيب معطفه بجوار قلبه مباشرة. ساعتها انتابتني رغبة عارمة في أن أصفع حسين الزفت على وجهه، منتقما منه ومن أبيه على ضياع قُبلة أم كلثوم لي في حُلمي، لولا صوت باب العشة الذي دق بصوت مفزع، دقات انخلع لها قلبي. كالعادة خطر لي خاطرٌ أنها رُبَّما تكون الشرطة، أو أنها زينب العرجة عادت تحمل لي فضيحة جديدة. وأمام دقات الباب المحمومة توتر الجميع باستثناء عم أحمد، الذي رفع بسرعة النار من على الجوزة وغيَّر الحجر بسرعة؛ أمَّا السعيد فتناولت يده قطعة الحشيش الباقية ورماها في جوفه كما يرمي حبة من البمبون، ليقوم ليفتح الباب، فنجد أمامنا سراج المصري زائغ البصر وفي حالة يرثى لها، يقلب عينيه في وجوهنا، حتى إذا اكتشفني صاح:

الدكتور ناصر، ألف حمد وشكر لك يا رب. سايق عليك النبي قوم معايا.

ودون أن ينتبه لصيحات الاستياء والسباب التي كالها السعيد وحسين الزفت له، اتجه إليَّ مادًا يده ليشد يدي متوسلًا:

- والنبي يا دكتور قوم معايا.

وأمام إلحاح سراج المصري، لم أجد بُدًّا من أن أقوم مع الرجل الذي أصابه مس. لم يترك لي سراج الفرصة للتفكير، وبدأ يجري ناظرًا خلفه ليطمئن أنني أتبعه، فلم أستطع إلا أن أجري لألحق به، حتى وصلنا إلى

عربته الخشبية الواقفة أمام الحجرة التي يعيش بها، لأكتشف حماره نائمًا على الأرض بلا حركة، ودون أن يترك لي فرصة لأن أسأله عن ماذا عليَّ أن أفعل، انطلق بصوتٍ مبحوح شبيه بالنواح:

إلحقني يا دكتور، الحمار وقع هو قاعد يدخن معايا ومش عارف ساله. الله يسترك اعمله حاجة.

وأمام سراج المصري المسكين، لم أستطع إلا أن أجلس على ركبتي أمام الحمار الميت فاتحًا عينيه لأتفحصه، لأضع إصبعي على عين الحمار فلا تتحرك، فيخرج صوتي ضعيفًا محاوِلًا نقل الخبر السيء لسراج:

الظاهر إن الحمار تعيش انت يا حاج سراج. لينطلق الرجل في البكاء والولولة لاطمًا وجهه، وواضعًا تراب الطريق على رأسه. لأكتشف السعيد، و حسين الزفت، والحاج أحمد واقفين يتفرجون علينا، وقد كادوا أن يقعوا على الأرض من الضحك. وما إن رآهم سراج يضحكون حتى جنَّ جنونه، وبدأ في قذفهم بالحجارة ليجري الجميع بكل ما أوتوا من قوة، وليسمعوا صوته من آخر الحارة يسب آباءنا جميعًا، ناعيًا الحمار الذي كان آخر ذكرى له من زوجته عزيزة.

## -٣٨

تهاجمني الصور مرّة أخرى، فأعاود رؤيتك التي مازلت أبحث عن ظلالها. كان الشارع الضيق في جويسون الساحلية الصغيرة ينتهي بتلك الساحة التي ملأتها مقاعد وطاولات البار الكتالوني الكبير. كنت ثملًا قليلًا، أحاول أن أحتوي المشهد بعيني، أصارع للوصول لسُكرٍ كامل والهرب من نفسي التي لم أعد أفهمها. الموسيقى الأسبانية الحزينة تنير العالم بشجنٍ عذب، والمغني العجوز تتقلص عضلات وجهه بألمٍ، فيئن الجيتار بين يديه، ليخرج صوته محدِّثًا المدى، وأنا والآخرون نشاهد مغيب الشمس القادم في حضرة الوجد، ينسحب علينا في وقار واحترام للمشهد الأسطوري.

لتبدأ رقصة السيدات الوحيدات. بدأتها إحداهن بأقدامٍ حافية وقلب لعوب، دوران حول الذات كأنها تعيد ميلاد العالم. أسئلة لعشاق وانكسارات خيبة أمل، انتفاضات للجسد شبيهة بالرقص كشجار بائس مع الحياة. وعلى أنغام موسيقى الرجل الحزين، تبعتها أخرى وأخريات. تهمس بكلمات الأغنية الأفواه المبخرة بمِسك الخمر والذكريات. مفردات أسبانية لا أفهم معناها، ولكني وعيت حروفها الفائرة؛ حب دائم للحياة، وتساؤل أبدي عن قسوتها، لأراكِ فجأة وسطهن، حافية القدمين وثملة، تتحاشين النظر إليَّ، تقلبين عينيك بين السماء والأرض، متوسمة وصول فارسك الذي لم أكنه يومًا، تتساقط دموعك ويضحك وجهك رغم حزن اللحن الذي وصل بالمدينة الصغيرة إلى النشوة. وعندما تنتهي الموسيقى كموتٍ مفاجئ، تحتضنين المغني طويلًا وتبكين، فيبكي الرجل بين

أحضانك، ليصفق الجميع لكما حتى التعب، فأصفق معهم وأضحك كثيرًا جدًّا، وأشعركم أنتِ جميلة يا أماندا.... وكم أنا ثمل.

أخرجتنى ربتة من كف الحاج أحمد القفاص على كتفي، من ومضات استحضار أماندا الجميلة، فابتسمت من عبثية المشهد الهزلي الذي لا يمكن أن يحدث في مكان غير«أبو السُّبَح» العجيبة. كان صوت القرآن يصدح عاليًا من جهاز التسجيل المعلَّق على حديد شباك سراج المصري، بينما أقف في صفٍّ طويلٍ من أهل الحارة، أتلقى التعازي في حمار سراج. والحارة قد أُغلِقَت تمامًا بعشرات العربات الكارو التي أتى أصحابها لتعزية سراج في حماره. بينما الحمار مكفن بقماش الكفن الذي اشتراه سراج لنفسه حتى لا يتصدق عليه أحد بكفنٍ بعد موته، تحيطه الورود وتفوح منه رائحة العطور، تغطيه البطانية الوحيدة التي يمتلكها سراج. وأولاد الحارة متجمعون لمشاهدة الحدث الذي رُبَّما لن يتكرر، حريصون على عدم إبداء أي حماقة سيكون ثمنها غاليًا. ورغم أن الجو قد توتر فجأة عند ظهور شيخ الجامع الشاب المشهور بمواقفه المتشددة والشاذة عن روح حارتنا، تتبعه زوجته المنتقبة التي سريعًا ما اختفت عن عيون الرجال الواقفين في الشارع عند أول باب بيت قابلته، إلا أن الرجل رغم علامات الاستياء البادية على وجهه من هذه البدعة المُحدثة من تكفين الحيوان وقراءة القرآن عليه، اقترب بأدبٍ من المشهد، واتجه مباشرة إلى سراج الواقف يكفكف دموعه، وشدَّ على يده معزيًا، وعندما حاول أن يفتح فمه ليتحدث، سحبه أحد المعزين بعيدًا عن المكان، ليختفيا عن العيون.

لتنتهي مراسم العزاء بحمل الحمار على العربة، ليتقدم سراج فيضع نفسه مكان صديقه الذي طالما ملأ عليه ليالي وحدته، ويجر العربة فيتحرك خلفه طابور طويل من العربات الكارو، ترجل عنها كلها العربجية، ليطوف بمدينة المنصورة مشهد الجنازة المهيب، ليتجهوا إلى مقابر المدينة. فيقف سراج بحماره أمام قبر عزيزة زوجته المتوفاة، رُبَّما لتودع آخر هداياها له، ويذرف على قبرها الكثير من الدموع، قبل أن يهيلوا على الحمار التراب في منطقة مهجورة بجوار المقابر. ليعود سراج في جمع غفير من المعزين إلى الحارة، فيجد سعيد قد ربط حمارًا جديدًا مكان الحمار الميت في حديد شباك غرفة سراج. بينما أطفال الحارة يتجمعون محتفلين حوله. فيقترب سراج من الحمار الجديد ببطء، ويتحسس وجهه ويحتضنه ويعاود البكاء، فيربت عليه عم أحمد القفاص، ويدعوه للعشاء وشُرب الشاي معه.

## -٣٩

عرفتْ حجرتي روائح الطهي النسائي لأول مرّة. هكذا يمكنني أن أصف أول بصمات وردة على جدار حياتي الجديدة، كرجل شرقي يعيش في حارة مصرية. تتعامل معي بعفوية زوجين رغم جنون علاقتنا، دون تحفظات. حاولت أن أقيد بها المشاكل التي لابد أنها آتية. وردة بجسدها البض الممتلئ المسكون بشياطين النشاط الدائم، أصبح وجودها اعتياديًا وحاضرًا، حتى إن زيارات أم محمد المتكررة لتنظيف مكاني، انسحبت بخجلٍ وتآمر أنثوي غير مفهوم لعقليتي الخائفة دومًا. تمارس وردة كل شيء ببساطة وتلقائية، وكأنها أنثى بلا عقل ولا سمعة يجب الحفاظ عليها في حارة لا تدمن أكثر من الحكي وتناقل الأخبار.. وردة التي يحفظ كل شبرٍ في حارتنا بصمة قدمها الفاتنة، تلك القدم المكتنزة التي طالما لثَّمها تراب الحارة، من أيام لعبها الأولى بضفائرها المجدولة، إلى أيام كدّها كأم لا هم لها سوى تربية البنت الصغيرة، شبيهتها التي أخذت مكانها في لعب الحجلة.. وردة التي لا تكبر أبدًا ولا تريد الاعتراف بالزمن الذي يمتص بصبرٍ وخبث رحيق شبابها.. وردة المحِبة للحياة كما لم أتخيل أنه في الإمكان حب الحياة بكل هذا الشغف، تحكي وهي تدور في الشقة محاوِلة زرع النظام في حديقة رجل مهمل مثلي، عن يُتمها الذي حكوا لها عنه، وكأنها بكل عذاباتها معه لا تعرفه.. وردة المتفجرة بالحياة والنشوة، القادرة على تفهم رغبات جسدها ومسامحة نفسها بعفوية، معلمتي التي أعادت إلى جسدي رجولته، الصبورة في ممارسة الغرام بدون تسامح في حقوقها، المرأة التي لم تعرف خطاها فصول الدراسة أبدًا، واستطاعت

بروح مدهشة أن تصير في عيني سيدة مجتمع، حتى وهي ترتدي فستان البيت الفقير الذي تفوح منه روائح خاصة جدًّا، ابتكرها جسدها بفتنة صنع كل ما هو جميل في هذه الدنيا. وببساطة تضحك مدعية أن أمها رُبَّما لم تتيقن من معرفة أبيها أبدًا، لا يخجلها أنها رُبَّما تكون بنت حرام كما تدعي نسوان الحارة عندما تتشاجرن معها، تقولها وضحكتها المجلجلة ترج أركان الشقة، معطية نفسها سببًا بسيطًا وعفويًا لعلاقتنا.

الحرام إن الواحدة تبيع جسمها، إنما الحب عمره ما كان حرام. حتى لو الواحدة نامت مع رجل من غير مأذون وشهود. ربنا بيرحم وعارف إننا غلابة، عايشين في الفقر والغلب، وماعندناش حاجة تفرحنا غير شوية حب بنلاقيهم بالصدفة. لا رجالتنا بتفسحنا زي بتوع التلفزيون، ولا عمرنا شفنا البحر. تصور يا ناصر أنا عمري ما شفت البحر. أمي بقى الله يسامحها، شبعت من الدنيا وحرمتني من كل حاجة. جوزتني لأول واحد دق باب بيتنا، علشان تسترني وما اطلعش عَالْمَة زَيَّها، عصام ما انت عارفه، جدع فيه عبر الدنيا، بس قلبه طيب. مع إن اللي عشته معاه مايجيش عُشر إلى قضاه في السجن"

تسحب وردة سيجارة من علبة سجائري، وتطلق الدخان في هواء الغرفة وتصمت، وتمسح دمعة غالبتها طويلًا، قبل أن تنتصر أحزانها، فتسقط دمعتها بهدوء ووقار. تمد يدها لي بالسيجارة، فأتناولها وأسمع تنهيدتها الطويلة قبل أن تكمِّل:

"عارف يا ناصر، نفسي اهرب من الحارة النجسة دي، الحارة اللي عاملة زَي سجن مش ممكن تسيبه. وقبل ما اهرب انا والبت الصغيرة، أولِّع في الشقة بعد ما أقفل على امي بالمفتاح، علشان أنسى كل حاجة بتفكرني بالماضي. بس هروح فين بالبت الصغيرة، ومين هيأكّلني انا وهي.

النسوان بيقولوا إني بنت أنور وجدي، أمي اللي قالتلهم، ولما كنت اسألها كانت تسكت وتحط وشها في الأرض. من يوم ماجت وعاشت في المنصورة وهي عاملة فيها الشريفة الطاهرة. عالمة آه لكن عمر ما رجل غريب حط رجله في بيتنا. دلوقت عجِّزت ومَعدش حد بيسأل عنها. لولا الفلوس اللي بيبعتها عصام من السجن، كان زمنا متنا من الجوع. أمي اللي مَعادتش عارفة حاجة في الدنيا، نسيت كل حاجة إلا الماضي. تقوم من النوم كل يوم تسألني عن آلاتية وعوالم زمايلها ماتوا وشبعوا موت، وتقعد بالساعات تنظف النحاس بتاع عدة المزيكا. الماضي وحِش أوي يا ناصر. الماضي موت يا ابن الناس. أنا مش عارفة إيه اللي رجَّعَك لابو السِّبَح بعد ما ربنا تاب عليك منها.

ووردة التي تابعت تعبيرات وجهي الجامدة كصنم وأنا صامت أتأملها وهي تتابع كلامها، خطفت ما تبقى من سيجارتنا، وأخذت نفسًا طويلًا، نفثته في وجهي ببطء، لتلقى ما تبقى منها على الأرض، وتقترب مِنِّي فتقبلني قُبلة يتصاعد منها دخان التبغ والألم، وتحتويني بحضنها الوفير، هامسة في أذني بكلمات بذيئة محرِّضة وأصوات كالعواء، تجعل قلبي يتعرق من الهجوم المباغت فتتوتر أعصابي، مستمتعًا بعسل رضابها. إلى أن شاهدتْ عيناي ما شاهدت، فتوقف تنفُّسي، وسرت البرودة فجأة في جسدي، لتشعر وردة بتخشُّبي المفاجئ، فترفع رأسها قليلًا ناظرة خلفها، لترى ما رأيت، فتقفز من فوقي مطلِقة صرخة رعب، وتخرج جريًا من شقتي، مرددة اسم الله الحفيظ عشرات المرَّات.. بينما أنا أنظر إليه متعجبًا وخجِلًا.. كان جدي«أبو السُّبَح» يقف أمامي بكامل هيئته التي في الصورة المعلَّقة على الحائط، وكأنه قد خرج منها.

## ٤٠- أماندا

طفولتي الحقيقية لم يصنعها أبي وأمي ككل الأطفال الذين عرفتهم في سنوات عمري الأولى. كان أبي وأمي الحقيقيين هما جدي إمانويل وجدتي أليتا. أمَّا صديقة طفولتي فكانت جدتي روز الرائعة بجدارة، الراهبة اللعوب كما كانت جدتي أليتا تحب أن تداعبها. روز التي لم تحب من كل سِيَر القديسين (التي كانوا يجبرونها على حفظها هي وسرب الراهبات اللواتي كانت تعيش معهن في الدير) أكثر من سيرة مريم المجدلية، وصل بها عشقها لهذه المرأة الخاطئة القديسة إلى أنها وضعتها في مرتبة العذراء ويسوع نفسهما، لكنها معي كانت تنسى كل تحفُّظات المؤمنين المخلصين لتتحول إلى طفلة لا تكبرني ولا أكبرها بيوم. وحتى بعد أن ظهرت كامرأة صالحة يعتبرها البعض قديسة لها قدرات خاصة في محادثة الأموات، خاصة زوجها السيد فرنسواه الذي مات محترقًا بمزرعته منذ سنوات طويلة، وأتى شبحه إلى تولوز طالبًا مسامحة زوجته بعد أن أخبرها بكل خياناته لها وحتى بقِصَّته مع جدتي أليتا. وصار صوت بكائه وتضرُّعه لها يقلقنا جميعًا، لينطلق في نوبة غضب يهز الأواني محدثًا صلصلة وأصواتا تشبه أصوات الأحصنة حتى سامحته، بعد ليلة لم ننمها ولم ينمها معظم جيراننا. ولم يمنعهم أن يطلبوا الشرطة إلا الخوف من غضب جدتي أليتا التي طالما كانت صديقتهم جميعًا. لتبدأ أسطورة جدتي روز بعد ذلك كله مع عشرات المريدين المنتظرين لها، لتتصل لهم بأمواتهم، تنقل لهم

أشواقهم لتخبر الأهل بأماكن الكنوز الصغيرة التي تركها الأموات، وكثيرًا برأي رب الأسرة الميت في قبول أو رفض الأمور اليومية.

عندما كنت أعود من المدرسة، تنطلق لتحتضنني عندما تراني على باب المنزل ولتجلسني في حجرها مستمتعة مِني بحكاياتي عن المدرسة وأصدقائي، بينما جدتي أليتا واقفة تستمع بانتباه. الشبح الوحيد الذي لم تتمكن جدتي روز أبدًا من محادثته هو شبح أمي. كانت روز تكلمها كثيرًا عندما نجلس جميعًا على مائدة العشاء، لكن عندما تجد عيني جدتي أليتا متعلقة بها ينطلق صوتها:

-ماذا أفعل يا أليتا؟ إنها هنا، أشعر بها وأشم رائحتها لكنها لا ترد عليَّ. فقط أشعر أنها مرتاحة لوجودها بيننا.

عندها يستأذن أبي من جدي بأدب وينسحب إلى حجرته التي كانت يومًا حجرة أمي.

الشخصية الأكثر أهمية في طفولتي، كانت جدي إيمانويل. كانت أروع لحظات حياتي عندما يصطحبني جدي معه لأشتري الخبز من المخبز الواقع على ناصية شارعنا، ورغم أن المسافة لا تتعدى أكثر من خمس دقائق مشيًا على الأقدام، إلا أنه كان دومًا يصر على أخذ دراجته القديمة الشبيهة بحيوان خرافي، لتستمر رحلة شراء الخبز لساعات وساعات نعود بعدها لنجد جدتي أليتا تنتظر في شرفة المنزل، صائحة "ماذا أفعل فيك أيها الرجل العجوز. أقسم برأس أمي أنه لولا آلام الروماتيزم لما تركتك تخرج أبدًا من باب المنزل. بينما هو يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة وهو يضع دراجته في مكانها.

في رحلات شراء الخبز هذه، كان جدي يتوقف كل خمسة أمتار ليتحدث مع أحد الجيران المارين، الذين يبادرونه بأسئلتهم عن أمور أقسم إنه لم يكن له أية خبرة بها، لينطلق في وصف الشروحات الخيالية لمشاكلهم البسيطة مستعينًا بدفترٍ صغير لم يفارق جيبه أبدًا وقلمٍ. والغريب حقًّا أن شروحاته هذه رغم جنونها البادي، إلا أنها كانت صالحة دومًا لإنجاح شيء ما، كما كانت مهمة لإعطائي فرصة حقيقية للعب مع الأطفال في الشارع واكتشاف العالم الحقيقي، والأهم الهروب من سجن جدتي أليتا الخائفة من ضياعي كأمي.

تعرفت مع جدي على أشخاصٍ طيبين ونساء طامعات فيه، رغم خوفهن من جدتي أليتا ورغم عمره المسِن وقلبه الطيب الذي لم يعد ينفع بشيء. تعرفت أيضًا على الكثير من حقائق الحياة التي لم يكن أبدًا يتسنى لطفلة مثلي أن تعرفها؛ أحدها كانت حكمة سونيا المجنونة التي كانت تعيش بالشارع، عندما قابلتها في ليلة باردة بينما جدي يملأ فمه بقطعة خبز ساخنة ويعطيني الرغيف أقضمه وألعب بالبقية، لتعترضنا سونيا التي انشقت عنها الأرض لتنظر إلى الخبز كقطة جائعة. وأمام منظر سونيا المذهل (كان شعرها أشعثًا، وترتدي معطفًا مفتوحًا يبين ثديها المكشوفين الطليقين، بينما قدماهاحافيتان مزرقتان من شدة البرد ويداها بلا لون من قذارتهما)، سحب جدي كيس الخبز كاملًا ليعلقه بيده في وجه سونيا، لتنظر له نظرة لن أنساها أبدًا قائلة:

أمجنون أنت يا إيمانويل، سونيا الجائعة لا تستطيع أن تأكل إلا رغيفًا واحدًا، ماذا أفعل بكل هذا؟

لتسحب رغيفًا واحدًا ولتختفي كما ظهرت، تاركة جدي مذهولًا بينما أنا أنقل وجهي بينهما محاولة أن أفهم.

## -٤١

كبرت سريعًا. هذا هو الشعور الذي أحس به الآن. رُبَّما أكاد أقسم أنه نفس الشعور الذي تحسه كل النساء بعد أن يعبرن بوابة الأربعين عامًا. السن الذي يصبح فيها الإنسان أكثر خوفًا، محاوِلًا أن يسرد في ذهنه ماذا سيتركه من ذكريات في هذه الدنيا، ويصبح أقل قدرة على تحمُّل الضوضاء، وأقل أملًا في مقابلة عشاق عابرين. سن تتكثف فيه الرؤية، وتصبح فيه الكثير من الأشياء لا تساوي عناء المحاولة. سن تكون فيه المرأة قد أجابت على أسئلة كثيرة أو لن تبحث أبدًا عن إجابات مقلقة، منتظرة مستقبل سيء السمعة عن بدايات الشيخوخة وانقطاع الدورة الشهرية، وناظرة بحسرة على ذلك العمر الذي مضى أسرع مما تتخيل. الآن أشعر أن الأيام التي مرت بي في بيت جدي وجدتي كانت مجرَّد حلم ممتع قصير، لم يوقظني منه إلا حُلمٌ آخر، حُلم الحب والأنوثة المبكرة. كانت كل قصص الحب والرومانسية التي بدأت في التهامها من مكتبة خالي بيدرو، مجرَّد إطارات لقصص الحب التي مرت بأفراد أسرتي، فأجد في جدتي أليتا وروز وحتى في أمي صوفيا عاشقات أفضل من جوليت وفرجيني وحتى ليلى العامرية التي حكى لي منصور قِصَّتها.

كانت تلك فترة السبعينات التي تركت فيها حمى الرومانسية فرنسا تنضج على أيدي مغنين عظام، مثل: جودسان، وجاك بغيل، وشارل ديمون، وقبل كل هؤلاء أيد بيف التي كان زواجها من شاب يصغرها بعشرين عامًا انتصارًا حقيقيًا للحب والرومانسية.

كنت قد أصبحت في الخامسة عشر من عمري، أستمتع بنيران الحب وأنا أستمع إلى جاك بغيل البلجيكي وهو يتمنى أن تتركه حبيبته ليكون ظِلًّا لظِلِّها أو ظِلًّا ليدها أو حتى ظِلًّا لكلبها، واعدًا إياها أنه فقط سيجلس بجوارها صامتًا وهو يراها ترقص وتبتسم في أغنيته" Ne me quitte pas

الرائعة التي صارت النشيد القومي لخالي ألفونسو يبدأ بها كل حفلاته المجنونة قبل أن ينطلق في فلساته الراقصة. أحببت الحب حتى قبل أن أقابله كأمي. ومن شدة حرارة حمى الرومانسية التي بدأت تسري في جسدي، بدأت أتخيل عاشقين وهميين أبادلهم غرامي البرئ، أخاصمهم وأعاود مصالحتهم، لأنطلق في نوبات غضب ضدهم مقسِمة بقطع علاقتي بهم، لأتركهم يتعذبون ويغنون لي وهم يبكون مثل جاك بغيل.

كان أول عشاقي الوهميين جدي إيمانويل، لكنه لم يثبت جدارة واضحة في حبي. كان ضائعًا تمامًا في حب جدتي أليتا، وجدتي أليتا أصبحت عجوزًا طيبة وأحيانًا شريرة للغاية، فكيف لي أن أحب رجلًا يحب امرأة عجوزاً. عشيقي الثاني كان خالي بيدرو، لكنه كان رجلًا نحيفًا موصوما بمهاترات الثقافة، ورغم رومانسيته الحزينة التي تطل من عينيه المخبأتين خلف نظارته السميكة، إلا أن صرامته ضد الحياة وخاصة ضد نفسه هو شخصيًا، جعلته في عيني عاشقًا من هؤلاء العشاق الذين يعذبهم الشوق دون أن يستطيعوا حتى أن يصارحوا بحبهم، ليصبح الشخص الأكثر ملائمة في أفراد العائلة خالي ألفونسو. فهو رغم وزنه الضخم، له روح طفل لعوب، بالإضافة إلى أنه دنجوان محترف وعازف أكرديون وراقص موهوب، لكن أحلام حبي له انتهت أيضًا سريعًا بعد أن اعتبرته عشيقي المثالي. فبدأت في حمل الأزهار إلى حجرته، وانتظاره عند باب البيت لأبدي ملاحظاتي على ملابسه كي لا يبدو وسيمًا عندما يخرج

لمقابلة فتيات أخريات، ومناداته بحبيبي بصوت طفولي وخجول، حتى أصبحت غيرتي عليه تقتلني، فارتميت في أحضانه في سهرة اصطحبني فيها، لأقبّله أمام الجميع في شفتيه، فما كان منه إلا أن صفعني صفعة أعادت لي عقلي.

الآن عندما أتذكر هذه الفترة، أموت أحيانًا من الضحك، وأتفهم ثورات ليزا ابنتي ضدي، وأتعجب من تعجُّلي الحب الذي طالما حرقَ.. روحي ومازال.

حتى إذا كانت الليلة التي احتفلت فيها بعيد ميلادي السادس عشر، دخلت حجرتي بعدما غنَّت معي أسرتي أغنية عيد الميلاد، وأكلنا حلوى الكريز التي صنعتْها خصيصًا لي جدتي أليتا، فأغلقت الباب بالمزلاج لأتعرى قطعة قطعة مغمضة عيني أمام المرآة. وعندما أتممت مهمتي بالكامل، فتَّحت عيني لأشاهد هدية عيد ميلادي الحقيقية. ورغم أن ثديي كانا لا يزالان صغيرين جدًّا، إلا أنه هالني جسد المرأة الكامل الذي اكتشفته في المرآة. وأمام تلك المرآة وقفت طويلًا أشاهد الانحناءات التي نحتتها سنوات عمري، لأركع على ركبتي أمام صورة المسيح ( كنت حتى ذلك الوقت أؤمن بالمسيح قبل أن أكتشف خرافة الأديان)، طالبة منه أن يبعث لي من ينقذني من أحلامي التي يقطف فيها جسدي ملثمون يتركونني مستيقظة ويسلموني لأحلام تعذب روحي وتلهب جسدي. ويبدو أن المسيح الذي تضرعت له كثيرًا لينفذ لي أشياء تافهة لم ينفذها أبدًا، قد استجاب لطلبي هذه المرّة فبعث لي عجوزًا مجنونًا، امتطاني كماعز.

## -٤٢

«انطوان ميكروفيتش»، أحد العائدين من الحرب مثل جدي إيمانويل، ولكنه بدلًا من أن يعود إلى وطنه جورجيا متجهًا إلى الشرق، ضلَّ طريقه إلى الغرب، ليجد نفسه في تولوز بعد أن أضاعت الحرب عقله، لكنها أعطته لقبه الذي عاد يناديه به أصدقاؤه في فرقته الحربية "ميكروفيتش العظيم" عندما رأيت ميكروفيتش لأول مرّة، هالني أن يوجد على وجه الأرض رجل بهذه النحافة. شعره الكثيف، ولحيته الغزيرة يعطيانك الإحساس بأن له رأس أسد، وإن كان جسده جسد كلب هزيل، يداه المرتعشتان اللتان لا تخلوان أبدًا من سيجارة يشعلها وينساها لتحرقهما، بالإضافة لرائحة الفودكا المنبعثة دومًا من فمه، جعلاه رجلًا غير مرغوب فيه دومًا من طرف جدتي أليتا. أمَّا جدي إيمانويل، فلم يكن يجد فيه إلا رفيق سلاح وقضية لا يعرفها كلاهما. ورغم المظهر المزري لإنطوان ميكروفيتش، إلا أنه لم يكن يخلو من خفة دم بادية يخلقها جنونه وطريقة تحدُّثه بالفرنسية التي ينطقها بلكنة روسية خالصة.

لسنوات طويلة، كانت حياة ميكروفيتش مثار أسئلة كثيرة لجلسات العشاء العائلية. فلا أحد يعلم من أين يأكل ميكروفيتش أو حتى أين يعيش. كنا فقط نعلم أنه يختفي ليلًا في حي الارستقراطيين الذي لا يسكنه إلا أبناء الطبقة الغنية من أبناء تولوز، لكنه صباحًا، وقبل أن تستيقظ بيوت الحي الذي تسكنه الغالبية من أبناء المهاجرين ذوي الأصول الأسبانية مثل عائلتنا، كان ميكروفيتش كالقطط المنزلية الهاربة

من أصحابها، يتمسح بأبواب تلك البيوت. وبالطبع لم يكن يجد ميكروفيتش منزلًا مفتوحًا على مصراعيه لمقابلته أفضل من بيتنا. فرغم تذمُّر جدتي الدائم من وجوده وإطلاقها كلمات عدم الترحيب الفرنسية التي استشارت في تعلُّمها جدتي روز، حتى تعلمت أن تنطقها بفرنسية سليمة ليفهما ميكروفيتش (الذي لا يفهم أبدًا كما كانت تدعى)، إلا أن ميكروفيتش وجدي إيمانويل لم ينقطعا عن عادة الجلوس تحت شمس الصيف الحارقة مستمتعين بالحديث، يرتشفان رشفات الفودكا من زجاجة صغيرة يخبئها ميكروفيتش بجيب بنطاله القذر. حرارة جو تولوز الصيفية الخانقة، إضافة إلى الحرارة التي تصنعها الفودكا الروسية كانت تترك العجوزين غارقين في عرقهما تائهين تمامًا، حتى إنهما كثيرًا ما كادا يسقطان في نوبات الضحك أو البكاء بينما نراقبهما من شباك المطبخ أنا وجدتي روز وجدتي أليتا. إلى أن تأتي اللحظة التي لا تستطيع جدتي أليتا أن تتحكم في نفسها، فتخرج ملقية بكل الشتائم التي تطلقها من فمها بالأسبانية والفرنسية وبلغات أخرى لم أفهمها أبدًا، لترفع جدي إيمانويل من ياقة قميصه كطفل إلى داخل البيت وتغلق الباب في وجه ميكروفيتش بعنف، لتسقيه بالقوة القهوة التي تتعمد أن تضيف لها ملعقة كاملة من الملح، كي يفيق من سُكرِه الطيب وتستمتع بتوبيخه بينما هو ينظر لها بعينين بريئتين، مبتسمًا، منتظرا مجالسة انطوان ميكروفيتش في صباح اليوم التالي.

إلى ذلك اليوم الذي حضرت جدتي روز إلى المطبخ طالبة إحضار ميكروفتيش إلى حجرة الطعام. كان هذا الطلب أكثر من قدرة جدتي على الاحتمال، فدخول هذا الروسي المخبول إلى البيت يعني أنه لن يخرج منه أبدًا. لكن كل صيحات أليتا في وجه روز، لم تفلح في أن تثني روز عن

طلبها. وبعد أكثر من ساعة من الصياح، لم تعلم جدتي أليتا ماذا تفعل في روز الجالسة أمامها بهدوء شديد تردد عبارة واحدة كترنيمة صلاة.

- يا أليتا من فضلك أحضري ميكروفيتش إلى حجرة الطعام.

وأمام إصرار روز وحيرتها، اضطرت جدتي أليتا إلى طلب ميكروفيتش وجدي إيمانويل اللذين دخلا إلى المنزل كطفلين شقيين يمسكان ضحكاتهما أمام صمت السيدتين ونظراتي المتطلعة. ليقطع صوت جدتي روز حالة الصمت الثقيل التي لفَّت الحجرة، طالبة من ميكروفيتش أن يتفضل بالجلوس.

- سيد ميكروفيتش، أرجو من حضرتك أن تنتبه للرسالة التي سأبلغها لك، ولتعلم أنه لا سُلطة لي في محتواها، إنما أنا فقط مجرَّد وسيطة وناقلة لهذه الرسالة المهمة.

وعندها سحبت جدتي روز مقعدًا مواجهًا لميكروفيتش لتنظر مباشرة في عينيه قائلة:

سيد ميكروفيتش، السيدة فاليري ترجوك أن تذهب الآن إلى بيتها لتخرج جثتها، فهي لا تريد أن تذهب من بيتها إلى الكنيسة ولها رائحة كلب متعفن. كما أنها تشكرك بشدة على كل لحظات السعادة التي عاشتها معك، وتخبرك كذلك بأن وثيقة ملكيتها للبيت الكبير الذي تملكه وكل جواهرها قد آلت إليك.

وبعد فترة صمت أخرى طويلة، قامت جدتي روز مرهقة جدًّا إلى غرفتها، تاركة ميكروفيتش وجدي وحتى أنا في دهشتنا. لا نفهم كيف أصبح ميكروفيتش العظيم المجنون في لحظة مليونيرًا، وتاركة أيضًا جدتي أليتا

تبحث في ذاكرتها عن امرأة فرنسية ثرية اسمها فاليري قد تكون في يوم أحبت هذا الروسي المقرف.

في الكنيسة، حملنا السيدة فاليري إلى قداس صغير. بكتها جدتيّ: روز وأليتا كأحد أفراد العائلة (دون أن أفهم لماذا؟ رُبَّما لأنهما استحضرتا في مخيلتهما كل موتاهما أو فقط لأنهما تحبان البكاء). بينما انطون ميكروفيتش ينقل نظره بين الأب الذي ترأس القداس والسيدة النائمة في التابوت، غير مدرك تمامًا ما يدور حوله. وكطفلة لا يدرك أحد وجودها، وقفتُ أنظر في التابوت المفتوح يهولني جمال المرأة الشابة. كانت امرأة ثلاثينية أو أربعينية على أكثر تقدير. تنام في تابوتها واثقة ومبتسمة كأنها استطاعت أن تصل إلى سر السعادة في حياتها القصيرة وتنغمس فيها حتى التشبُّع، لتموت مقرورة العين. تسريحة شعرها، وفستانها الوردي المختار بعناية، وقلادتها الأرجوانية الرائعة، لا يخبرون بأن هذه المرأة قد غدرَ بها الموت أبدًا، لكنها استعدت له جيِّدًا لكي تظهر بصورة محترمة عندما تغادر هذه الدنيا.

وطوال هذه الليلة، عذبتني صورة هذه المرأة الساحرة؛ محاولة أن أفهم طبيعة العلاقة التي قد تنشأ بين رجل نصف مجنون تجاوز السبعين كانطوان ميكروفيتش، وسيدة شابة وغنية كفاليري. أي سعادة يستطيع أن يهبها مثله؟! لم أنم دقيقة واحدة في هذه الليلة، منتظرة استيقاظ جدي إيمانويل الذي لم ينم هو أيضًا من وابل أسئلة جدتي أليتا، ولا يستطيع أن يجيبها بشيء، فحوَّلت ليلته إلى ليلة بيضاء.

قام جدي منهكًا ليحضر قسطًا كاملًا من القهوة السوداء ليدفعه مرّة واحدة في جوفه الخالي، بينما عيناه تبحثان عن شبح صديقه ميكروفيش الذي لم يظهر، لأباغته بقُبلة على خده وبسؤالي:

جدي إيمانويل، لماذا سميتم انطوان ميكروفيتش بميكروفيتش العظيم. ليبتسم لي قائلًا:

- حتى أنتِ يا أماندا تهتمين الآن بميكروفيتش العجوز.

الحقيقة يا جدي أنه طالما استهواني أن أسأل هذا السؤال، لكنه كان دائمًا بالنسبة لي لا يساوي إلا كلبًا هزيلًا حتى أمس.

- أنتِ مازلت صغيرة يا أماندا، ولا تستطيعين أن تفهمي ما هي الحرب.

- أرجوك يا جدي فأنا لم أنم طوال الليل محاولة أن أفهم.

- ماذا أردتِ أن تفهميه يا حفيدة أليتا؟

- ما حاولت أن أفهمه كثير يا جدي، ولكني الآن أريد فقط أن أعرف لماذا أسميتموه بمكروفيتش العظيم؟

ميكروفيتش هذا يا أماندا لم يكن مجنونًا كما ترينه الآن مهزومًا وضائعًا. ميكروفتيش كان طبيب الوحدة التي خدمت بها. آه لو رأيتِه يا أماندا كما رأيته لأول مرّة، كان شابًا لم ينتمِ أبدًا إلى عسكرية الجيوش الكريهة، مجرّد طبيب شاب ينتمي إلى العائلة الملكية المغدور بها في روسيا، وسيما يتفجر وجهه بالرجولة والكبرياء. بعد أن حاصرنا جيش الألمان وأصبحنا جميعًا أسرى في يد جيش الرايخ الألماني، لم نعلم كيف وجدنا ميكروفيتش بيننا رغم أن فرقتنا كانت فرنسية بالكامل إذا أمكن اعتباري والكثيرين مثلي، فرنسيين. كانت ليلة عاصفة بالمفرقعات، وكأن الألمان

يحتفلون بميلاد السنة الجديدة في ليلتنا التعيسة، بأكبر قدر ممكن من الأضواء التي أحالت الظلام إلى نهارٍ كامل. لنجده وسطنا يدواي جرحانا دون أن يتحدث مع أحدٍ. يبتر الأيدي والأرجل المصابة بسكين مطبخ، يكوي الجراح ويصرخ كقائد أوركسترا أصابه الجنون وحمى الموسيقى. وفي دقائق تحولت ملابسه المدنية إلى بذلة تقطر دماءً، ليبدأ في الغناء؛ ليموت من يجب عليه الموت منتشيًا. ويشاهد الأبطال سيقانهم وأيديهم تلقى بجوار أجسادهم وهم يبكون على أنغام لحنه الحزين. ومن بعيد، شاهدت ميكروفيتش وأنا فاقد القوة على الاستمرار فى هذا الجنون، لأخرج صورة جدتك وأقبّلها قُبلة الوداع، متمنيًا أن تكون هذه هي ليلتي الأخيرة في الدنيا. بينما عيني تملأها الدموع وقلبي يمزقه الحنين لكم، والأسف من غبائي الذي جاء بي إلى الحرب. لأجد ميكروفيتش الذي تعتقدين أنه لا يساوي كلبًا هزيلًا، يحتضنني ويبكي معي، فيبتسم كُلٌّ مِنَا للآخر، وكأن ضمته تلك أعادت لي الحياة. شعرت ساعتها وكأن جدتك أليتا هي من احتضنني، وهمست في أذني بأنها في الانتظار. فأعود أجري لأنقل له أصدقائي الجرحى، ويعاود هو غناءه ومهمته الرائعة في إنقاذ ما تبقى لنا من أجساد تعسة. وعندما أسرنا الألمان، وقف وحيدًا يحدثهم بكبرياء لا يعرفه سوى الشعراء أو المجانين. ميكروفيتش الذي لم يكن يتحدث الألمانية أبدًا، استطاع بإنجليزيته السليمة أن يتواصل مع قادة الألمان الذين أزعجهم أن يوجد كائن ما يستطيع أن يتحدث بثباتٍ كهذا أمامهم. الأعجب أنه استطاع أن يكسب ثقتهم كطبيب قادر على أن يصنع المعجزات بيد الجرَّاح الرائعة التي كان يملكها. ميكروفيتش هذا الذي تربنه الآن كطفلٍ ضائع دائمًا في عالم سُكرِه ووحدته، استطاع أن يقنع قادة الألمان بأنه دخل الحرب، لا ليحارب ضد أحد، ولكن ليتعلم

طب الحروب الذي ليس مثله طب، مؤكِّدًا أنه من أشد المعجبين بقائد الرايخ هتلر، والذي كان يدعوه بهتلر العظيم. لكن كل هذا لم يشفع له أبدًا، فكان يؤتى به كل ليلة إلى الحظيرة ليشاركنا نومنا في مزرعة للخنازير، احتجزَنا بها الألمان لشهور. رغم أن عددنا يزيد عن العشرين أسيرًا وأكثر من مائة خنزير لا يكفون أبدًا عن الصراخ والتغوط في وجوهنا، لكنه دائمًا يأتي مصحوبًا بصيحات فرحنا. جيوبه مليئة بعشرات الحبوب المهدِّئة التي يوزعها علينا كالحلوى، لتتركنا نصف مخدرين وطائعين تمامًا للألمان طوال اليوم التالي، ممتنين للحياة التي مازالت تحتفظ بنا ولأنطوان ميكروفيتش، الذي لولاه لكنا جميعًا إمَّا قتلى أو مجانين.

وعندما انتهى جدي من حكايته عائدًا بنظره إلى الشرفة الفارغة، باحثًا عن ميكروفيتش، انطلق صوتي بإلحاح أكثر:

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هو كما هو الآن؟ لينظر لي جدي إيمانويل متنهدًا وماسحًا عن خده دمعة غالبته دون أن يستطع كبحها:

- إنها الحرب يا أماندا. ألم أقل لكِ إنك لن تفهمي ياصغيرتي..

## ٤٣- منصور

ضحك مِنّي الحاج أحمد القفاص كما لم يضحك أبدًا. حتى كاد أن يقع أرضًا. قال لي بعد أن جفف دموعه من شدة الضحك: "جدك ده مش عايز يسيب حد في حاله" بالطبع لم أستطع أن أحكي له أن من كانت معي هي وردة التي يعتبرها كابنته. ولكنه بعد فترة صمت لم تطُل خرج فيها من هزلٍ لم يكن في طبعه، تنهَّد هامسًا: "جدك يطلب مؤانستك يا دكتور. هكذا حدَّثني عندما أتى لي في المنام. يشتاق الموتى لتذكُّر أحبابهم"، لتسبح عيناه في فضاء مكانه، ناظرة إلى الفراغ المشبع بما لا أرى، يصغى وكأنه يتتبع خطوات قادمة من عالمٍ آخر، لينظر مباشرة إلى عيني، متحدِّثًا بجفون لا ترمش:

الوجد سحر المحبين يا ولدي. مَن لم يشرب من نبعه هالك لا محالة. خلقنا الله لنحبه، وخلق المرأة للرجل لتعلِّمه ماذا عليه أن يفعل بقلبه، وخلق الرجل للمرأة كي تتدرب على أمومتها مع الرجل الذي يبدو لها غامضًا ولا يكف عن التذمُّر. أتعتقد أن جدك لم يعرف الحب أو حتى الخطيئة لأن الله قربه، أضاء له الطريق فنال الجائزة واهتدى إلى الطريقة؟ واهمٌ أنت يا صديقي العائد من السفر، فقلوب الأولياء لا تعرف نور الكمال إلا بمحبة مخلوقات الكامل، ومن يعرف الحب يصل حتمًا للمحبة.

نعم أحبَّها جدك الذي لم يرث جنون قلبه أحدٌ مثلك. حكايته شبيهة جدًّا بحكايتك. أتى وجلس في نفس مكانك من سنوات طوال لم يعد

لعدها طائل. بكى كثيرًا قبل أن ينفك لجام لسانه. فجدك لم يعد من فرنسا فاقد الذاكرة مثل حفيده الضائع في ألعاب تذكُّره المريرة. عاد بجمال وصفاء لم نعرفهما في أحدٍ قد سافر قَط، لكنه صامتٌ بلا لسان تقريبًا، وكأنه قد ترك القدرة على الكلام في البلاد البعيدة، ليعاود اكتشاف لسانه في بيتي الفقير هذا. في ليلة بلا قمر ينيرها كَليلتنا هذه. بكى كثيرًا، وابتسم من بين كل دموعه، فعرفت أنه الوجد لحبيب غائب. الرجل الحق لا يُظهر جوهره إلا عشق كهذا. لم يحكِ لي عن فرنسا التي حلُمنا بها جميعًا لمجرد أنه سافر إليها، لكن لسانه لهج باسم المرأة التي غيَّرته للأبد، وكأنه يعيد باسمها التعرُّف على الكلام. ردَّد كالمجاذيب: صوفيا.. صوفيا.. صوفيا. كررها كثيرًا جدًّا، حتى اعتقدتُ أنه محموم، أو أن الجنون قد أصاب أكثر أهل حارتنا حكمة وبهاءً. رددها حزينًا تارة وفرِحًا مرَّات، حتى غاب عن الوعي. ليسقط فجأة في إغفاءة كنومٍ قصير. أفاق منها على بشر ليس بعده بشر، فتحرجت أن أسأله عن البشارة أو المبشِّر، لكن النور الذي أضاء عِشَّتي وقتها، أعطى قلبي الطمأنينة التي تغني عن سؤالٍ لا حق لي في أن أسأله. وجدك الذي قام من غفوته فرحًا، توضأ وصلى ركعتين، أضاء بعدهما وجهه، حتى إنه من روعة حديثة وفرحتي بعودته للكلام، لم ألحظ أن المصباح قد نفذ وقوده، وأننا أمضينا بقيَّة الليل نتحدث على شعاع الضوء المنبعث من وجه جدك. وعندما تحدث العائد للكلام، استرسل بلا توقف أو تعب، دفعة واحدة كأن صوته صراخ مخاض ستتبعه ولادة حياة جديدة.

"لقد قابلتُ حواء يا قفاص. قالها وهو يحكي حكايته للمرّة الأولى والأخيرة. حواء الحقيقية التي خرجنا كلنا من رحمها. وحيدة كانت. تعيش في شوارع باريس الباردة، وكأن الله أراد أن يريها خلفتها التي ملأت الدنيا جريًا وراء السراب. وبينما ملايين هذه المدينة التي لا تنام ينتحرون جريًا وراء المال والجاه والسعادة، يبعث لها الله رزقها دون أن تسأل. هكذا فسَّر لي عقلي الضائع في ملكوت جمالها، قدرتها الغريبة على العيش والابتسام، وهي تحاول أن تفهّم المارة أنهالم تلدهم كي يحملوا كل هذا الحزن على وجوههم. هكذا رأيتها كدون كيشوت، أنثى تحارب كآبة الحياة بسيف ابتسامتها الرائعة، ترتدي ملابس مهرّج وتحاول إضحاك المارة، الذين حتى لا يلتفتون إليها وكأنها شبح لا يُرى، لتعود إلى مكانها الذي ابتدعته كحجر صغيرٍ لكائن ملائكي لم يتعود على قسوة البشر لكنه لا ييأس منهم أبدًا. مكان يحمي من البرد ولا يلفت الانتباه، أمام مدخل دكان مهجور، لكنها كانت تعود بعد كل محاولة فاشلة لشد انتباه المارة، أكثر حماسة وإخلاصًا، تبتكر أوضاعًا بهلوانية مؤلمة ومضحكة تعترض بها طريق المارة الذين يتعاملون معها وكأنها محض سراب. تصغرني كثيرًا هي وكأنها ابنتي، لكنها المرأة التي لم تُخلَق لي امرأة سواها.

في الليلة التي سبقت رؤيتي لها لأول مرّة، حلُمت حُلمًا غريبًا أو رُبَّما رؤية: كنت وكأنني في جبل أخضر تملؤه الأشجار ، لكنني ضائع ووحيد، أشعر بالجوع والبرد رغم شمس الله التي تنير الدنيا، أبحث عن طريق تعود بي إلى حارتنا ولا أفهم كيف استطعت أن أصل إلى هذا الجبل البعيد. وفجأة ربتت علي كتفي طفلة صغيرة وأشارت لي على طريق بين الأشجار، لا أعرف كيف لم ترَه عيناي مع أنه أمامي تمامًا. وكلما مشيت في الطريق، تختفي من جوارى الأزهار والأشجار، لتبدلها رفرفات فراشات وأصوات

تسبيح. حتى إذا وصلت إلى حجرة صغيرة لا يمكن رؤية سواها، دخلت فوجدت جسدي مسجىً في مقام كمقام سيدنا الحسين، ورأيت السيدة التي تحاول أن تجعل المارة في باريس القاسية يبتسمون، تقرأ لي الفاتحة. وعندما استيقظت وخرجت إلى الشارع، رأيتُها حقيقة لأول مرّة، فوقعت في غواية متابعتها، حتى أصبح يومي لا يتسع لشيء سوى الوقوف على ضفة الشارع الآخرى أتلصص عليها، مسحورًا، لا يهمني جوع أو مطر. وهي لا تقترب سوى من المارة العميان والمشردين الذين يأتون لزيارتها فتحتضنهم، بينما هم يمسدون شعرها ويربتون على جسدها النحيل، وكأنها أمهم التي يجب ودها والاطمئنان عليها، لتتشاركهم طعامهم والاستماع إلى شكواهم وأفراحهم.

شهور مضت على حالتي هذه. لم أميّز فيها الشتاء من الصيف. غادرها فيها عشاقٌ عابرون، حملوا لها الورود والهدايا، فأعطتها كلها لمساكين لم يُهْدَ لهم شيء في حياتهم قَط. إلى أن نفذت نقودي كلها، وطردوني من فندقي الرخيص، فأخذت ما تبقى من حوائجي التي لا تُذكر، وعدت لنقطة مراقبتي لملاكي على الضفة الأخرى من نهر الطريق. وعندما هدأ الوجود، وانتصف ليل باريس الصاخبة، رأيتها تعبر الشارع الذي كان يفصل بيننا كأنه البراح الذي بين السماء والأرض. كاد قلبي أن يتوقف من الرهبة، لتقترب مِني مبتسمة، فأتصبب عرقًا، وتصيبني الرعشة، لتنحني على حقيبتي الوحيدة فتحملها وتعاود عبور الشارع، فاتبعها دون إرادة ودموعي تتساقط من الفرح والوجد. وعندما أجلستني في مكانها الخفي، اقتربت مِني في حنان أمّ، وقبّلتني قُبلة أعادت ميلادي من جديد، فأرتميت في أحضانها ليتغيَّر العالم وللأبد. لأشم فيها عطر الجنة، وتتفتح عيناي على مشاهد النعيم كاملًا. في حضنها يا صديقي ما لا عينٌ رأت ولا

أذن سمعت؛ أصوات طيور ومناغشات قطرات ندى، أحلام مبهجة وأمنيات تتحقق، سعادة طفولة بريئة، وضحكات سُكر وطهر لا يوصف، لتطعمني بيدها تفاحة الجَنَّة المحرَّمة، فلا أُطرَد من الفردوس، لكني أكتشف طريق الرحمة والنور الذي لا يخفت، لتهمس في أذني: انتظرتك طويلًا يا زوجي الحبيب وأبو ابنتي التي لن تفهم ما بيننا أبدًا. لتغلق علينا الباب المؤدي للشارع الكبير، في قلب العاصمة الفرنسية. فنبقى في مكاننا الخفي لأيام أو شهور. أيقنت فيها أن رحمة الله وسعت كل شيء. إلى اليوم الذي استيقظت فيه فلم أجدها، ووجدت نفسي وحيدًا في مكانها الذي اختفت منه كل أشيائها، وكأنها كانت مجرَّد حُلم استيقظت منه على فاجعة وحدتي، ووجدت رسالتها كدليلٍ وحيدٍ على قِصَّتِنا.

(زوجي الحبيب، أشعر بنبض ابنتنا في أحشائي، لكنه اليوم الذي يجب أن ينتهي فيه كل شيء. إنه يوم عودتك إلى حيث كنت، ستجدني يقينًا عندما تحين اللحظة المناسبة. قريبة جدًّا سأكون.. هناك في نقطة مضيئة في قلبك).

عندها أطالع تذكرة سفري بالباخرة، فأكتشف أن موعدها قد حان بعد يوم واحد، وأنني أمضيت من عمري سنة لم أشعر بها أبدًا، فخرجت أبحث عنها كالمجنون في كل مكان في باريس، فلم أجدها. حتى مكاننا الذي أمضينا فيه إقامتنا، اختفى تمامًا، كان مكانه محل فاخر، لم يسمحوا لي بدخوله بمنظري الرث، ففقدت القدرة على الكلام، وركبت البحر يقتلني الجنون-والغضب، لأعود إلى«أبو السُّبَح» متعبّدًا إلى الله الرحيم، لعلَّ رؤيتي تتحقق فأصبح من أولياء الله الصالحين، وأدعو القوي القدير بأن يسمح لي بأن أجدها يومًا ما"

## -٤٤

رغم كل ما أكنه من حُبٍّ واحترام للعم أحمد القفاص، لم تقنعني قِصَّته عن جدي. كانت مجرَّد قِصَّة لا تخرج إلا من وهمِ القُدسية المستحيلة التي تنسجها عقلية البسطاء من أهل الحارة. الفقراء دائمًا في حاجة إلى أساطير تعطي لحياتهم الكئيبة نكهة تحقق المستحيل. إنها فقط مفارقة سخيفة أن أكون حفيد الرجل الذي يجعل كل شيء مستطاعًا. الفارس القادر على رد كرامة الحارة. العاشق الأسطوري الذي تقع في غرامه فتاة أسطورية مثله. ولي الله الذي تصل معجزاته إلى إنقاذ قديسي المسيحية القبطية القديمة. لأخلص إلى أن حكايات هذا الرجل الذي أصبحت سيرته تربكني، ليست سوى من خيال اهل الحارة. ولأول مرَّة بدأت أشعر بكُرهي لقدسيته التي تحاصرني لتجعلني دائمًا في المرتبة الأدنى. وليصبح احترامي ونفوذي خارجًا من رحم تقديس الجميع لجدي. ولأول مرَّة أتساءل عن جدية كل ما يحدث حولي. ما الذي أبحث عنه في كل هذا الهراء عن الماضي؟ ما الذي ستحمله لي سيرة أناس شبع الموت منهم؟ لأكتشف أنه لا فرق بيني وبين أم وردة الخَرِفة. كلانا يعيش في عالم منتهي الصلاحية، الفرق الوحيد بيننا هو أنه رغم ضياع ذاكرتي الشخصية، مازلت أحتفظ بكل الخبرات المهنية لطبيب ناجح. أحفظ عن ظهر قلب فصول المجلدات الطبية التي تزحم بيتي. أحمل قلب شاب وجسد رجل، هذا الذي أزاحت وردة عنه تراب تجربتي الفرنسية المريرة، مع سيدة لا أعرف عنها سوى صورة لا تعني شيئًا، وأطياف تنير في ذاكرتي

المريضة، تفرحني حينًا وتصيبني بالكآبة دائمًا. أستطيع الهروب بعيدًا جدًّا عن حارة «أبو السُّبَح» التي يسكنها الجنون. رُبَّما يختفي طيف جدي وحكاياته، ورُبَّما أيضًا تختفي خيالات أماندا لأبدأ حياة هادئة باحثًا عن السعادة.

وكأنك تستمعين إليَّ يا أماندا ولا يعجبك ما أفكر فيه عنكِ.. فجأة تعود إليَّ ومضات ذاكرتي، كضوء برق خاطف يوقف محادثتي لنفسي، فأشعر بجسدي في سريرك بتولوز: نور الحجرة مطفأ، والظلمة تحيط كل شيء، بينما صوت المطر ينشد أغنيته، صانعًا برعده فواصل وألحان، فأقترب منكِ وكأنني طفلٌ يبحث في ظِلِّك النائم عن مؤانسة، لكني أسمع صوت بكائك الذي تحاولين مغالبته، لتنفجري مرَّة واحدة بكل قوة تمتلكينها، وكأن سد دموعك، انهار بمجرَّد ملامستي لكِ. عندها أحيطك بذراعي وأقبِّل وجهك، فتبلل دموعك شفتي، وأشعر بملوحة روحك تتسرب إلى داخلي كهواء البحر، لتشيحي بوجهك عَنِّي وتتخلصي من ذراعي برفق، تتكومين على نفسك كجنين حزين، ويخرج صوتك ضعيفًا: "الوحدة قاسية جدًّا يا منصور. أنت لا تعلم كيف ينبت الشوك في سرير امرأة وحيدة. أعذرني، فأنا لا أحب أن أكون امرأة تمارس الكآبة في حضورك. فليس هناك ذنب أكثر من البكاء خوفًا، في حضرة رجل محب. لكنه الخوف الذي اعتاده قلبي عند قدوم الخريف. فعندما يبدأ المطر في التساقط ليغسل الدنيا، تتلبسني روح حزينة، وكأن الدنيا تبكي، وأشعر بقرب انتهاء مواسم السعادة "

وفجأة أيضًا.. تخرجني أصوات صراخ حادة من نشوة تذكُّركِ. فأجرى إلى النافذة المطلة على الحارة، يرعبني مشهد ألسنة اللهب المتصاعدة من

أحد المنازل، ومنظر الرجال والنساء المهرولين في كل اتجاه محاولين إطفاء النيران ببدائية ملء جرادل المياه وإلقائها على النار التي لا يوقفها شيء. ورغم هول المنظر، تتحول المصيبة إلى احتفالية تهرول فيها سيدات البيوت بجلابيب نومهن متمايلات، كأنهن يرقصن رقصة خاصة بالنار والخطر، ويتبادل الرجال التعليقات البذيئة عن نسائهم اللاتي كشفتهن الحريق، ناعين حظهم فيما أعطتهم الدنيا من بنات حواء. أتعرف على البيت المحترق، فتملأ نفسي فرحة شريرة، لا يقلل منها سوى أنهم أخرجوا زينب العارجة من بيتها حيَّة، كجنية شمطاء لا تموت أبدًا. كانت في ملابسها المحترقة، تشبه دمية عجوزًا مشوهة، احترق شعرها المحنَّى بالأحمر الدموي، فأصبحت صلعاء مضحكة، لكنها مازالت تمتلك نظرتها المرعبة. ومن بين كل الهرج الذي يحيط بها، سلطَتْ نظرها عليَّ بعد أن تركوها ملقاة على أرضية الحارة مع ما تبقى من أثاث بيتها المحترق. نظرتها النجسة ألهبت جلدي، نظرة أعادت لي كل ما سمعته عنها وعن عهرها، وكأنها تتهمني بحرق بيتها. فانسحبت مغلِقًا النافذة، لأذهب كي أفتح الباب الذي دق جرسه طويلًا دون أن أنتبه له، فتقابلني وردة ضاحكة، لتهمس في أذني قبل أن تدخل: "والنبي باين عليك شيخ زي جدك. واللي يجي عليك ما يكسبش أبدًا"

ويبدو أن ذكرى جدي قد أخافتها، فتفلت في صدرها الشِّبه عاري تقريبًا، ودخلت إلى شقتي برجلها اليمنى، بعد أن سمَّت الله، وعاودت الهمس في أذني: "ولَّعت في مقام جدك دستة شمع، وهو وعدني إنه هسيبنا في حالنا".

و قبل أن أتلقفها في أحضاني كحلٍّ أخير للهروب من جنون ليلتي الكئيبة، تكون زينب العارجة تحاول أن تدفع الباب لتدخل، فأرد الباب بأسرع ما يمكن، فأسمع صوتها قويًّا لا يمكن أن يصدر عن عجوزٍ هرمة مثلها:

"والله لأفضحكم يا ابن المجنون اللي دفنوه في مستشفى المجانين"

لتبدأ في ولولة وصراخ يلهي أهل الحارة عن البيت المحترق، ويتجمع الرجال والنساء أمام باب شقتي.

## -٤٥

لا يفل الصراخ إلا الصراخ. هذه هي الحكمة الجديدة التي تعلمتُها من وردة. فعندما تجمَّع الناس للبحث عن فضيحة تستطيع أن تمحي كل تاريخ أسرتي في الورع، وتضعني في مصاف أي رجلٍ له زلاته في الحارة يمكن معايرته بها وقت الحاجة، لتختفي لا محالة نظرات الاحترام التي يقابلني بها أهل «أبو السُّبَح»، كأول طبيب يخرج من شارعنا الفقير وحفيد الشيخ الذي تحمل الحارة اسمه فيعطيها قدسية وفخرًا؛ استطاعت وردة أن تنهي ورطتي بعبقرية وبداهة لا يمكن لأمثالي فهمها، فبدلًا من الاختباء وتركي وحيدًا أواجه الرجال والنساء المتنطعين بفضيلة الشرف الزائفة، فتحت وردة الباب وصفعت زينب العارجة على وجهها فألقتها أرضًا. لتبدأ وصلة عجيبة من اللطم والنحيب، تصرخ وتشق ثوبها، والدموع تنهمر من عينيها.

- إلحقوني يا ناس، أمي بتموت والدكتور ناصر مش راضي ينزل يشوفها.

لتنظر إلى السماء دون أن تتوقف عن اللطم:

- ليه كده يا رب، هو احنا علشان غلابه وملناش حد في الدنيا.

لترتمي أرضًا وتلثم يدي:

- سايق عليك النبي الحقني، والنبي يا دكتور ده أنا يتيمه ومَليَاش إلا هيَّ.

لتسقط أرضًا وتغيب عن الوعي.

وفي لحظاتٍ، وجدت الرجال والنساء يعتبون عليَّ، ويدعونني بين الرجاء والتهديد لعيادة المريضة التي على وشك الموت. وأمام هذا الجنون، نزلت وأنا أكاد أن أموت من الرعب؛ خوفًا من انكشاف أمري، تاركًا وردة بين يدي النساء يحاولن إفاقتها. فمنذ لحظات كانت أمها تقف متفرجة كالجميع على النار ومحاولات إطفائها، لأجد أم زيتون في غيبوبة ناتجة عن نقص السكر في دمها، فأضع لها السُّكَّر في فمها، وأعلِّق لها المحاليل الطبية، وأنتظر إلى أن تفيق. بينما وردة قد عادت للحياة كأن شيئًا لم يكن، تثرثر مع النساء والرجال، متحاشية حتى النظر باتجاهي. وعندما أفاقت المريضة، استأذنت في الانصراف مع السعيد إلى جلسة الحاج أحمد القفاص، تودعني الدعوات ونظرات الشكر من أهل الحارة المتجمعين لعيادة المريضة.

ليلتها أكثرنا جميعًا من التدخين حتى أرخى المخدِّر مفاصلنا، وأصبحنا في عالم تستطيع فيه الأرواح التناجي، فضحكت كثيرًا جدًّا من كل ما حدث، فضحت نفسي وفضحت وردة المسكينة. ومع ذلك لم يندهش السعيد ولا الحاج أحمد القفاص من سري الصغير، وكأنهم يعرفون الحكاية كلها دون حشيش يفك لجام لساني، رُبَّما تعجبوا قليلًا من مرض أم زيتون المفاجئ، المرأة التي سقطت في غيبوبة سُكَّر من أجل أن تنقذ ابنتها.

أنا فقط الذي مازال أمامه الكثير ليتعلَّمه من فنون هذه الحارة العصية على الفهم. أنا الغارق في الاختيار بين الأبيض والأسود فقط، بلا شيء لطيف بينهما يحمل صفات الخير والشر معًا. مازال عقلي يرفض أن يفهم كيف حرمت أم زيتون وردة من متع الحياة؛ منعتها من الذهاب إلى

المدرسة، وضنت عليها بمعرفة أبيها، وزوَّجتها لأول من طرقَ بابها طالبًا يدها، حتى لو كان مجرمًا اعتاد الإقامة في السجون، وفي نفس الوقت كادت أن تهلك من شدة الخوف عليها، رغم أنها امرأة لا تعيش في عالمٍ كعالمنا، لألقي ببراءة طفل سؤالي الذي أفاق أصحابي من نشوتهم.

- هي كان قصدها إيه زينب العارجة، لما قالت يا ابن الرجل المدفون في مستشفى المجانين..؟

ولأول مرَّة أكتشف أنني هو المقصود بهذا النعت، وأكتشف أيضًا أنني لا أعلم شيئًا عن أبي، وأنَّ أحدًا لم يذكر سيرته أمامي.

## ٤٦- أماندا

خرجت أتتبع أثر جدي إيمانويل الذي خرج على غير عادته، دون أن يتناول إفطاره. الأغرب أنه لم يقف ليتحدث مع أحدٍ من الجيران، كأن لديه موعدًا مهمًا. فقط كان يرفع يده محييًا ومطلقًا كلمة صباح الخير من فمه كرصاصة دون أن ينظر في وجه محدِّثه. من الوهلة الأولى عرفت أن جدي إيمانويل يعرف طريقه. حتى وصل إلى ساحة الكابيتول فينحرف ويدخل مقهى فلوريدا العتيق ليتبادل حديثًا خاطفًا مع النادل ليخرج سريعًا باتجاه كاتدرائية سان سيرناه. الحقيقة أنني لم أستطع أن أمنع فضولي من معرفة سبب دخول جدي إيمانويل هذا المقهى الذي لا يرتاده في الأغلب إلا السائحون الأجانب والاستقراطيون. عندما دخلت إلى المقهى وبدأت أقلِّب نظري في الجداريات الرائعة، ومنظر الطاولات المرصوصة بعناية بينما عدد قليل من الزبائن يشرب قهوة الصباح قارئًا الجريدة اليومية، لأجد النادل الأصلع ببطنه الضخم الذي يرفع المربول الأبيض النظيف الذي يرتديه يخاطبني بصوتٍ منخفض:

- صباح الخير يا آنسة، هل من خدمة أستطيع أن أسديها لكِ.

وبنفس الطريقة المهذبة التي حادثني بها، حاولت أن أستفسر عن الحديث الذي دارَ بينه وبين جدي

- صباح الخير، فقط، لقد كان بيني وبين جدي موعد هنا، ولكني تأخرت قليلًا. أعتقد أنني رأيت رجلًا يشبهه يتحدث لحضرتك.

أنتِ تتحدثين عن الرجل الذي حضر من دقائق ويتحدث الفرنسية بصعوبة.. أليس كذلك؟.

- نعم يا سيدي، أتمنى أن تتفضل بالمساعدة وتخبرني بالحديث الذي دار بينكما، فهو رجل عجوز ولا أتمنى أن يغضب مِنِّي.

- حسنًا يا آنستي، لقد حضر هذا الرجل، واتجه مباشرة إلى الطاولة التي اعتادت السيدة فاليري الجلوس عليها، ليقف أمامها شاردًا. وعندما سألته إذا كان بينه وبين السيدة موعدًا، فإنه يستطيع أن يجلس لانتظارها، لكنه بدلًا من أن يجلس نظر لي قائلًا: لو جلست لأنتظرها، فأعتقد أنك لن تعود إلى بيتك أبدًا، ليخرج ويتركني. هل أستطيع أن أسألك يا آنسة؟

- بالطبع يا سيدي.

- هل جدكِ في حالة نفسية سليمة؟

عندها تذكرت جدي الذي قد أكون فقدت أثره فرددت على النادل:

- نعم، نعم يا سيدي، لكن الحياة ليست سهلة كما نتصور أحيانًا.

خرجت أجري باتجاه كاتدرائية سان سرناه، تاركة النادل متعجبًا، ولحسن حظي رأيت جدي يدخل الكاتدرائية وفي يده حقيبة بها أرغفة خبز وأشياء أخرى لم أستطع تمييزها.

في الكاتدرائية الكبيرة، كانت أصوات الأرغون تضفي جوًّا خالصًا من الروحانية تدعمها الإضاءة الخافتة وصور القديسين. بحثت عن جدي في جنبات الكاتدرائية حتى وجدته. ولأول مرَّة في حياتي أراه جالسًا على ركبتيه أمام تمثال العذراء الحاملة المسيح طفلًا مشعلًا شمعة لها،

ومنهمكا في صلاة خاشعة (كنت طوال عمري أعتقد أن جدتي أليتا وروز هما المؤمنتان الوحيدتان في الأسرة، خاصة أن جدي طالما انضم إلى خاليّ بيدرو وألفونسو في مضايقتهما مطلقين النكات على المؤمنين والقديسين) ليخرج جدي إيمانويل، وأنا مازلت أتتبع أثره، حتى وصل إلى بيتٍ كبير يبدو عليه القدم كأنه من القرن الماضي، ورغم أن نوافذ البيت كلها كانت مغلقة، كان هناك ضوء خافتٌ ينبعث من باب البيت الموارب. لم يطرق جدي باب البيت، ولم ينتظر الأذن له بالدخول، فقط دفع الباب ليختفي في الداخل. وهنا لم أجد في نفسي الشجاعة لأن أدخل خلفه، لكنني أيقنت أنه لابد أن يكون بيت السيدة فاليري، وأن جدي إيمانويل قد حضر لمقابلة صديقه ميكروفيتش، ليعطيه ما يأكل بعد أن فقدَ مورده الوحيد للحياة؛ صديقته فاليري. وأيقنت أيضًا أن ميكروفيتش، وإن كان قد أصبح مليونيرًا بعد التركة التي ورثها، لن يستطيع أن يحيا دون أن يجد من يعتني به. غاب جدي إيمانويل طويلًا، وبدأت شمس صيف تولوز الحارقة تلهبني فقررت العودة. لكني في طريقي إلى البيت، بدأت أرسم في رأسي خريطة العودة.

مرَّ أسبوع كامل عليَّ بعدها، حاولت فيه بكل طاقة روحي أن أمنع نفسي من فضولها بالعودة إلى بيت فاليري الذي يعيش فيه ميكروفيتش العظيم. جدتي أليتا بتراث خبرتها الطويلة مع جدي، عرفت أنها لن تستطيع أن تمنعه من الخروج كل يوم لمقابلة ميكروفيتش. وبدلًا من أن يشتري جدي الخبز والطعام له، بدأت جدتي في طهي الطعام وإرساله مع جدي إيمانويل. أمَّا أنا فمرت حياتي خلال صباحيات هذا الأسبوع طبيعية تمامًا. أمَّا الليل فكانت ساعاته تمر عليَّ طويلة جدًّا معذبة بنفس الأحلام التي يختطفني فيها ملثمون ينتهكون جسدي ويتركون روحي معذبة

حتى الصباح. حتى كانت هذه الليلة التي نام فيها البيت كله، وحاولت أن أنامُ فهرب النوم، وتسلط عليَّ تمامًا هاجس الذهاب إلى بيت فاليري. ويبدو أن قدري في هذه الليلة كان لتتحقق أمنيتي الخاطئة. ارتديت ملابسي بسرعة وسرت كالمنومة بقوة أكبر مِنِّي، مستخدمة الخريطة التي كنت قد رسمتها في رأسي بعناية عند عودتي من بيت فاليري إلى بيتنا. وفجأة وجدت نفسي أمام البيت القديم، ودون أن أترك نفسي تستسلم لمخاوفها من البيت الذي يلفه الصمت والظلام، دخلت البيت كما دخله جدي إيمانويل دون أن أطرق الباب.

البيت من الداخل واسعٌ، لكنه كئيبٌ ومقبض. بحثت بعيني عن شبح ميكروفيتش فلم أجده، فبدأت التفرج على البيت؛ الكراسي الكبيرة الملتفة حول المائدة الضخمة ينيرها شمعدان مشتعل، صورة السيدة فاليري الواقفة مبتسمة في بروازها مررت في جسدي قشعريرة خاطفة، ولكن قبل أن أفيق من قشعريرتي، أحسست بيديّ ميكروفيتش تحتضناني من الخلف، فبدأ جسدي كله ينتفض وأنا أسمع ميكروفيتش يهمس في أذني "أخيرًا عدتي يا فاليرتي الصغيرة.. كيف تستطيعين أن تتركي كلبك العجوز ميكروفيتش المسكين يحيا بدونك" ينهمك بسرعة في تقبيلي واحتضاني ليجردني من ملابسي، بينما أنا ضائعة في خوفي، لأشعر بجسد رجل لأول مرّة يحتويني، بينما هو يهمهم بكلمات روسية لا أفهمها، ولكنني وأنا في قمة نشوتي وخوفي، التقطت عيني تمثالًا للمسيح مصلوبًا موضوعًا فوق المدفئة، وتذكرت بسرعة أنها أول مرّة يستجيب لي، وتذكرت دعائي له يوم عيد ميلادي.

خرجت من بيت فاليري وميكروفيتش وأنا أشعر بدفقة لا حدود لها من الحرية. نسمات الليل المنعشة تسعدني، فانطلقت أقفز في الشارع كغزالة لاهية. لم يشغلني إذا كان ميكروفيتش قد اكتشف حقيقتي أم لا. سنوات عمري آن ذاك لم تجعلني أفهم أي مصيبة كان من الممكن أن تحدث إذا أعطتني هذه الجولة طفلًا من أب مثل ميكروفيتش، كان الأهم بالنسبة لي هو هذا الشعور بالحرية الذي لم أختبره في سنوات عمري الستة عشر. لتختفي أحلامي المزعجة، واختفى أيضًا الملثمون من أحلامي، واستطعت خلال عامين كاملين بعد هذه الحادثة، أن أرى عالم الذكور بطريقة مختلفة. بدأت روحي وجسدي خلالهما يصبحان أكثر قدرة على الاحتمال والانتظار للنضج الكامل.

شهدَ البيت في هذه الأثناء حدثًا هامًا ومختلفًا. فبالإضافة إلى جدي إيمانويل وجدتي أليتا وروز وخالي بيدرو الذي أصبح محاميًا شهيرًا وعضوًا بارزًا بالحزب الشيوعي الفرنسي، لكنه ظَلَّ وحيدًا دون أن يجد رفيقة تبعد عنه إشاعات أنه مِثلي؛ أحضر خالي ألفونسو زوجته «تسعاديت» الجزائرية ذات الأصول الأمازيغية لتعيش معنا. والذي لم يجب عليه فقط أن يذهب إلى مدينة تيزو وزو الجزائرية ليطلب يدها من والدها، بل أيضًا أن يشهر إسلامه ويمضي بكامل إرادته ليقطع عضوه كالمسلمين. خالي ألفونسو الذي عب من خمر الدنيا ما لا نهاية له وامتطى مئات النساء، لم يفهم كيف أن فتاة رائعة الجمال كتسعاديت (متفتحة وتتحدث الفرنسية بهذه الطلاقة)، استطاعت أن تحافظ على بكارتها وتدافع عنها ببسالة. ومنذ الليلة الأولى التي رآها فيها، ابتسم معتقدًا أن ليلته ستنتهي بطعم عربي خالص معطر بأنفاس شهرزاد ألف ليلة وليلة، فرقص أمامها كما لم يرقص، واحتضن أكرديونه كأنه يراقصها هي فقط

تحت القمر، ولكن كل رقصه وعزفه لم ينتزعا إلا ابتسامة خفيفة من فم تسعاديت، لتختفي من السهرة تاركة خالي ألفونسو معذبًا. لتبدأ شهور من المناورات بينهما. فقد فيها خالي ألفونسو شهيته للحياة وللموسيقى. ويا للهول استطاع شيء في هذه الحياة أن يوقفه عن شهوة الطعام. فنحف خالي ألفونسو الذي عاش حتى الاربعين من عمره كدبٍّ نهم.

كنت أستمع لجدتي أليتا تحدِّث روز الجميلة في المطبخ وهي تتلصص على خالي الحائر:

- لم أتخيل يا روز أن ابني هذا سيوقف نهمه شيء أبدًا.

- إنه الحب يا أليتا.

- أو لا يكفيني يا روز ما احتملته في حياتي من الحب ومجانينه.

- أليس هو ابنك أيتها العاشقة التائهة دومًا.

- نعم يا روز أعلم أنهم كلهم أبنائي، وهذا ما يزيد خوفي.

فتضحك جدتي روز حتى تدمع عيناها.

ذهب خالي ألفونسو إلى الجزائر ليعود، فيكتشف استعدادي للسفر لباريس؛ لأدرس القانون كخالي بيدرو، ولأكتشف الشخص الآخر الذي أصبح عليه خالي ألفونسو. عاد خالي من الجزائر إنسانًا مختلفًا تمامًا؛ غيَّر اسمه وأصبح «عبد المجيد قاسم»، نحيفًا، ومتزنًا، يبتسم للجميع، بينما تمشي أمامه تسعاديت ببطنها المنتفخ وبشعرها الأسود الفاحم وعينيها الواسعتين الرائعتين، ترفع رأسها ناظرة إلى السماء وتنادي جدتي بأمي أليتا الحبيبة. ورغم التخوف والحذر الذي أبدته جدتي أليتا من تسعاديت، إلا أنها فهمت أن المرأة التي حولت ابنها هكذا لابد أن تُحترم.

وخلال السنين التي عاشتها تسعاديت في بيتنا، لم تنقطع عن عادتين هامتين: حب أسرتنا، وإنجاب الأطفال في شهرها السابع. وكأنهم متعجلون للحياة. الآن بعد أن مات جدي وانقطعت صلتي بأبي، وأخذت الحياة مِنّي خالي بيدرو المنشغل بالسياسة والقانون، مازالت تسعاديت وخالي عبد المجيد القاسم وأبناؤهم الخمسة هم أعز ما تبقى لي أنا وليزا من ذكريات عائلتي الجميلة المجنونة.. قليلًا.

## -٤٧

باريس المدينة الحُلم. مدينة القهوة والمخبوزات الصباحية التي استطاعت أن تهدي روحي السعادة والسلام. المدينة المليئة بالمتسكعين والمهاجرين، الحاملين للأمل كحقيبة ظهر لا يمكن الاستغناء عنها. مدينة الأدباء والرسامين والسهر. المدينة التي للأكل فيها قواعد، وللعشق فيها عوالمه السحرية، ويستطيع القمر فيها أن يكون صديقك الشخصي. العجوز المتصابية بفتنة ودلال. الساحرة التي تكتب شعرًا ولا يمكن فيها ملاحظة قطرات الندى. باريس التي احتضنتني كعاشقٍ لحوح، لتهديني حياة المدينة الجامعية المليئة بالطلاب من جهات الدنيا الأربع، مصدقين قيم الإخاء والعدل والمساواة، وفاتحين قلوبهم للمدينة التي ستملأ قلوبهم بالذكريات.

ورغم أنني لم أستطع مواصلة دراسة القانون كما خططت لي العائلة، إلا أن دراستي لعلم الاجتماع أعطتني متعة ونضجًا. وككل الأيام السعيدة، انتهت سنوات دراستي سريعًا، تاركة لي مخزونًا كبيرًا من الذكريات السعيدة. كان لي في هذه الأيام الكثير من الأصدقاء والعلاقات الرومانسية العابرة. وفي باريس تعلمت أن أحب، فصنعت علاقات غرامية صغيرة وسريعة مع شبان تحمل ذكراهم دائمًا الابتسامة. كان من الممكن جدًّا أن أجد من بينهم زوجًا رائعًا، شابًا ما أحلُم معه أننا ذهبنا للجلوس حول مائدة العشاء مستمتعين بالموسيقى والنبيذ الفاخر، لنكتشف آخر جلستنا بأننا أصبحنا عجائز ولنا ولد وبنت تخرجا من

الجامعة، ولكنني كنت على قدرٍ كبيرٍ من السذاجة لأيقن بأن الحياة مازالت أمامي طويلة وبأنه بقليل من الحظ، أستطيع أن أحصل على زوجٍ محترم أستمتع معه بأيام شيخوختي كجدتي أليتا.

وكعادة كل أيام الهناء، مرَّت أيام باريس بسرعة، لأعود إلى تولوز محمَّلة بأشواقٍ لأهلي الطيبين وأملي في أن لا أفارق تولوز أبدًا، متذكرة منظر جدتي التي مازالت تشتاق إلى العودة لقربها بن عيشة ولا تستطيع؛ لأنها لا قدرة لديها لتواجه ما تبقى من أحباب سيتهمونها بجريمة الاغتراب، ولا قلب لديها كي تبكي كل من ماتوا دون أن تقول لهم كلمة وداع أخيرة، وقبل كل ذلك خائفة من أن تموت هناك فيدفنوها بعيدًا عن قبر ابنتها صوفيا وزوجها إيمانويل، الذي أوصى بأن يُكتَب على شاهد قبره "هنا قبر إيمانويل سانت كلارا وزوجته الحبيبة أليتا.. شخصان استطاعا أن يعرفا مكان الجنة في حياتهما على الأرض موصيًا أيضًا بأن لا يوضع شاهد القبر إلا بعد أن يوضع تابوت أليتا بجوار تابوته مباشرة.

إذًا عدت إلى تولوز، واستطعت أن أحصل على وظيفة محترمة كأخصائية اجتماعية بقسم الأورام بمستشفى تولوز، بمساعدة بسيطة من خالي بيدرو الذي كان يملك شبكة كبيرة من العلاقات. كنت خلال فترة دراستي قد تدربت أكثر من مرَّة في أماكن مختلفة كأخصائية اجتماعية. عملت قليلًا بملجأ للأطفال ومستشفى للأمراض النفسية وبيوت للعجزة، مستمتعة بالحصول على الحنان من أكثر المخلوقات شقاءً في هذا العالم. كنت أيضًا عضوة نشِطة بجمعية "الأيادي البيضاء" لمساعدة مشردي الشوارع الذين كانت أمي واحدة منهم، محاوِلة أن أكتشف: لماذا اتخذ بعضهم قراره العجيب، بأن يعيش وحيدًا بالشارع، رغم أن الكثير منهم

يستطيع أن يعيش في الدفء كالآخرين؟ لأكتشف أن هذا العالم مليء بالفلسفة والجمال، ولأشعر أيضًا هؤلاء الذين نصرُّ على أنهم مختلفون، لا يختلفون عَنِّي كثيرًا. فقط أشعر بينهم أنني أكثر صدقًا وبساطة.

في يومي الأول لاستلامي العمل، حاولت أن أبدو أكثر انضباطًا وجدية. هنا في فرنسا يطاردنا دائمًا شبح أنه يجب أن نعطي الانطباع بأننا جادُّون منذ اليوم الأول. استبدلت بنطالي الملتصق بجسدي، وملابسي الشبابية، بملابس أكثر تحشمًا، واضعة مكياجًا بسيطًا، ونظرت لنفسي في المرآة، راسمة ابتسامة خفيفة وواثقة. وفي المستشفى، استقبلني المدير استقبالًا مرحِّبًا ليقدمني للمشرفة عليَّ "مدام برجيت" والتي على العكس، استقبلتني بابتسامة تهكُّم وتحفُّظ واضح. تفحصتني برجيت بعين خبيرة، فشعرتُ أن نظرتها تخترق جلدي، وتشعر عظامي بالقشعريرة، لتقودني إلى مكتبٍ صغير (والذي أصبح بعدها مكتبي رقم ١٣ بالدور الثالث)، لأبدأ من لحظتها حياتي المهنية الجديدة.

مرحبًا بكِ يا آنسة أماندا، أنت خريجة المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية بباريس، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي.

- أتعلمين أنها نفس المدرسة التي تخرجت منها منذ ثلاثين سنة.

- إذًا سيكون لدي الكثير لأحكيه لكِ عن المدرسة التي أعتقد أن الحياة بها لم تتغير كثيرًا.

أعتقد أنه رُبَّما يكون اثنان أو ثلاثة على الأقل من أصدقائي قد درَّسوا لكِ، ولكن دعينا الآن من ذلك، ولنتحدث قليلًا عن العمل.. ماذا تعرفين عن الموت يا آنسة أماندا؟

ورغم أن السؤال الغير متوقع من هذه السيدة المتحفزة قد فاجأني، إلا أنني حاولت أن أرد بشكلٍ مهني تمامًا.

- أرجو من حضرتك أن تعذريني، أعتقد أنني لم أفهم سؤالكِ تقريبًا.

لترد برجيت وهي تغلق ملف أوراقي المفتوح أمامها، لتضعه بحقيبة أوراق تحملها متحاشية أن تنظر في عيني:

نحن هنا في قسم الأورام نحارب دائمًا الموت. مهمتنا كأخصائيين اجتماعيين أن نساعد مرضى القسم على أن يتفهموا أنهم في حربٍ حقيقية حتى النهاية. وحتى مع علمنا بأننا نتعامل مع مرضى محكومٌ عليهم بالموت بعد أشهر ورُبَّما أيام، إلا أننا لا يجب أن نشعرهم أبدًا بأنهم ينتظرون النهاية. نصيحتي لكِ أيتها الشابة أن تجعلي بينكِ وبينهم دائمًا حاجزًا يحمي روحك من المرض. هنا ستحبين أطفالًا وشبابًا وشيوخًا تعلمين أنهم لن يكونوا معك قريبًا. رُبَّما سيذكّرك أحدهم دومًا بأقاربك أو أحد أحبابك. فلتستمعي لنصيحة امرأة أمضت نصف عمرها في هذا المكان المشئوم. لا تحبي أحدًا.

لتمد لي يدها واقفة، ودون أن تبتسم تنظر في عيني مباشرة قائلة:

- أتمنى لك عملًا موفقًا.

## -٤٨

الأيام الأولى بالمستشفى كانت شديدة الصعوبة، فملاحظات برجيت لي كانت لا تنتهي. كانت تجلس بجواري تستمع إلى حديثي مع المرضى، لتبدأ في تدوين ملاحظاتها. كان هناك دائمًا أشياء لم أؤدِها كما يجب. في البداية لم أكن أفهم ماذا أفعل في هذه الملاحظات التي لا تبدو منطقية.

(كنتِ أكثر تفاؤلًا مع هذا المريض، أعطيته انطباعًا بأن لديه مجرَّد نزلة برد. إن تقارير الأطباء عن حالته المتأخرة ستصدمه.... كنت متشائمة للغاية مع المريضة. كيف لكِ هذه القدرة على أن تحيلي حياة مسكينة ستموت على الأكثر بعد ثلاثة أشهر إلى جحيم هكذا..... آنسة أماندا، رجاء لا تتقمصي دور مهرج السيرك لتنزعي ضحكة من فم المريض، فهذا أمر لا يليق بأخصائية اجتماعية محترمة).

كنت دائمًا لا أعجبها. ومن يومي الأول للعمل معها حرمت عليَّ تمامًا الانفراد بالمرضي في أسِرتهم، متعللة بأن قلة خبرتي قد تصنع كارثة. كنت أعود كل يوم إلى البيت لأحبس نفسي في حجرتي وأبكي. استطاعت برجيت أن تعطيني إحساسًا قويًّا بأنني لا أنفع لشيء في الحياة. ويومًا بعد يوم بدأ الغضب ينمو في صدري، كنت أتمنى أن أصفعها على وجهها. وفي أحيانٍ كثيرة، أتطلع إلى سكين المطبخ مقررة أنه يومًا ما سأضعها في مكانها الذي تستحقه: قلب بربجيت الأسود، لأستمتع بمنظر دمائها الزرقاء تلوِّث كل شيء، فأصيح مجنونة من النشوة بانتقامي، لكنني في كل مرَّة، كان يملؤني فيها الغضب فأنتفخ كبالون أحمق، كنت أهرب إلى الحمَّام وأبكي خجلة

من ضعفي وجبني. كنت أُراكِم كرهي لبرجيت كطبقات من فولاذ تقيد جسدي. وخلال كل هذا الوقت، كانت تراقبني جدتي أليتا صامتة. كانت قد أصبحت أكثر عجزًا بعد موت جدي إيمانويل، أكثر صمتًا وحكمة، تمضي ساعات النهار في الاستماع إلى أحاديث مطولة بين جدتي روز وشبح جدي إيمانويل الذي أخبرهما أنه ينتظرهما ليذهبوا جميعًا إلى ملكوت الرب. ورغم ذلك كانت تتابعني بعينيها، مكتشفة تعاستي التي حاولت أن أخبئها. ومن شدة كربي، بدأت النحافة الشديدة تصيبني كطوفانٍ، فتحولت إلى شبه شبح رقيق وهش. ومع ذلك كنت أحاول أن أقنعها بأن أموري كلها على ما يرام، فأختلق القصص عن الأدوار الهامة التي يسندونها لي في العمل. ونجاحاتي التي يشيد بها الجميع، ولكنها دائمًا كانت تنظر لي ولا تبتسم.. فقط تستمع وتصمت، مرَّة واحدة فقط ردَّت عليَّ بعد حكاية طويلة أنهيتها بضحكات هستيرية.

أنتِ تكذبين يا أماندا. للأسف لم تمتلكي موهبة أمك في التمثيل حتى تخدعي أليتا العجوز. أنت حزينة كسجينٍ مظلوم.

لتتنهد مكمِّلة:

يبدو أن قدري أن أدافع عنكم حتى النهاية. لتقوم وتغلق باب حجرتها حتى الصباح وتتركني حائرة.

استمرت حياتي الرتيبة بالمستشفى، وبدلًا من الاستمرار في صمتي ومحاولاتي لتنفيذ تعليمات برجيت التي لا أفهمها، قررت أن أضرب بها عرض الحائط، فصنعنا أنا وبريجيت حربًا لا تنتهي. وعلى عكسي تمامًا، كانت تلك الحرب بيننا التي تدمر أعصابي عصبًا عصبًا، تجعل بريجيت تزهر، كامرأة سادية وجدت أخيرًا ضحيتها المبتغاة، وكأن سعادتها

الحقيقة لا يمكن خلقها إلا بالنظر في عيني الممتلئة بالدموع، ورغم كل هذا الشقاء، استمتعت بتوجيه أحاديثي مع المرضى بالطريقة نفسها التي كنت أستخدمها لمصاحبة مشردي الشوارع بباريس، حاولت أن أكون طبيعية وأترك نفسي تكتشف طريق صداقتها مع المرضى. أستطيع أن أدعى أن ذلك ساعد المرضى كثيرًا كما أفادني، ولكن برجيت لم تستسلم أبدًا. بدأت تعليقاتها ككلماتها قصيرة ونافذة تطاردني بعد أن كفت عن إعطائي النصائح فاشلة.... مختلة..... لا أفهم كيف استطاعوا أن يأتوا بكارثة مثلكِ هنا" كنت أتظاهر بأني لا أسمعها واستمر في العمل، ولكن حتى مع استراتيجيتي الجديدة هذه لم أصل إلى السلام المهني الذي حلُمت به. استمرت نوبات بكائي الليلية وفقدت الشهية تمامًا، وبدأت زياراتي للأطباء الذين أجمعوا على خلو جسدي من الأمراض العضوية، ووصفوا لي قائمة لا تنتهي من مضادات الاكتئاب والمهدئات.

وأثناء زيارة روتينية لمريضة، وبرجيت تجلس بجواري تدوِّن ملاحظاتها لتقدم دليلًا كتابيًا على انحرافي المهني لمدير المستشفى، بينما لا تكف عن ترديد كلمة فاشلة، حدثت المفاجأة التي لم أتخيلها أبدًا. لم تدخل والدة المريضة المنتظرة، دخلت مكانها سيدة عجوز تتكئ على عكازها، مغلقة خلفها الباب بشدة، متفحصة برجيت بعينيها التي تبرق كعيني ذئب لتجلس موجهة خطابها إليها:

- إذًا أنتِ العاهرة التي تحيل حياة حفيدتي إلى جحيم.

ألجمتني تمامًا رؤية جدتي أليتا، فلم أدرِ ماذا عليَّ أن أفعل. برجيت التي فاجأها أيضًا كلام جدتي، ردَّت بعد دقائق استجمعت فيها خبرتها في التعامل مع أهالي المرضى قائلة بصوتٍ ثابت:

- أستطيع أن أتفهم أيتها السيدة مقدار غضبك لحالة حفيدتك، ولكنني أحب أن أوضِّح أنك لابد أن تكوني أخطأت برقم الحجرة. هنا مكتب الرعاية الاجتماعية بالمستشفى. تستطيعين أن تعطيني اسم حفيدتك، وأستطيع أن أتدبر موعدًا لك مع طبيبتها المعالجة، لكننا الآن في جلسة مع مريضة ولا يسمح لحضرتك بالتواجد داخل هذه الحجرة.

جدتي أليتا التي لم يعجبها رد برجيت الآلي انتظرت لحظة لترد:

- إذا أنت كما توقعتك تمامًا، مجرَّد آلة ناطقة، لا ترى في البشر إلا مجرَّد مرضى مثلها، ورغم أنك تبدين لي مخلوقة شديدة التعاسة لا تستحق إلا الشفقة، فلا يسعني إلا أن أطلب منك أن تتوقفي عن مضايقة حفيدتي الجالسة بجوارك، لتعلمي أن امرأة تحمل دمًا حارًا مثل دمي تستطيع أن تجعلك تستمتعين بفضيلة الصمت ما تبقى من حياتك.

لتقوم متكئة على عكازها وتقترب من بريجيت التي مازالت تعاني من الصدمة، فترفع قبضتها في وجهها، وتنظر إليها طويلًا قبل أن تبصق على الأرض، ناطقة نفس الكلمة التي طالما كوتني بها بريجيت دائمًا: "فاشلة" لتتحرك متجهة إلى الباب، لتلقي نظرة أخيرة على برجيت قائلة:

- أتمنى أن لا تَربني مجددًا، لأنه لن يكون خيرًا أبدًا.

يبدو لي كثيرًا أن كيمياء البشر شيء معقد للغاية، فلا أعلم كيف استطاعت مقابلة جدتي هذه مع برجيت أن تجعلها تتحاشاني تمامًا.

لتبدأ مرحلة جديدة لحياتي في المستشفى.. أصبحتُ فيها حُرَّة.

## ٤٩- منصور

يقولون إن الحمى أصابتني ثلاث ليالٍ. تناوبَتْ فيها وردة وأم محمد زوجة السعيد، تمريضي، وأنني هذيت كثيرًا جدًّا، وأنني أخبرتهن بالكثير من الحكايات المضحكة، وأنه من المؤكد أن ذاكرتي قد عادت. فبخلاف الكثير من الحوارات التي نطقها لساني بالفرنسية، مكرِّرًا كلمة أماندا، الذي استنتجت وردة أنه اسم امرأة فرنسية، حكيت الكثير من أحداث طفولتي، وفضحت الكثيرين من أهل الحارة، التي كانت متعة التجسس عليهم لعبتي المفضلة، ناجيًا من العقاب دائمًا؛ لأني حفيد الشيخ أبو السُّبَح، ولي الله التقي الذي سُميت الحارة باسمه تشرُّفًا وبركة.

وأنا... ماذا دهاني؟ لماذا عذبني بشدة معرفة موت أبي مجنونًا؟ لم يضايقني الشعور بأن جدي رُبَّما كان كاذبًا في حكايته الوهمية عن امرأته الفرنسية العجيبة، تمامًا كما لم يزعجني أن تموت جدتي البعيدة مشردة وموسومة بالعهر على أبواب بيوت الدعارة الفرنسية، ولكن أليس كلاهما مصابًا بجنونٍ ما؛ هي أصابها جنون العشق فضاعت في سراب المستحيل، وارتكبت خطيئة الثقة بالعدو، وهو أصابه جنون الفشل في العشق، فهرب إلى المنطقة التي لا يمكن محاسبته فيها أبدًا؛ الزهد في الحياة والتصوف. أمَّا أنت يا أبي، فأي جنون أورثتني إياه، ولماذا دفنوك في مستشفى المجانين كما لا يدفن أحد؟ هل كان جنونك مُعديًا لهذه الدرجة فخشوا من تسربه لباقي البشر حتى ولو مما سيتبقى من رفاتك؟ فدفنوك في المكان الذي نفي إليه كل الذين عرفوا الحقيقة. (حقيقة

الحياة التي عرفوا سرها فزهدوها لنطلق عليهم اسم "مجانين" لأنهم يذكِّروننا بجهلنا الأبدي عن الحياة). ما الحقيقة يا أبي.. ما الحقيقة أيها الرجل الذي حتى لا أتذكَّر ملامحه؟ وما علاقتك بالنهاية الحتمية التي تنتهي بسلسال عائلتنا للموت موسومين بالاختلاف؟ ولماذا كان موتك في تلك العجوز الجميلة التي سحبتنا إليها جميعًا فردًا وراء فرد.. الأرض البعيدة المعجونة بحليبٍ وعسل: فرنسا. وكأنها ليست ببلادٍ تحمل بشرًا مثلنا.. مجرد أناس عاديين يحلمون ويفرحون ويموتون بلا فهم لسبب كل هذا، ولماذا نحن دون كل البشر نُساق إليها مسحورين كالخراف، وهي لا تجد فينا دائمًا مُبتغاها، فلا تتوقف عن نحرنا بسكينها الثلم، تقطع أجسادنا وتلقيها في العراء، وتبحث عن دماءٍ جديدة لتُلمّع بها نصل سكينها الصدئ دومًا. وأنا.. كيف دخلت تلك اللعبة التي لابد أنني كنت أعرف نهايتها، ولماذا اخترعت ضياع الذاكرة كعقابٍ وملجأ؟ أي حقيرٍ كنته يومًا ما، وأي حقيرٍ أكونه اليوم وأنا أستجدى نظرات العطف من أناس أشرف مِنّي كثيرًا؟ حتى لو وصفتهم بكل الصفات المشينة لكي أثبت لنفسى أنني الوحيد المميَّز.

ومن مكان بعيد كحُلم، سمعت صوت أم محمد تهمس لوردة:

- ياعيني يا ابني، الحمى رجعتله تاني يا وردة.

فأشعر بقطعة النسيج المبللة بالماء البارد توضع على رأسي، فيرتعد جسدي، لتنحني عليَّ وردة وتقبِّلني في شفتيَّ، فأجهش بالبكاء، وأسمع صوت بكاء السيدتين المكتوم، فأتأوه من الألم.

لتصمت الأصوات من حولي لفترة أعتقد فيها أنني قد متُّ، فأفتح جفني بخوفٍ. رُبَّما لأشاهد جثتي، فأجد جدي منتصبًا أمامي واضعًا يده على رأسي، ناظرًا إلى السماء البعيدة متمتمًا:

"فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

يكررها كثيرًا جدًّا، وكلما زاد إعيائي، يزيد هو منها، حتى شعرت أن روحي تُنتزع من جسدي انتزاعًا. فأصرخ وأصرخ وأصرخ، وعندها يمرر يده على جسدي كله، قبل أن يقرأ المعوذتين بين يديه اللتين كومهما أمام فمه، لينفخ في وجهي نفخة أعادت لي الحياة، وأسمعه يتمتم في أذني:

- طهور يا ولدي إن شاء الله.

ليقبّلني على جبيني ويرحل، فأغمض عيني، وأذهب في نومٍ أبيض عميق، أفيق على أثره متعرِّقا بشدة، وفي جسدي تسري عافيةٌ لم أعرفها في حياتي.

## ٥٠- منصور

إذًا عادت إليَّ الذاكرة بنفخة من رجلٍ ميت، لأفقد ملجأي الذي هربت إليه كشخصٍ بذاكرة بيضاء، كطفلٍ وليدٍ لا لوم عليه. الحقيقة مريرة جدًّا، والأشد قسوة منها هو أن تتلقى ماضيك كله دفعة واحدة، كجدارٍ صلبٍ يهبط على رأسك فيحطمه، لكن الروح لا تفارقك. فتكمِّل حياتك زحفًا برأس مسحوقة. ولأول مرَّة أرى من حولي كما كان عليَّ أن لا أراهم. انكشف الغطاء يا جدي، فكشف لي عورة ما كنته، وانزاح تراب النسيان الكثيف الذي راكمته على قلبي لهرب من العذاب. بنفخة تكوَّنت الروح وتعلَّم آدم الأسماء، وبنفخة عادت الذكريات كطوفانٍ قاتل لا يمكن الوقوف في وجهه.

أبي لم يمت في مستشفى المجاذيب، لكنه اختفى منها دون أن يعرف أحدٌ مكانه. في آخر زيارة شاهدته فيها، كان قد بدأ فعليًا في التلاشي. أصابته نحافة عجزَ الطب عن فهمها. حتى إنه عجز عن حمل أكورديونه الذي لم يفارقه معظم فترات حياته، فأيقنت أنها ستكون آخر مرَّة أراه فيها. كان مُخرِجًا مسرحيًّا وعازف أكورديون من طراز بديع. درس الإخراج المسرحي بباريس، وعرض أحد أعماله بالكوميدي فرنسيس. ورثت عنه عشق الحكايات والسفر. الرجل الذي ربَّاني كنبتة ضعيفة في إناء من الكريستال، بعد أن قررت أمي الرحيل عن دنيانا، لأن الملائكة لا مكان لها سوى الجنة -كما كان يقول-. أبي لم يمت أبدًا كما أعلم يقينًا، لكن رُبَّما اختفت روحه في مكانٍ ما بين السماء والأرض. وجدوا ملابسه ملقاة

على الأرض وكأنه انسحب منها نحو السماء. أقامت المستشفى تحقيقًا مطوَّلًا، لم يصلوا بعده لأي شيء. كل مداخل المستشفى كانت مغلقة ومراقبة بالكاميرات. آخر من شاهده كانت ممرضته الفرنسية التي أعجبت بفنه وعشقته، بعد أن شاهدت أحد عروضه المسرحية، أخبرتني أنها جمعت له الكثير من أزهار حديقة المستشفى الباريسي للأمراض العقلية، لعلَّها تخفِّف عنه نوبة اكتئابه الحادة، وعندما دخلتْ عليه حجرته للمرَّة الأخيرة، وجدَتْه جالسًا أرضًا، يحتضن الأكورديون وكأنه يحاول أن يتوحد معه، كان أشبه ما يكون بشبح من زجاج: نحيف جدًّا وقابل للكسر من ضمة واحدة. فوضعت الأزهار في الإناء بصمت وخرجت، دون أن تحرك هواء الحجرة خوفًا من أن تُفتِّت جسده النحيل.

كانت حكايته حادثة أفردت لها الجرائد الفرنسية صفحات، وتحوَّل مرضه واختفاؤه للغز، فوضعوا أكورديونه في متحف المستشفى كتذكارٍ من المريض الذي لا يشبهه أحد، فنان المسرح الذي أبكى الفرنسيين بألحان أكورديونه كما لم يفعل مغترب قَط. أمَّا في الحارة التي تحمل اسم والده الولي، اخترع أحمد القفاص حكاية قبره الذي دفنوه فيه بالمستشفى، لأن من يموت لابد لجثمانه من قبر يزوره أحباؤه، حتى لو أصبحت المستشفى كلها قبرًا كبيرًا جدًّا، قبرًا يليق بابن شيخه «أبو السُّبَح».

أمَّا وردة الطيبة، فلم تحمل لي ذاكرتي عنها سوى خبرٍ مؤكد؛ زواجها من عصام القرن، زميل فصلي في مدرسة الرشاد الإعدادية بشارع محمد فتحى بالمنصورة، الشخص الوحيد الذي اختار السجن كمكان لرزقه ووسيلة لكسب العيش. عصام الذي لم تسامحه الحياة أبدًا على جريمة

يتمه.. تمامًا كوردة. (رُبَّما هذا ما دفع بأمها لتزويجها له، يتيم ليتيمة. كلاهما شرب نفس الكأس المُرّ ويعرف كم هي قاسية الحياة). وعندما سرق عصام للمرّة الأولى، احتضنه السجن كبيتٍ لم يكن له أبدًا، وعلمه المساجين أن العالم قد يكون به الكثير من الآباء والأمهات. حتى ولو لم يكونوا صالحين أو يستطيعون إهداء السعادة. هناك من يستطيع احتضانك حتى لو ليغتصبك، فقرر رد الجميل لهم بجعل أيام سجنهم أقل إيلاما. عصام يبيع المخدرات في السجن. تجارة مربحة وعملية، تنسيه آلام جسده لتهريبها. يضع عصام الحبوب المخدرة في أنبوب كبير ويضعها في شرجه، ويكفي ظهوره أمام قسم البوليس. ليدخله المخبرون للحجز. أصبح وجهه مُغريًا لهم بسجنه. هكذا كان يقول لي. أليست هناك وجوه طيبة ووجوه شريرة. وجوه مريحة وأخرى داعرة. وجهي يثير شهوة البوليس لحبسي. رائحتى تثير نباحهم فيلتفون حولي كصيد ثمين. وأنا الطريدة والضحية لا أقع في أيديهم هكذا بسهولة. لابد أن أعطي للعبة أثارتها. أمارس مشاغبة الهرب والفشل فيه. لأسمح لهم بتذوق طعم الانتصار. المساجين يدفعون كثيرًا جدًّا في حبوب تسمح لهم بالخروج من السجن. حتى ولو بأرواحهم فقط. المستجدون في الحبس من أبناء الأغنياء، يدفعون في حبة مخدر واحدة ما يكفي مصاريف وردة وابنتها لشهور."ورغم تعاطفي الشديد مع عصام. أتساءل الآن يا وردة: ما ذنبك أنتِ وابنتك البريئة في كل هذا؟

## ٥١-

لم يلاحظ أحد أن الذاكرة قد عادت لي. لكنها رغم الألم الذي صاحبني بعودتها، أضاءت لي نورًا ولو شاحبًا في نهاية النفق الطويل، لأكتشف أن أهل الحارة لم يكذبوا عليَّ، وأن ودهم كان صادقًا دومًا. رُبَّما لأن واقعهم من البساطة بحيث لا يستطيعون إخفاءه، أو رُبَّما أن رذيلة فقرهم المدقع طغت على كل الأخطاء البشرية الممكنة، فهبطوا إلى أرض الحارة برذيلة واحدة كآدم، ليعيشوا هم وأولادهم إلى الأبد في همِّ التكفير عن خطيئة فقرهم، دون التفكير في محاولة للخلاص. ليبدأوا فنَّ ممارسة الرضا بواقعهم المرير وإدمان تعذيب الذات، هذا الرضا الذي رفضناه أنا وأسرتي، فكان هروبنا الدائم من الحارة إلى السفر. ورُبَّما هذا أيضًا الذي جعلهم يحترموننا أو يخافون مِنَّا. لأننا كُنَّا دائمًا نمثِّل الحُلم الذي يخشون الإنصات له. وعندما تعود أخبارنا المحزنة إليهم، يعاودون دفن رؤوسهم في أرض الرضا والقناعة، محتفلين بنجاتهم الخاصة من أقدارنا التي لا يستطيعون فهمها.

هذه كانت تأمُّلاتي وأنا أشاهد عصام زوج وردة الذي أتى لزيارتي. عصام الذي كنت شريكًا في جريمته التي لم أُعَاقب عليها، فببساطة: كنت أنا المورِّد الدائم للحبوب المخدِّرة، كصديق قديم وطبيب، أستطيع أن أوفِّر له بضاعته الرائجة في السجن. هذا الجميل الذي لم يَنسه لي أبدًا، دون أن يعلم أنني أجعله يدفع أغلى مقابل يستطيع رجل مقايضته؛ وردة التي حرمني منها تعليمي وفقرها، والتي كانت فكرة أن أتزوجها وصمة عار للحارة كلها.. فكيف يتزوج حفيد شيخ حارتهم الورِع بابنة راقصة

مجهولة الأصل. كان ذلك كفيلًا بضياع شرف الحارة، فرقصت الحارة كلها وهي تزف وردة لعصام، لكنني استطعت بذكاء إبليس أن أعيد الأمور إلى نصابها. ساعدت عصام في إيجاد طريقة لكسب رزقه، وأرضيت الحارة وناسها، واستمتعت بحب وردة وجسدها. أعلم الآن وأنا بين يديّ عصام يحتضنني بصدق وحب أخ، كم أنا سافل، لكنهم لم يعطوني أبدًا الاختيار.

مازلت يا عصام مليئًا بالرجولة؛ طويلًا، ووسامتك لا تشي أبدًا بقدرك في الحياة، لكن سعالك زاد كثيرًا يا صديقي، وجهك شاحب للغاية ولا تواظب على أدوية السُّل الذي عالجتك منه لمرَّاتٍ. عتمة السجن ورطوبته، تعيده دائمًا لك كهدية لا تُرد. ورغم أنك تخبرني بأن كل الأمور على ما يرام، وبأن وردة تدخر لك من حصيلة زياراتك المتكررة للسجن ما يكفي لفتح محل صغير تعيش منه، إلا أني أشعر بقُرب النهاية يا عصام. تخبرني بأنك تعبت من لعبة الصياد والفريسة مع الشرطة، وبأن ابنتك تكبر، وأنه لابد لها من أن تجد أبًا محترمًا يسلِّمها إلى عريسها ليلة الزفاف، وبأن زيارتك القادمة للسجن هي الأخيرة، وأنك بعدها سترحل بزوجتك وبنتك بلا عودة إلى القاهرة. لتذوب في هذه المدينة الكبيرة. وينتهي إلى الأبد ماضيك المشين. فأعود لاحتضانك بعينين دامعتين، متمتمًا باعتذار لم تفهم معناه، لتدمع عيناك أيضًا، وتخبرني بأنه لم يساعدك في حياتك بصدقٍ أحد مثلي.

تركتْني زيارة عصام في حالة مزرية من القرف. شعرت بأن لون جلدي أخضر، وبأن لي رائحة خنزير، فجلست لساعات محاولًا أن أعيد لبشرتي لونها، حتى أدميت جلدي من كثرة ما غسلته، لكن روحي مازالت لها نفس الرائحة الكريهة.

## -٥٢-

عندما ضاقت في وجهي الأماكن، ذهبت إلى ضريح جدي، متمنيًا مؤانسته. جلست في عتمة الضريح، منتظرًا أن يطل عليَّ بنوره، أن أسمعه مجددًا يرتّل آيات القرآن، أن يتجلى لي كعادته كلما شعر بكربي. طال انتظاري. لكنه لم يطل على أبدًا، وكأنه غضب من جريمة عودة ذاكرتي وانكشاف الحقيقة. قرأت له الفاتحة، وحاولت محادثته، استدعيت أحزاني محاوِلًا البكاء، لعلَّه يعطف عليَّ، لكن دموعي كانت عصية، كأنني استبدلت عيني بحجرين من زجاج. لتشعرني رائحتي بأنني شيء نجس لا يجب تواجده في هذا المكان الطاهر، فخرجت أبحث عن سعيد لأكتشف أنه سافر للإسكندرية أثناء مرضي، وأنه لن يعود قبل أيام. حتى وردة اختفت من حياتي بعد ظهور عصام، ولم أكن في حاجة إلى حنان أم محمد الذي سيزيد شعوري بالعار. فحملتني قدماى إلى المكان الذي أعلم أنه سيكون غرفة لتعذيبي. في هذه الليلة التي اختفى منها كل ما كان يؤنس روحي؛ القمر، وصيحات لعب أولاد الحارة، ووردة. ليتلقفني خُص أحمد القفاص، كتائهٍ في الصحراء على أبواب واحة.

دخلت الخُصَّ الذي تنيره الشموع، فوجدت عم أحمد يقرأ من ديوان الإمام علي، ووجهه تائه في فضاء الوجد. فما إن رآني حتى أنشد:

وتحسب أنك جُرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

داؤك منك وما تبصر دواؤك فيك وما تشعر

تحسب أنك جُرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

جلست بجواره ناظرا للأرض، فوضع يده على رأسي ومسَّد شعري، فارتميت على صدره وبدأت في البكاء. والرجل بين صمت وطمأنينة، يرفع وجهي وينظر إليَّ، ليقول:

لا سامح الله من لا سامح نفسه.. ليكمِّل: الآن فقط عاد لنا ابننا الغائب.. حمد الله على السلامة يا دكتورنا الغالي.

ويقوم ليعد لي الشاي، تاركًا نفسي لنفسي.

عمي أحمد القفاص، خريج جامعة فؤاد الأول. الشاعر والأديب الذي سحرته جنية الغربة مثلي. صديق جدي المقرَّب. الرجل الذي غزى أوربا حاملًا ديوان المتنبي، وجيتارًا، وعلبة سجائره. الرجل الذي أوقف الإنجليز ليخطب لهم في "الهايد برك" عن ليلى العامرية وقيس ابن الملوح. ليصل صوته إلى قصر الملكة، فتستدعيه الملكة ليجالسها، ويحكي لها الحكاية بإنجليزية أنكرتها عليه. الرجل الذي أبكى ملكة إنجلترا وأستراليا وكندا ونيوزلندا، من حكاياته عن العاشقين. فطلبتْ منه أن يكتب لها اسمها بالعربية على الصورة التي جمعته معها. لتأمر حرسها بعدها بترحيله من التراب الإنجليزي؛ لأنه خطر جدًّا على شعبها، ليعود فيبني خُصه بنفسه، محاوِلًا أن يعيد بناء الأمة، كاسبًا قوت يومه من عمل يديه ليكون غانديًا آخر. فيعلمه أهل حارتنا أن الحشيش أحد نعم الدنيا التي تفضَّل الله بها على عباده، ويعلمه جدي أن الطريق إلى الله قريب جدًّا، يبدأ من القلب وينتهي إليه، فيرفض الزواج؛ لأنه لا يريد أن يلهيه أحدٌ عن حبيبه الذي وجده قريبًا جدًّا وودودًا أكثر مما يعتقد بنو البشر.

يصب عم أحمد الشاي ويسألني سؤاله الذي لا أعرف له إجابة:

- وماذا إذًا يا ابن الأكابر؟ هل وجدت الإجابات التي حيرتك؟

الحقيقة مُرَّة يا جدي. تذكرت الآن أنني كنت أناديك دائمًا يا جدي، فسامحني عن كل مرَّة ناديتك فيها باسمك. الآن رؤيتي أكثر وضوحًا، وبصيرتي أكثر شفافية، ومع ذلك يمتلكني شعورٌ برغبة رهيبة في الهروب. أريد أن أجري عاريًا من نفسي إلى البحر، أدفن نفسي في رماله وأنتظر المد ليغمرني، فأذوب كقصور الرمال السحرية الكاذبة. لا أستطيع النظر في وجوه أهل الحارة. لقد كنت حقيرا جدًّا يا جدي. كيف سمحتم لي بأن أُجمع كل هذا الشر في قلبي.

- من لم يكن له خطيئة فليرمها بحجر يا منصور.

لكن كل شيء انتهى الآن. لم أعد صالحًا لشيء. يجب عليَّ الهرب من الحارة؛ لأنني لا أستحق كل هذا الحب. أستحق فقط أن أعيش وحيدًا ومنفيًا في بلاد لا يعرفني فيها أحد. سأتحاشى شراء المرايا لأنني لا أريد أن أنظر لنفسي، وسأخاصم الدنيا التي لم اعد أنتمي إليها. منتظرا موتي الذي أستحقه وحيدًا، ليكتشفوا جثتي من الرائحة، ويدفنوني جيفة لا يدعو لها أحدٌ بالرحمة.

أتدري لماذا يحتفظ الإنجليز بملكتهم يا منصور. رُبَّما لأنها أنقى ما في الإنجليز. صدقني الملكة طيبة كأم وحبيبة. دم أسرتها نقي جدًّا. في عالم أصبح الجميع فيه هجين من أعراق، اختلاطها يؤدي للجنون. رُبَّما احتفظ بها الإنجليز ليهربوا من شعورٍ بذنب لا يستطيعون مسامحة أنفسهم عليه. الإنجليز دمويون جدًّا تمامًا كالفرنسيين الذي تعشقهم. عظمة الأمم الكبرى مبنية على قدرتها على سحق شعوب أضعف، لذلك احتفظ الإنجليز بالملكة كأمل وعلامة صفاء، أمل في أن يصبح شعبهم في يوم ما نقيًّا مثلها. وماذا عن الملكة نفسها يا صديقي الحائر؟ أليست

امرأة ككل النساء، تطلق صيحات الألم والنشوة عندما يجامعها الأمير؟ تغضب وتغار، ترتكب أخطاء صغيرة كالجميع؟ عندما شاهدتها في قصرها الملكي، لم تكن تختلف كثيرًا عن أي سيدة تعيش في حارة «أبو السُّبَح». رُبَّما لها بشرة شمعية وتاج مبهر، لكنها تنظر إليك كرجل. تمامًا كأي سيدة. تُقيِّم فيك وسامتك.. قوتك.. رغبتك في التحقق. تنظر في عينيك متسائلة: هل يستطيع هذا الرجل فعلًا إسعادي. ورغم أنها محاطة بمظاهر أبهة أسطورية، ترف لا يمكن وصفه، إلا أنها تتقي منها بشرنقة مشاعر إنسانية صارمة، مذكِّرة نفسها دومًا بأنها من بني البشر. ولولا ذلك لتحوَّلت لتمثال من ذهبٍ، برَّاق وجامد، بلا مسامحة لنفسها على فعلة أنها تتبرز غائطًا كريهًا كالآخرين. وبغضِّ النظر عن تلك الحكاية التي رُبَّما ابتدعتها لأعطى نفسي أهمية في حارة لا يعيش ناسها إلا على قصص ينتظرونها عن الآخرين ليتحققوا فيها. فالحكمة في حكايتي هي أنني صدقتها. كررتها كثيرًا حتى إنني الآن أستطيع أن أقسم لك بإنني لا أملك نفيها أو تأكيدها، والأهم أنني أيقنت أن الناس دائمًا يحتاجون لملك أو ملكة، وهم خيالي ما، يصوِّر لهم أن الكمال موجود فعلًا على هذه الأرض، وأنه يجب عليهم السعي إليه ليكون لوجودهم سبب.

عندها تنهَّد الحاج أحمد القفاص، وبدأ في تدخين الحشيش الذي أدمنه لينظر إليَّ نظرة غضب لم أرها في وجهه أبدًا.

- الحمد لله إن جدك مات قبل ما يشوفك يا منصور غضبان من الدنيا ومن نفسك لأنك اكتشفت حقيقتها. اكتشفت إنك إنسان زينا ممكن يغلط. طيب والناس الغلابة اللي انتظرتك وكلها أمل في إنك تداوي جراحها. الناس اللي حلمت بحلمك. اللي صبرت عليك يوم وراء يوم،

علشان تشوفك دكتور كبير تتحامى فيه من المرض ومن خوفها من الموت. الناس اللي حَبِتّك بجد لأنك ممكن في يوم تبقى قدوة لعيالها.

- يا جدي يمكن انا دكتور شاطر، بس عمري ما حلمت بإني اكون قدوة لحد. أنا طول عمرى نفسي اعيش على البحر. نفسي اعمل صياد من بتوع ألف ليلة وليلة. عقلي ماعَدش عايش في دنيتكم، ومعُنتش عايز حاجة منها.

إنت جبان يامنصور. عايز تهرب.. اهرب.. انت عارف السكة وعارف نهايتها. عايز ترجع فرنسا تدوَّر على اللي عمر ما حد لقاه في عيلتكم.. سافر يا ناصر. بس قبل ما تسافر هقولك إننا فعلًا آسفين يا ابني.. حبِناك واستنينا منك اللي ما تستحقهوش. قوم يا دكتور.. قوم يا ابني معنتش عايز أشوف وشك تاني.

## ٥٣- أماندا

الموت سكين الحياة، ينفذ للقلب ليخلِّصه من أحلامه التي لا تنتهي، فتتحرر الروح ويستريح الجسد. إنه شيء لطيف جدًّا. المشكلة لم تكن أبدًا لتكمن في الموت نفسه، المشكلة دائمًا ذلك الخوف الذي يحتوينا. صدقيني، شخص مثلي سيستمتع بالموت كما استمتع بالحياة. لا أدعي أنني اغترفت من متع الحياة حتى النهاية، فالحياة دائمًا عادية للغاية. فقط تستيقظين صباحًا لتُعيدي نفس التفاصيل اليومية. يعتقد الكثيرون أن ذلك ممل.. رُبَّما، لكن الحياة لا تكرر نفسها أبدًا. فقط نحتاج بعض الوقت والحكمة لنتعلم كيف نستمتع. وعندما نتعلم يكون الوقت متأخرًا جدًّا. أعلم أن حالتي ميئوس منها وأنني على أغلب تقدير ليس لدي إلا بضعة أشهر لكنني سأستمتع بها. لأذهب للموت فرحًا بدهشة اكتشاف الأشياء الجديدة..

صمت المريض الأربعيني الجالس أمامي ليعود لينظر إلى عيني مباشرة مكمِّلًا:

- تبدين لي إنسانة رقيقة جدًّا. أستطيع أن أرى الدموع التي تحاولين أن تمنعيها. هل تقبلين دعوة مريض بالسرطان على العشاء.

لم أستطع أن أمسك ضحكتي التي انفلتت من الطريقة التي دعاني بها إريك رينوه، المريض الوسيم للعشاء، لأرد على دعوته محاولة أن أكون لطيفة قدر المستطاع:

- لكنك تتبع نظامًا غذائيًّا خاصًا.

- غدًا هو آخر يوم لي بالمستشفى. سأخرج بعدها لمدة، نستطيع أن نتقابل بعطلة نهاية الأسبوع. أعرف مطعمًا صغيرًا على "قنال دي ميدي" يقدمون الكاسولاه التقليدية مع الفواجرا ونبيذًا أبيض لنهاية موسم الخريف. أعتقد أنه مكانٌ مناسب لسهرة لطيفة.

- كنت أتمنى أن أقبل دعوتك، ولكن مع الأسف هذا ضد ميثاق العمل الذي يجب على ان أحترمه.

وهل من المنطق والإنسانية أن ترفضي طلبًا لمريض ينتظر الموت. سأنتظركِ يوم السبت الساعة السادسة في ساحة الكابيتول. ستجدينني منتظرًا فوق رسوم الأبراج بالساحة.

أحيانًا ترسل لنا الحياة إشارات لا نفهمها إلا بعد فوات الأوان. هكذا كان أريك أيضًا علامة على قدري المحتوم. فكل الرجال الذين أحببتهم كان عليهم أن يتركوني عندما أتأكد فعلًا أنني أصبحت مجنونة بهم. من اللحظة الأولى لخروجي مع أريك رينوه تعامل معنا الجميع على أننا عاشقان منذ سنوات. بداية من الفتاة الصغيرة التي رجته أن يشتري منها ورودًا لحبيبته الجميلة، نادلة المطعم التي تمنت لنا عشاءً سعيدًا كزوجين محبين، حتى حارس عمارته الذي داعبه قائلًا:

سيد رينوه، كنت أعتقد أنك عازف عن صحبة النساء، ولكني الآن يجب عليَّ أن أنحني لذوقك الرفيع متمنيًا لكما ليلة سعيدة.

وهكذا وجدت نفسي في سرير هذا الرجل الذي أعطاني السعادة لشهور، كما أعطاني أيضًا أروع هدية تذكرني به إلى الأبد.. أعطاني أنتِ يا ليزا.

وبينما أنا في قمة سعادتي بهذا الرجل الرائع الحنون، كنت أتعذب بمعرفتي أنه سيتركني قريبًا.. تمامًا كمعرفتي بذلك الألم الذي سيخلفه لي فراق منصور الذي كنت أعلم أنه فراق حتمي.. هذه الفرحة وهذا الحزن.

استدعتني جدتّي أليتا وروز، طالبتين التحضير معهما لحفلة كبيرة، دعتا لها كل أصدقاء العائلة. ورغم أن طلبهما بدا غريبًا من سيدتين أصبحتا عجوزتين تمضيان أكثر من نصف يومهما في مخاطبة جدي الميت، إلا أنني وجدت في ذلك فرصة جيدة لقليل من البهجة ومناسبة لدعوة أربك للمنزل وتقديمه للعائلة. أمضت جدتاي أيامًا في التحضير لكل التفاصيل الصغيرة للحفل، بداية من إرسال دعوات مزينة بورود صغيرة ومذيلة باسم روز الجميلة وأليتا، ومرورًا بهذا الكم الهائل من الأزهار التي اشترتاها وأقفاص العصافير الملونة اللتي استعارتاها من الجيران حتى أصبح صوتها يبعث على الجنون. كان الحفل أكثر الليالي التي عرفها المنزل صخبًا. رقص فيها خالي ألفونسو أو عبد المجيد القاسم وزوجته تسعاديت وأولادهما إلى الصباح مع الأصدقاء والجيران، حتى خالي بيدرو الذي راهنت العجوزتان أنه لن يأتي إلا لدقائق ليمضي متحججًا بمشاغله، أمضى الليل كله معنا في حالة مزاجية رائقة نادرًا ما رأيته بها.

أرسلتا أيضًا لأبي في باريس فحضر هو وصديقته الجميلة التي قدمني لها واصفًا إياي بأنني أروع ابنة في الدنيا، ليحتضنني ويقبّل رأسي طالبًا مِني أن أسامحه على ذنوب لم أعتقد أنه اقترفها في حقي أبدًا. ورغم أن شيئًا ما أقلقني عندما أصرت جدتي على أن تختلي به في حجرة أمي ليعود بعدها إلى الحفل وأثر الدموع بعينيه، إلا أنني انتشيت كما لم أفرح في

حياتي وسط كل هذا الحشد الهائل من الجيران الذين كان حبهم يفيض بكل المنزل، ودون أن أشعر، وجدتني أقبّل أريك وأحتضنه أمام الجميع سكرانة بالنشوة.

جدتيّ أليتا وروز الجميلتان، كانتا كطفلتين يستعدان لرحلة عمرهما. فرحتان كما لم أرهما أبدًا. ترقصان وهما تقبّلان جميع الأصدقاء الذين شاركوهما رحلة حياتهما الطويلة بشقاوة وصخب. ولا تكفان عن النظر لبعضهما البعض والضحك، كأنهما استطاعتا أخيرًا مسامحة الدنيا عن كل الأوقات الصعبة التي تحملاتهما بتآمر أختين. لم أحصل في حياتي مع هاتين العجوزتين المدهشتين على حنان كما حصلت في ليلتي هذه. وباللمفاجأة السعيدة، أهدتني جدتي روز، القلادة التي ألبستها لأمي صوفيا يوم أن باتت معها ليلتها الأخيرة في مزرعة السيد فرنسواه. الشيء الوحيد الذي احتفظت به من ذكريات أسرتنا بعد أن هربت إلى الدير مقتنعة بأنها من قتل والدها السيد فليب الطيب.

وفي الصباح، وجدت جدتيّ أليتا وروز الجميلة، جالستين بأجمل ملابسهما، ممسكتين بيدي بعضهما البعض، ميتتين، وقد ارتسمت على وجهيهما، ابتسامة الطفولة، تاركتين لي هذه الرسالة:

"ابنتنا الجميلة أماندا، لم نستطع أن نتحمل إلحاح جدك إيمانويل لنرافقه إلى ملكوت الرب الرحيم أكثر من ذلك. سنرسل حُبَّكِ إلى أُمِّكِ صوفيا. نحبك ونتمنى لك حياة سعيدة. ستجدينا دائمًا بجوارك.

## -٥٤

تركني موت جدتّي في حالة من الدهشة والغضب. لم أستطع تقبُّل فكرة أن جدتيّ العجوزتين استطاعتا أن تخفيا عَنّي استعدادهما الاحتفالي للانتقال إلى العالم الآخر دون أن أشعر ودون أن تحذراني. لأجد نفسي ولأول مرَّة وحيدة في ذلك البيت الكبير الذي طالما ضجَّ بالصياح وروائح الطبخ الأسباني الرائعة، ليخيم عليه أطياف جدودي وأمي وحتى شبح ميكروفيتش العظيم وصديقته فاليري ورغم أن ذلك كله قد يبدو مجرَّد درب من الخيال ابتدعته مخيلتي الغاضبة من الوحدة التي اكتشفت فيها نفسي فجأة، خاصة بعد أن دخل أريك في غيبة مرضه الأخير. تلك الغيبوبة التي كان يستيقظ منها ناطقًا باسمي باحثًا عَنّي ومرسلاً لي ممرضة قسمه، فأجري كمجنونة تاركة مكتبي الذي عادة ما يكون به أحد المرضى، لأجده قد سقط في غيبوبته مرَّة أخرى، فلا أستطيع أن أخبره بحملي، مما سبَّب لي فضيحة مهنية كبيرة، استطاعت من خلالها مديرتي برجيت أن تبرهن للجميع أنها كانت دائمًا ذات نظرة ثاقبة في تلك الأخصائية الاجتماعية الشابة التي كنتها.

وأمام كل تلك الضغوط كان عليَّ أن أتقدم بطلب إجازة مرضية مفتوحة، محاولة الهروب من نظرات الشفقة التي يطلقها المتعاطفون معي، ونظرات الاتهام بالإهمال وعدم المسئولية من المهنيين الحديديين الذين تضج بهم حياة المؤسسات الفرنسية، لأحبس نفسي في البيت محاولة أن أسد أذني عن الضجيج الذي تحدثه أشباح منزلنا. ومع أنني لم أمتلك

أبدًا مهارة محادثة الموتى التي كانت تمتلكها جدتي روز الجميلة، إلا أنني بدأت أشعر بأن أهلي الذين تحولوا جميعًا إلى أشباح لا يكفون عن محاولة التلصُّص عليَّ، رُبَّما بدافع الاطمئنان، فحولني ذلك كله إلى مجنونة لا تكف عن الحديث إلى الهواء. حتى إنني اكتشفت مرَّة أن أطفال الجيران قد اعتادوا التجمُّع لمشاهدتي من خلف زجاج نافذة المطبخ المغلقة، وأصبح خروجي من البيت مغامرة محسوبة بمظهري الذي أصبح غريبًا بالنسبة لشابة لم تتجاوز الثلاثين عامًا. حتى إن مروري بالشارع ذاهبة إلى المخبز الذي اعتدت أن أذهب له مع جدي إيمانويل، قد صار عبئًا لا يطاق. اعتدت رائحة البيت والضوء الخافت، حتى أصبح هواء الشارع وأشعة الشمس يزعجاني بشدة. فاضطررت أن أخرج دائمًا مع آخر شعاع للنهار، واضعة منديلًا أخفي به أنفي، محاولة الاختباء من الجيران ونظرات تعاطفهم ومحاولاتهم المتكررة لمساعدتي. لم يكن لي في هذه الفترة إلا همَّان لا ثالث لهما؛ أن أغالب فقدان شهيتي، فآكل كي تأتي ليزا طفلة كاملة، وأن أعرف إذا كان أريك مازال على قيد الحياة أو مات.

وعلى طريقة جدتي روز، كنت أعتقد أنه لو لم يتصل بي أحد أصدقائي بالمستشفى، فعلى الأقل سيأتي طيف أريك ليخبرني بأنه مات كما فعلت فاليري صديقة ميكروفيتش، فأستطيع أن ألقي نظرة الوداع عليه بالكنيسة وأدع الجنين الذي ينمو في رحمي يتعرف عليه. لكن جرس التليفون الذي قلَّما كان يرن، لم يحمل لي أبدًا إلا صوت تسعاديت زوجة خالي التي لم تيأس مِنِّي ولا من طريقتي الجافة في معاملتها. وكلما زادت صلابتي في صدها زاد صبرها في احتمالي. حتى دق جرس الباب ذات مرَّة فوجدتها تقف أمامي صامتة ومبتسمة، وبدلًا من أن أغلق الباب في

وجهها كما اعتدت أن أفعل مع جيراننا، وجدتني أرتمي عليها باكية، وخلال خمس دقائق رميت لها بكل ما أحمله من هموم، وبدون أن تتبدل ابتسامتها، أخذت رأسي بين كفيها لتضعها على صدرها وتربت عليَّ، مغنية لي بصوتها الجميل فأكف عن البكاء.

## -٥٥

عشت في بيت تسعاديت وخالي ألفونسو أو عبد المجيد أيامًا هنية لم أعشها في حياتي كلها، ورغم كل ما رأيته من لحظات الحب في حياتي بين محبين عظيمين كجدي إيمانويل وجدتي أليتا، اكتشفت مع تسعاديت كيف تستطيع المرأة أن تحب، وكيف يستطيع حبها ذلك أن يصنع المعجزات. ورأيت إلى أي حد يصل الرجل إلى قمة السعادة في بيت ملئ بالأطفال والفرحة. كانت تسعاديت تهتم بكل تفاصيل خالي دون أن تُشعِره أنها تتدخل في حياته، تستمع له كأنها لم تُخلَق إلا لتستمع له، تعرف كيف ومتى تلمسه فتستريح روحه للمستها. ومع تسعاديت تعلمت أن أسمع حكايات ألف ليلة وليلة التي تحكيها وتمثلها بصوتها الرائع، فأدخل أنا وأولادها في عوالم لم أكن أحلُم أن أعيشها. حتى إذا حضرتني آلام الولادة انطلقت تحكي لي نوادر ولاداتها المتعاقبة فكادت تقتلني من الضحك، لأكتشف ليزا خارجة مِنّي كضفدع مضحك يغطيها المخاط والدم، لتحملها بين يديها وتنطلق في الزغاريد والغناء.

ومع الأيام وتسعاديت وأولادها وخالي عبد المجيد، نسيت آلامي، ترحمت على أريك وسامحته على موته، ووجدت في نفسي القدرة على أن أعود إلى بيتنا، بيت جدودي الذي كبرت فيه. ورغم أنني شعرت بأرواحهم تعود للتلصص عليَّ، إلا أنني كنت واضحة جدًّا معهم. ومن يومي الأول في البيت أطلقت صراخي فيهم، صائحة بأنني أحبهم، وأعلم كم يحبونني، لكن وجودهم يخيف ليزا الصغيرة فتنطلق في البكاء. لأفتح نوافذ البيت

كلها لشمس الصيف الساطعة والهواء المنعش، ليختفوا تمامًا من حياتنا لتبدأ حياة جديدة كرستها لليزا وأصدقائي الطيبين، الذين بدأت أتعرف عليهم مع الأيام دون أن أسمح لأحد أن يقترب من فراشي الذي تشاركني إياه ليزا. وبعد أشهر عديدة، عدت إلى العمل فلم أجد برجيت التي أُحيلت إلى المعاش، ووجدت الكثير من التعاطف وابتسامات الود، وبدأت أهتم أكثر بقراءة تاريخ فرنسا التي بدأت أشعر بانتماء حقيقي لها.

مستحضرة دائمًا أن البلاد التي استطاعت أن تحتوي أناسًا في بساطة جدي وتسعاديت، لابد أن تكون بلادًا عظيمة وشعبًا حقيقيًّا، وعرفت أن هناك دائمًا قواعد ما يجب اتباعها. رُبَّما تكون قواعد صعبة ومجحفة أحيانًا، إلا أن هناك شعبًا إنسانيًّا يسمح دائمًا بالتحايل عليها. وكما اختارت جدتي روز أن تذهب بكامل إرادتها إلى الدير لتمشي في سرب الراهبات تستمع إلى حكايات القديسين، قررتُ أن أعيش حياة هادئة بعيدة عن مهاترات الحب، واهبة حياتي لليزا التي بدأت تكبر كزهرة جميلة. إلى اللحظة التي ظهر فيها ذلك الشاب الأسمر الذي دخل مكتبي مادًا لي يده، مقدِّمًا نفسه كطبيب مصري متدرب جديد اسمه منصور. ليبدأ كل شيء في التغيُّر من جديد بعد ستة عشر عامًا مروا على فراقي لأربك مريض السرطان الذي مات تاركًا لي طفلة مجنونة مثلي اسمها ليزا.

## ٥٦- منصور

خرجت من خُص أحمد القفاص، أحمل عار الدنيا، فقررت الذهاب إلى بيتي وانتظار الموت خلف بابه الذي سأغلقه في وجه الحياة للأبد، مقررًا معاقبة نفسي بالموت جوعًا وعطشًا. كانت دموعي تشوش رؤيتي وتجعلني كسكران يتخبط في حجارة الطريق، لكن الضجيج الذي كان صادرًا من مدخل بيتي أعاد لي بعضًا من روح. شاهدت عصام القرن زوج وردة، يضرب شخصًا حتى كاد أن يقضي عليه، كائن بشري تعس، تكوَّم على نفسه كجنين ليتقي شر ضربات عصام القاتلة. وعصام بوجهه الآخر ينتقم من الدنيا وظلمها بضرب هذا الشخص، بينما وردة تولول مستنجدة بي؛ خوفًا من أن يقتل عصام الرجل ولا يخرج من السجن أبدًا. لم أعرف من أين أتتني كل هذه القوة التي جعلتني أحمل عصام، وأضعه داخل شقته وأغلق بابها عليه. عنفٌ تولَد في داخلي أقوى من عنف سنوات سجن عصام وشقائه. رغبة في أن أفعل أي عمل صالح أنقذ به نفسي أو الرجل المستسلم للركلات وألفاظ عصام البذيئة، وكأنه يضرب ويسب كل من ظلموه منذ طفولته. وعندما نظرت في وجه الرجل، عرفته، عبده الطيار ( أو هكذا يدعونه). أحد المجانين، ممن ينتمي أهله للحارة. أمه سيدة عجوز مازالت تبيع الخضروات في السوق لتعيله وتعيل نفسها، وهو مصاب بمرض نفسي لكنه مسالم جدًّا. لا هم له في الدنيا سوى مطاردة السيارات ومحاولة لمسها. شخص ودود وصامت في الأغلب رغم جنونه. يعرفه كل أهل المنصورة وخاصة رجال المرور منهم. فيتركونه

ينظم المرور عندما تهطل الأمطار أو تشتد حرارة شمس الصيف الحارقة. أحيانًا يمنحه أحد سائقي السيارات سيجارة فيدخنها بشغف لا مثيل له. يطعمه أهل الحارة جميعًا كأنه ابنهم. وهو ينام أينما يشاء ووقتما يشاء. لتبدأ رحلة بحث أمه المسكينة عنه، وتعيده إلى فراشه كطفل كبير. رُبَّما حظه العاثر (أو رُبَّما حظي أنا) من وضعه في طريق عصام العائد سكرانًا من سهرة سيئة على ما يبدو. فأكون أنا نديمه في ليلة لا تُنسَى.

عبده الطيار الذي يسيل من وجهه الدم، ببنطاله المبلل ببول الخوف، ينظر لي كطفلٍ يتيم تائه ومرعوب، فأمد له يدي وأدخله شقتي لتبدأ حكاية جديدة، ولكن هذه المرَّة مع عبده المجنون العاقل.

عبقرية الجنون في كونه الخروج عن المألوف الذي هو جنون في حد ذاته. فماذا عَنِّي أنا المصاحب للجنون في جسدي كإرث وهوية. أمام عبده الطيار المتقوقع على نفسه في الركن، لم أشعر أني أمام مجنون يحتقره الجميع. فقط شعور قوي ونافذ كسكين بأنني أنظر في المرآة. منظره المتصلب، حاضنًا ركبتيه بكلتا يديه، واضعًا رأسه فوقهما بلا حركة، جمَّدني في مكاني، فصرت مجرَّد ظِلٍّ لعبده الطيار المنهزم والمكوم أرضًا. ليستمر وضعنا هكذا لدقائق أو رُبَّما ساعات. (ما أهمية الساعات في الزمن الذي تتأكد فيه النهاية). ليرفع رأسه فجأة فيبدو لي عجوزًا بشعره الكث ولحيته الكثيفة، وعندما يفتح فمه بصعوبة يخرج صوته عميقًا:

- هات سيجارة يا ناصر.

أناوله السيجارة فيضعها بين إصبعيه ويمد يده لي، فأجثو على ركبتي وأشعل سيجارته وأخرى لي، ساندًا ظهري للجدار، أتابع الوحيد الذي سمحت الدنيا لي بصحبته، في الوقت الذي غاب عَنِّي الجميع حتى نفسي.

عبده الطيار يسحب أنفاسًا عميقة من السيجارة التي يلتهب وهجها ليخرج من فمه تيّارًا كثيفًا من الدخان الأبيض ليعود مباشرة ليلهبها مرّة أخرى. ليفاجئني.

- إنت فاكر إني مجنون يا ناصر؟

- محدش عارف يا عبده مين العاقل ومين المجنون.

- أنا أقولك. العالم كلهم مجانين إلا انا وأنت.

- إزاي بقى يا عبده؟

الناس بتوع أبو السِّبح مثلًا، كلهم مجانين، محدش عارف هو مين بالضبط، كل واحد عايز يبقى زي التاني بس خايف يرجع مايلاقيش نفسه.

- طيب اشمعنى انا وانت بس العاقلين؟

انا وانت بس اللي اخترنا. بس لو انت مش عارف انت عايش ليه تبقى ما تستهلش نعمة الحياة. لو انت مش قادر تفهم اللي حواليك تبقى غبي، مش كده ولا إيه؟

ينتزع كلام عبده المدهش والمنطقي بسمة مِنّي رغم كل عبثية المشهد، فأستمر في الاستماع إليه:

يعني عندك انا مثلًا. نفسي أفهم العربيات اللي عماله تجري في الشوارع، بتجري من إيه وليه.

- وعشان كده بتجري وراها وتلمسها.

ماهو كل ما اجري وراها والمسها، تهرب وتخاف مِنّي، زي ما اكون بلمستي دي هعور روحها، مع إنها لو خبطتني هي اللي هتاخد روحي.

- كلامك صحيح.

- العربيات عاملة زي الناس، بتخاف مِنّي مع إني عمري ما خفت منهم، ولا عملت فيهم حاجة.

- والناس بتخاف منك ليه يا عبده؟

إنت مجنون ولا إيه يا ناصر، الناس بتخاف مِنّي علشان أنا مجنون. السؤال مش كده. السؤال ليه الناس شايفاني مجنون؟

مش عارف يا عبده، إنت ليه حاسس إنك مجنون مع إني شايفك ماتفرقش كتير عَنّي مثلًا؟

- مش بقولك محدش عاقل غيري انا وانت. طبعًا انا مجنون علشان عايز أفهم ليه العربيات بتجري زي ما يكون في وحش بيخوفها. مع إني عمري ما شفت حاجة تستاهل إنها تخاف وتجري بالشكل ده.

- طيب انت إيه رأيك فيّ يا عبده؟

إنت إنسان طيب بس مجنون يا ناصر.

- ليه يا عبده؟

أصلك زيّي. مش عايز تلعب اللعبة على مزاج الناس. همًّا حطوك في الحارة علشان تعمل دكتور. بس من زمان وانت مش عايز تلعب بجد. عمَّال تلعب كده وكده. يعني مَنتاش مصدق إن في لعبة زيّي مَنتاش مصدق إنك دكتور. الأكتر انك رغم كل العلام إلى اتعلمته لسه عايز تفهم.

- والله باين كلامك صحيح يا عبده.

- شوف يا ناصر، هي البيضة الأول ولا الفرخة؟

- مش عارف يا عبده.

- لا البيضة ولا الفرخة، اللعبة هي الأول. قامت جت البيضة لعبت بيضة وجت الفرخة لعبت فرخة.

- يعني الدنيا دي كلها لعبة يا عبده؟

طبعًا يا ناصر، مشكلتك إنك عايز تلعب مجنون زيي. في حاجات محيراك وعايز تلاقي لأسئلتك أجوبة، بس مش مصدق إنه ممكن. خايف إن يكون فيه فعلًا أجوبة. الناس مش مخليينك تعمل اللي انت عايزه. مش مخليينك تبقى مجنون.. عارف ليه؟

- ليه يا عبده؟

أصل لو انت لعبت مجنون، مش دكتور زي ما هم عايزين يلاعبوك، كل واحد فيهم هيقول اشمعنى انا. يقوم كل واحد يعمل اللي هو عايزه، يعني كل واحد يلعب اللي نفسه فيه طول عمره بس خايف. يقوم إيه اللي يحصل يا ناصر؟

- إيه اللي يحصل يا عبده؟

- يبقى مفيش خوف أصلاً. ولما يبقى مَفيش خوف من حاجة مَنعرفهاش، تبقى خلاص اللعبة خلاص فِركِش. يعني يبقى مفيش لعبة أصلاً. مش بقولك انا وانت بس العاقلين مش مصدقني.

## -٥٧

لم أعد في حاجة إلى أن تبعثي لي أطيافكِ يا أماندا. الآن أمتلك قِصَّتنا الكاملة كما لم نحاول الاعتراف بها أبدًا. لم أكن لأستطيع الاستمرار في السير على جمر جنوننا المهلِك. لست قديسًا كجدك، ولست وليًّا صالحًا كجدي. وبالتأكيد لم أكن عاشقًا فرنسيًا يودعّ الدنيا بحب أخير لسيدة، كوالد ابنتكِ الجميلة. أنا بالكاد تمنيت أن أكون حبيبًا عابرًا، وجد فرنسا الحُلم في جسدك، لكنك كنتِ خطيرة جدًّا، حقيقية ومذهلة لشاب لم يعرف في حياته سوى تاريخٍ كاملٍ من قصص المجانين في أسرته. ( وهل كانت جرعة الجنون في أسرتك أقل؟).

أماندا.. هل أستطيع الآن أن أحكي لكِ حكايتنا. سأحاول أن أكون صادقًا ولو لمرَّة أخيرة. لا أعلم يا حبيبتي كيف حدثَ ذلك. الآن أخاطبك بحبيبتي رغم إصراري الدائم على كوننا مجرَّد أصدقاء. رُبَّما لأن معنى الصداقة أشمل وأكثر احتمالًا للتأويل. من اللحظة الأولى التي شاهدتكِ فيها تعملين خلف جهاز الحاسوب، عرفت أنه سيكون بيننا علاقة ستغيّر العالم في عيني، ولكن مهما بلغ جنوني، لم أكن أتخيل أبدًا ما سيحدث. كنتِ تبدين كوردة جريحة تلفك غمامة من الغضب والحزن النبيل. (أليس غريبًا أن أصفك كوردة رغم أنني عشت عمرًا في حارتنا أخون وأتلوَّن كي أصل إلى وردة بنت ابو السبح الأكثر ارتباطًا بواقع حقيقي وصادم). لتكون ابتسامتك هديتي الأولى، في سلسلة الهدايا التي ستصل بي إلى سريرٍ في بيتك الذي اعتدت أن لا يُغلَق بابه، لأنك تعيشين في حماية قبيلة من

أرواح أهلك المتوفين. كنت وقتها مجرَّد طبيب شاب يمضي فترة تدريب بالمستشفى. الأمور واضحة في عقلي بعد كل ما عرفته عن سحر فرنسا الأسود لعائلتي. كان حُلمي بأن أعود ناجحًا أهم من كل شيء، محاوِلًا أن أتحدى القدر الذي انحاز دائمًا إلى فرنسا، راسمًا وشم الجنون على كل من زار بلدكم من أهلي. لكني على ما يبدو كنت شديد السذاجة والغرور. مجرَّد شاب حالم يعتقد أنه باستطاعته تغيير قدره بالكثير من العمل والمثابرة.

وإلى الآن لا أعرف ما الذي أغراكِ بهذا الغريب الذي يعمل بصرامة وشغف وكأنه عبد لمرضاه وأساتذته. كانت سمعتي كطبيب قادر على الدأب تسبقني. أعمل ليلًا ونهارًا بلا ملل، وكأن العمل هو طوق نجاتي الوحيد، لدرجة أنني حصلت على جائزة المستشفى العلمية التي لم تُمنَح لمغترب قَط. كنت أؤمن أيضًا بأن مكان العمل مكان مقدس، وأن كل الفرنسيين أسياد يجب الحصول على رضاهم، وبأن علاقات الغرام يجب أن تكون بعيدة جدًّا عن مكان أكل العيش -كما يدعي المصريون-، فكيف استطاعت إذًا ابتسامتك الرقيقة أن تأسرني.

حدثَ ذلك عندما طلبتِ مِني التحضير ليوم استلامي الجائزة، لتصدميني بأنك تتحدثين معي بالإنجليزية التي تبحثين عن أحدٍ تمارسينها معه بطلاقة كطلاقة لساني. حيلة لطيفة ترضين بها غروري. (أشعرني ذلك لأول مرَّة بتفوقي في شيء ما عنكم كفرنسيين) لأكتشف بعد الكثير من جلسات شُرب القهوة والثرثرة البريئة، جسدي بجوارك عاريًا، يرتعش من المفاجأة في حجرة نومك. كنا قد أكثرنا من شرب النبيذ لكن ما أسكرني يومها ليس كل هذه الخمر الذي أكسب روحي نقاءً ولساني فصاحة، كانت

روحك تلف حولي كفراشة لا أستطيع الإمساك بها، فراشة عطرية لها وهج ينير العالم. فاقتربت دون أن أعلم أنني أنا الفراشة وأنكِ النار التي ستفنيني للأبد، ليصبح قلبي قلادتك التي لا أمل لها سوى التعلُّق بجيدك والمؤانسة بعطرك. يومها خذلتني رجولتي التي وتَّرها جسدي المرتعش، لتأخذي برأسي بين يديك وتحتضنيني كأمي التي ماتت ولم يحتضن رأسي بعدها أحد، ليملأني الأمان وأعود فارسك الذي لا يكف عن الركض فوق جسدك، محاولا أن أثبت جدارتي بإعطائك النشوة والسعادة. ودون أن أدري، بدأت الغوص في عالمك المليء بالماضي ومشاكل ابنتك المراهقة، ابنتك التي اكتشفت في علاقتنا ذريعة تسمح لها بأن تصبح حرة تمامًا مثلك في نفس سنها، وكأنها ستعيد قصتك مع أنطوان ميكروفيتش العظيم معي. ورغم أن نيران شكك لم تنطفئ أبدًا، لم أحاول أيضًا إطفاءها لأنني استمتعت كثيرًا بحيرتك التي تجعلك أروع امرأة في الدنيا. أستطيع أن أخبرك الآن (بعد أن انتهى كل شيء) بأن ذلك لم يحدث أبدًا.

و من الليلة الأولى اكتشفت أنك مسكونة حتى عظامك بماضيك. تطهو روحك حكايات الذين رحلوا ولا تستطيعين أن تنسيهم. كنتِ تتحدثين إلى جدتك أليتا وجدك إيمانويل كأشخاص يتتبعون كل تفاصيل علاقتنا. لم تكوني مجنونة بالتأكيد، لكنك لا تعيشين نفس العالم الذي يعيشه الجميع. تناديني بأسماء كل عشاقك الذين مضوا، في لحظة نشوتك. ومن بين الجميع كان استحضار صورة ميكروفيتش في جسدي هي القادرة وحدها على التحليق بك إلى السماء والهبوط بي تحت الأرض، لتصرخي: نادِني بفيلاري. كان ذلك مربكًا جدًّا لشخصٍ مثلي. كنت أشعر أنني أعيش مع أكثر من سيدة في نفس الوقت. أحيانًا تكونين روز الجميلة، وأحيانًا أمك صوفيا، وكثيرًا جدًّا جدتك أليتا. وكأن جسدك أصبح هو الوعاء

الذي يتبادل عليه سكان البيت من أشباح لا تريد مغادرته. وعندما أردت الهرب من كل هذا الجنون، لاحقتني دموعك التي لم أستطع مقاومتها، فعدت إليكِ ليس بسبب الخوف من افتضاح علاقتنا وتدمير صورتي بالمستشفى كما كنت تعتقدين. (الذي لا تعرفينه أبدًا، هو أنني كنت أشعر بطيفهم جميعًا مثلك). إلى أن فوجئت بجدي «أبو السُّبَح» نفسه يدخل هذا العالم الذي لا يمكن تصوره، ليخبرني بأنك ابنته التي عاش عمره زاهدًا لينير الله له طريق الوصول إليها.

هذا يا عزيزتي كان فوق طاقتي. أعرف أن رُبَّما قِصَّتي معكِ لا يمكن تصديقها أبدًا. شيء يستطيع المتمسكون بعالم المنطق أن يتهموني فيه (براحة بال) بالشطط والجنون. ليضيفوا تعليقهم القاتل على قِصَّتنا بأن نهايتها مغرقة في الخيال ولا تصدر إلا عن عقلية رجل مجنون، ولكنها النهاية الحقيقية الوحيدة الصادقة. رُبَّما لأن دمائي ودماءكِ اختلطتا فجمعنا الأكثر جنونًا في شخوص أهلنا. ومع ذلك كنت أستطيع أن أواجه العالم كله بالحقيقة الغريبة لقصتنا، أو أحتفظ بها لأحكيها لابنتك العزيزة كي تستطيع تفهُّم وضعنا الشاذ، أو حتى أن ألتزم الصمت وأحني رأسي وأصمت احترامًا لذكرى كل الذين رحلوا من العائلتين. لكن ما لم أستطع فهمه أبدًا هو إنكارك الكامل لكونك تحملين بعضًا من دماء جدي. وكأنه نجس لا يمكن أن يسري في عروقك، دون أن تعلمي أن رفضك لجدي رفضٌ خالص لحفيده الذي طالما بكيتِ لأنه أتى متأخِّرا، بعد أن أصبح قلبك غير صالح سوى لعلاقة عابرة لمغترب يجب أن ينصت بإمعان لأطياف عائلتك دون أن يكون له الحق في المشاركة.

سهرنا كثيرًا سويًا يا أماندا الحلم المستحيل. وفي كل سهرة، كنتِ تستمتعين بتفاهات براءتي، فتنصتين لي كما لم ينصت لي أحدٌ أبدًا. حكيت لك تاريخ أسرتي وكأني شهرزاد، باحثًا دائمًا عن نظرة الدهشة التي نستحقها من عيون فرنسية، لتصدميني بحكاية أهلك الأكثر إدهاشًا. وعندما فاجئتِني بأنك أغلب الظن أخت أبي، وبأن جدي وأمك رُبَّما هما أبطال قِصَّتنا، وأن أمك هي نفسها فنانة الشارع التي وقع جدي في حبها، فغيَّرته من شاب عاشق للسفر إلى ولي صوفي، نظرت إليَّ ببراءة وقلتِ لي: وما المهم؟ هذا لا يعني لي شيئًا؟ ومارستِ معي الغرام كما لم نمارس أبدًا، وكأن الحقيقة قد أضافت لعلاقتنا سحرًا كبهارات الجحيم. ليلتها شاهدت طيف جدي يتبعني في كل أركان بيتك ويبكي. فعرفت انك ابنته التي لم يحتضنها أبدًا. وعندما أخبرتك بذلك، اتهمتِني بالجنون والسخرية منك، لكني في الصباح لم أجدك في فراشي، ووجدت رسالتك التي أعدت قراءتها آلاف المرَّات، حتى فقدت الذاكرة.

"منصور..

كنت أريد أن أهرب منك دون أن أكتب خطابي هذا. تمامًا كما هربت أمي من جدك الذي لم تحتمل وصفي له بالجنون كأمي. لكن رغبتي العارمة في الكتابة لك أكبر مِنِّي. بينما أنت نائم كطفلٍ صغير في سريري الذي طالما كوى جلدي بنار الوحدة والقلق. رُبَّما لأنني أكثر قدرة على مسامحتك ومسامحة نفسي سأتركك تمضي. متمتعة بتلك الفضيلة التي طالما انتقدتها فيك، القدرة على إدراك كم نحن ضعاف في هذه الحياة القاسية. صدقني مع خطوتك الأولى إلى بيتي، تمنيت لو أنني كنت قابلتك قبل سنوات بعيدة، قبل أن تحطم حياتي فرنسا التي أحبها وأحببتها أنت

أيضًا، رغم أنك حاولت دومًا أن تثبت لي أنها أقل سحرًا وجنونًا من مصر. أحيانًا أسأل نفسي: لماذا لا أستطيع أن أحتفظ بذلك المصري الأسمر الذي أعاد لي الحياة كهدية؟ رُبَّما لأعيد رفضها من جديد. أتذكر الآن عندما اعتدت أن أقدِّم لك أماكني التي أعشقها، فخورة ومتعالية، كنت دائمًا تدهشني بشيءٍ لم أكتشفه، تقدمه لي عيناك مع أنني مررت به آلاف المرَّات؛ فناجين القهوة بخيطها الذهبي الذي يلمع كنجمة الشمال، قطرات الندى الصغيرة التي تحبها الفراشات على أزهاري في النافذة، جارتي التي لا أشعر بوجودها، تلك العجوز التي تستيقظ كل يوم قبل الفجر؛ لتستقبل الشمس الوليدة على صفارة لحنها المبهج، ابنتي التي أصبحت فتاة يجب أن تتخذ طريقها في الحياة، ولا أشعر بها إلا تلك الطفلة التي لا يفيدها سوى الحنان واللعب، وقبل كل ذلك قلبي الذي اعتقدت أنه فقدَ القدرة على أن يحب. الآن أكتب لك لكي أطلب منك أن تغادر وإلى الأبد. رُبَّما لو كنت فرنسيًا مثلي، لكنت قادرًا علي فهم قواعد اللعبة، لكنك أعطيت كل شيء للسيدة التي لم تعطِها الحياة القدرة على فهم أي شيء، بينما هي تكذب على نفسها للمرّة الألف مدعية امتلاك الحقيقة. الآن أشعر كم أحبك، لذلك أطلب منك أن لا تعود. هنا لن تجد كل هذا الحب الذي حدثتني عنه عند أهلك الذين طالما وصفتهم بالمجانين. عندما كنت تحكي عنهم وتضحك حتى تدمع عيناك، كنت أعلم أنها دموع الحنين. الآن أطلب منك أن تعود إلى فتاتك التي لم تذكرها لي أبدًا، فتاتك التي تدعى وردة. لا تتعجب من معرفتي بسرك، فلقد كنت تردده دائمًا عند نشوتك وفي أحلامك، وعندما بحثت في المعجم عرفت أنه اسم لزهرة. أنا لست وردة يا منصور ولا أنتمي لعالم الأزهار. أنا سيدة فرنسية تعيش وحيدة وتحارب من أجل الاحتفاظ ببيتها ووظيفتها، ورغم

أنه ليس هناك أصعب من أن أعترف بذلك، إلا أنني أحببت وردتك هذه. كنت أراها في قلبك حتى في أشد لحظات قُربك مِنّي. موجودة دائمًا في لمسة يديك ورائحتك التي لم أعشق في حياتي رائحة مثلها. عندما تخرج من بيتي سيعتصر معدتي ذلك الألم الغامض الذي أصبحت أتلذذ به كطعم وحيد للحياة. لقد أصبحت امرأة تعشق الألم. عرفت من اللحظة الأولى أن هناك شيئًا ما يربطنا. دم ما يجري في عروقنا له نفس لون الجنون. حامض خاص يضخه قلبانا ويسري في عروقنا. رُبَّما تكون قِصَّتك حقيقية أو رُبَّما مجرَّد خدعة أخرى من خدع الدنيا، لكن بعد أن نسجتها الحياة بهذا الإبداع، لن تعود أبدًا كما كنت. اخرج يا منصور من بيتي وحياتي ولا تعد أبدًا. من أجل الله وراحة نفوس مَن ماتوا من أسرتينا.. لا تعد.

ممن رُبَّما تكون عمتك: أماندا"

## -٥٨

مات عم أحمد القفاص. وجده السعيد ممسكا بسكينة وجِريدة خوص كان يعمل عليها، وبجواره كوب شاي لم يكمِّله أبدًا، مبتسمًا ابتسامة سخرية من الحياة التي عذبته وحانيًا رأسه على صدره، أو رُبَّما ابتسامة ود أخيرة لأهل الحارة، أو حتى ابتسامة ترحاب للأحباب المنتظرين له على الشاطئ الآخر من الموت، مهللين بقدوم صديق قديم اشتاقوا لمؤانسته. ابتسامة صاحبته أثناء غُسله الذي حضره رجال الحارة جميعًا. ولأول مرّة لا أحس أني محور دوران الكون. سرق عم أحمد الأضواء كلها مِنّي. لم أكن أشعر أنني الوحيد اليتيم في الحارة. شعور اليتم كان حاضرًا كلونٍ أزرق طاغ، قادرًا على صبغ الحياة كلها بأفق السماء والبحر. شقَّت النساء جلابيبهن ولوَّنّ وجوههن بلون النيلة الأزرق، وهلْن تراب الحارة الذي طالما احتضنته خطواته فوق الرؤوس. وحدها كانت أم محمد تشيعه بالزغاريد وإلقاء حبَّات الملبّس على النعش، لتحتضن رأسي وتسكت بكائي. تهتز معي بجسدها مرددة بهمس كالنحيب في أذني: "عمك أحمد راح عند ربنا يا ناصر. هو انت مابتحبش ربنا يا ناصر. هو في أحن من ربنا يا حبيبي"

"الموت سكِّينٌ سريعٌ ومحترف. لا يذبح الراحلين أبدًا. الموت مجرم ساديٌّ، يلهو بخنجره المسنون كلاعب سيرك، ليبشقه بلا رحمة في قلوب المعزين، ليترك ندوبًا وألمًا، جروحًا تحتاج الكثير من الوقت للنسيان. وقت يرتاح الموت فيه مِنَّا، متلذذًا بانكسارنا، هدنة يحاول معها اختيار كيف تكون طعنته القادمة أكثر إيلاما. الموت جزار أيامنا السريعة، أسرع من قدرتنا على النسيان. ونحن لسنا إلا قطيعًا من خراف، نهلل لأننا لم نذهب هذه المرّة، متناسين أننا

واقفون في الطريق الطويل نحو المقصلة" قالها لي السعيد وهو يجالسني ويجالس عم أحمد في بيته الجديد الأبدي...القبر. لم يحاول انتزاعي للعودة معه كالآخرين. فقط، انتظر معي حتى غابت الشمس، وانسحب لأنه رجل يجب أن يكون بين الرجال، يشد على أيديهم ويتقبَّل العزاء، ليعود فيمسح دمعة زوجته، وينسحب بصمتٍ للحياة، منتظرًا دوره في طابور الخراف الذي يقصر كل يوم.

وماذا اذا عن نهاية قصتي الطويلة هذة؟ كنت أود أن أكتب الآن بعد مضي عشرات السنين على وفاة أحمد القفاص، أنني أكملت حياتي في «أبو السُّبَح»، محقِّقًا أمنيته في مداواة أهلها، وبأنني استطعت أن أكفِّر عن جرائمي في حق عصام القرن ووردة، وبأنني حوَّلت خُص أحمد القفاص، إلى واحتي التي أهرب إليها من عناء الحياة فأجالس طيفه وطيف جدي مع ما تبقى من أحِبة، وبأنني استطعت أن أنهي سوء التفاهم بين عبده الطيار والسيارات الهاربة منه إلى شيء لا يفهمه. كنت أريد أن تنتهي حكايتي بتسامح كبير. فأصل إلى اتفاقية ما، بيني وبين زينب العارجة، تريحني وتريحها من عذابات ماضٍ تعيس، مؤكدا على شفائي من حُبي لوردة التي عذبتني دائمًا بجمال روحها الذي لا مثيل له، وأنها رحلت عن الحارة مع عصام إلى القاهرة. فذابا في الزحام وعاشا ما تبقى لهما من حياة كأسرة سعيدة، وأنني تعلمت فضيلة الرضا كأهل حارتنا، دون خوفٍ من نهاية ما، تشبه نهاية أحمد القفاص، المثقف الجامعي الذي مات فقيرًا وحشًّاشًا، وبلا أولاد يترحمون عليه رغم كل شيء.

أو رُبَّما كان من الممكن أن تنتهي حكايتي بأن أكتب الآن وأنا أطفئ أنوار عيادتي الخاصة في تولوز، ألقي نظرة حب وابتسامة على صورة جدي التي حملتها معي من مصر، ووضعتها بجوار صورتي الوحيدة التي تجمعني بعم أحمد القفاص والسعيد. نعم هربت مرَّة أخرى لأحاول أن أجد حُلم عائلتي أو أموت مجنونًا في

هدوء. الغريب أن كل شيء تغيَّر هذه المرّة. قررتْ الحياة أن تبتسم لي أخيرًا. مات عصام القرن المسكين بالسُّلِ في السجن، وانتقلت وردة وابنتها للحياة معي في تولوز. تزوجتها لأنني اكتشفت أن بُعدي عنها كان السبب الوحيد لكل آلامي. وهى لم تكف أبدًا عن إدهاشي. فمن يتخيل أن وردة بنت أم زيتون العالمة، هي نفسها السيدة روز صاحبة أكبر مطعم عربي في المدينة، وأن ابنتها التي كانت تلعب الحجلة في«أبو السُّبَح»، أصبحت مساعدتي الأولى في العيادة، كطبيبة مبهرة ينتظرها مستقبل رائع. من يتخيل أن وردة وأماندا أصبحت صداقتهما أعمق من أن أفهمها، وأن أماندا استطاعت أخيرًا أن تجد سعادتها مع الرجل الذي تستحقه؛ محامٍ شهير مفتون بالعزف على الأكورديون، يعزف لها على نفس الأكورديون الذي ورثته من جدها إيمانويل، لتتلبسها أحيانًا روح جدتها أليتا فتصير مجنونة ورائعة تمامًا مثلها. الآن وأنا أغلق أنوار عيادتي كل يوم، أبتسم من أفعال الحياة التي لم أفهمها، متسائلًا عن ضرورة كل هذه الآلام التي يجب أن يمر بها بنو البشر للوصول للسعادة.

سواء إذًا كانت كل أحداث قِصَّتنا أنا وأماندا حقيقية أو كذبنا فيها كثيرًا لنجعل أحداثها منطقية (على الأقل لكل مِنَّا فقط)، فسيبقى أيًا من كلتا النهايتين ، مثاليًا جدًّا في حياة لا تعرف المثالية أبدًا؟ وأياً كان مصيري بعد كل هذه السنوات التي مرت سريعًا (كما أخبرني مرّة رجلٌ عجوز ركب معي الحافلة في تولوز متعجِّبًا من مرور العمر سريعًا دون حتى أن يلاحظه)، فإنني أعتبر نفسي محظوظًا لأنني شاركت فيها. لأن أيًا كانت نهاية سفرنا الطويل الشاق، فالرحلة تبقى هي الجائزة.. الرحلة هي دائمًا الجائزة.

**تمَّت**

**مونتريال**

**٢٧/ ٢/ ٢٠١٤م**

# تولوز

هل كانت "أماندا" تحصد ما جناه قدرها لما يجري في دمائها رغما عنها من روح جدها عازف الأوكورديون الغريب؟ ذلك الذي هجر أغنياته الرقيقة ليضعه القدر في خطوط الحرب الأولى مع الألمان؟ وبعد أن ترك زوجته في حربها الخاصة مع الإقطاعي "فرانسواه"؟

هل كان الطبيب "منصور" -حفيد سيدي أبو السبح- نبيلاً بحق؟ هل صار ذلك ممكناً بعد ضياع "زبيدة" في تيه الدعارة البغيض بفرنسا؟

أيمكن أن يظل الحنين باقياً رغم الحياة نفسها؟ وكما بقي ذلك الأوكورديون الوحيد في ذلك المستشفى البعيد ذكرى حزينة وأثراً فريداً عن أغرب مريض مشهور كان يوماً هناك.

## د/ أسامة علام

طبيب وروائي مصري. حاصل على درجة الماجستير من جامعة بول سابتيه بفرنسا، ودرجة الدكتوراه من جامعة مونتريال. صدر له "واحة الزهور السوداء" عام ٢٠٠٨، والمجموعة القصصية "قهوة صباحية في مقهى باريسي"، والتي فازت بجائزة غسان كنفاني عام ٢٠١٣، كما صدر له عن دار "دوّن" رواية "الاختفاء العجيب لرجل مدهش" في نفس العام.

الشروق Shorouk
9949890000605
L.E30.00

تصميم احمد مرا